قصص________________________

رباعية بحري



على تمـراز

محمد جبـريـل

رباعية بحري

عينى رأت غليون فى وسط البحور شاحط

ريســـه جدع جد ياخســـارة دفّته راحت

قبطانـــه اتعمـــى والميـــه عليه ساحت

ولا باسهـــر ارتاح ولا بانعس يجىلى نوم

حتى الشـــراع انقطع فيه حتة طيبة راحت

من موال للصيادين

فى انتظار مالايجىء

صعدت إلى سطح البيت . مسحت النجوم المبثوثة فى السماء السوداء ، تختفى لمرور سحب صغيرة متناثرة ، ثم تعاود الظهور ..

كانت الليلة شتوية . الهواء البارد ينداح بصفير موحش ، فى الحوارى الضيقة ، الملتوية . البيوت أغلقت نوافذها ، فبدت ساكنة الواجهات . وثمة رائحة نفاذة ، تترامى من موضع لا تتبينه ..

تكرر الحمل والإجهاض ، فلم يعد أمل الإنجاب ماثلاً ــ وحده ــ فى أفق الأشهر التالية . تستعيد فترات الترقب ، والصدمة المتكررة . يضيف إلى توترها ما تتعاطاه من أدوية ، يكتبها لها الأطباء فى مستشفى الملكة نازلى ..

داخت من اللف على الحكيمات والمستشفيات والمشايخ والمقامات والأضرحة . كنست مقامات أبو العباس وياقوت

العرش والبوصيرى وخضر ونصر الدين . وزعت ما أخذته بنثره على جسمها ، وفى طست الحمام . لجأت إلى ضاربى الرمل وقارعى الودع ومفسرى الأحلام والأحجبة والقواقع والأصداف . أعد لها الحاج محمد صبرة خلطات أعشاب ، عادت بالمأمول على كثيرات ، واستعملت الدهانات والسفوف . اختلطت فى أنفها روائح القرفة والزنجبيل والخلنجان وتين الغليل وعرق الجناح وحبة البركة وعود القرع والفانيليا . كتب لها الشيخ مكى عبارة " المصور جل جلاله " . طلب أن تقرأها كل يوم إحدى وعشرين مرة على صوم بعد الغروب ، وقبل الإفطار ، سبعة أيام على ماء . تنفث فيه ، وتشربه ، فيثبت الولد فى رحمها بإذن الله ..

كانت تكتم تشوقها إلى أطعمة ترافق أيام حملها الأولى . تخشى رفض سيد ، وتلميزه ، ومعايرته ..

تضيق بالأسئلة ، والنظرات المشفقة ، والمصمصات ، والنصائح بأعشاب ، ووصفات . تحزن للعبارة : عقبال عوضك ، ففى داخلها ما يجب أن تعوضه . يؤلمها السؤال : ألا يوجد شئ فى السكة ؟..

فاجأتها زمزم بالقول :

ــ يا أم الحاضر ..

أردفت لعينيها المتسائلتين :

ــ تعشّمى فى حضوره بإذن الله ..

أدركت أن المرأة تقصد الحلم الأمنية ..

أكدت زمزم المعنى :

ــ غداً تزهقين من رعاية الأولاد !

ثم فى نبرة محرضة :

ــ لن تستطيعى امتلاك زوجك ولا بيتك إلاّ بالخلفة ..

قالت لها الكودية نظلة :

ــ إذا حلبت نجمك ، فسينقطع الحيض من ثانى شهر !..

أين نجمها فى هذه السماء الواسعة ؟..

ثمة مشاعر تتداح فى داخلها ، وهى تطل من النافذة على الأولاد يلعبون فى الشارع ، وهى ترى أماً تحمل طفلها فى الترام ، وهى تمضى فى صراخ المواليد يعلو حولها فى مستشفى الملكة نازلى ..

لماذا الناس ينجبون ؟ ولماذا هى لا تنجب ؟..

قدّر السلطان ظروفها ، وتوسط سيدى ياقوت العرش ، فأعطاها كمال مصباح تاجر المانيفاتورة شقة البلقطرية . لا تتصور أن الله يعاقبها على ما لم يكن لها حيلة فيه ..

نسيت الكلمات المداعبة ، والضحكة . تمضى الأيام ، أربعة أيام أو خمسة ، لا يتبادلان كلمة واحدة . حلت بينهما جفوة الصمت . ما يصل بينها وبينه خيوط واهية . تمدّها بمحاولات إرضائه . يهمل التقاطها ، ويظل على صمته . التقى بناس من كفر الدوار . عاد إليها ليروى ما حدث . لو أنها التقت بأبيها ، أو إخوتها ، أو ناس من القرية : هل يعرفونها بالملاءة اللف والبرقع ؟ وكيف تواجه الأمر ؟.. تحاول الاختفاء ، أو تقف لترد على الأسئلة ، وتشرح البواعث ، أو تستضيفهم فى الحياة المستقرة ؟.. يناوشها القلق : هل يظل سيد والشقة والبلقطرية ، أو تتغير الظروف إلى ما تتوقعه ، وتخشاه ؟..

أعطاها كمال مصباح الشقة ، بأمر من سيدى ياقوت العرش . لا تستطيع ــ إن طلقها سيد ــ برفض الناس ــ أن تظل فيها ..

توقعت أن يغادر البيت ، فلا يعود . يرمى عليها يمين الطلاق . يتزوج ثانية . غلبها الخوف . لم تعد تدرى لماذا ، ولا كيف . تنتبه بأذان المغرب . تزيل عن جسمها رائحة تعب النهار . تبدّل فستانها . ربما جرت بالقلم الأحمر على شفتيها ، ولمست خديها بقطعة قطن مغموسة فى البودرة . تقف وراء النافذة المواربة تتوقع مجيئه . تقبل عليه ، تصده ، تخضع ، تعاير ، تصرخ ، توبخ ، تطلب الطلاق . يعلن التأفف ، ويترك البيت . تلاحقه فى الكشك . تصالحه . تذكّره بطيبته ، وبالعشرة . تظل فى النافذة ، لا تتحرك ، حتى يطالعها شبحه فى أول البلقطرية ..

يبدو كل شئ حلماً . تصحو ، فتسعفها ذاكرتها بما رأته ، وتحزن . تعانى رغبة فى البكاء ، أو فى اللطم ، أو فى ترك البيت ، والجرى ــ حافية ــ فى الشوارع ..

ألفت توقفه ــ لا تناقشه ــ أمام باعة الصنف ، على الرصيف ، وفى القهوة ، ووسط الطريق . يسلمه البائع ، ويتسلم منه . وألفت أسماء الغبارة والربع قرش ودهان العفريت والصاروخ والدتّورة وجوزة الطيب ..

كثر تردده على سوق الترك . يشترى تحويجات وسفوف ودهان . تضمن له الإطالة حتى تزهق المرأة . يدس ما يشتريه فى سيالة الجلباب ، يحرص فلا يلمحه أحد ..

انتتر بتلقائية إلى الوراء ، حين قدم له خميس شعبان تحويجة فى برطمان صغير :

ــ مجرد لحسة قبل النوم تجعل المرأة تفيق ..

قال سيد :

ــ المرأة ليست مقصرة .. أنا أريد الخلفة ..

قال خميس شعبان :

ــ كيف تطلب الخلفة من امرأة باردة ؟!

تداخلت فى صوته بحّة :

ــ أنا لم أتكلم عن برودة ولا سخونة .. أريد أعشاباً تساعد على تثبيت حمل المرأة !..

الإنجاب ، الخلفة ، الأولاد . الامتداد الذى لا قيمة للحياة بدونه ..

ليتك إذن ماجئت . ليتك تموت !

واجهته بالسؤال :

ـــ ماذا لو أن الله لم يرزقنا بالخلفة ؟..

اختلجت شفتاه :

ـــ هذه مصيبة لم أفكر فيها !..

وهز سبابته فى وجهها :

ـــ نحن موتى بالحياة لو لم ننجب !

يطالبها بما لا تقوى عليه ، بما لا تملك تنفيذه . هى تملك الدعوات والابتهالات والتوسل ببركات الأولياء والرقى والتعويذ والأحجبة . ماعدا ذلك ، فهو ملك الله . تمنحه إرادته ، ويمنعه إن شاء . تترقب ، وتخشى ، كلمة يقطع بها خيط العلاقة ..

متى ؟..

كسا وجهه بهدوء ، لا يتيح لها أن تتعرف إلى ما بداخل نفسه ، وما ينوى فعله . قناع من السكينة الهادئة ، المتوترة . إذا حدث ما تخافه ، لن تستطيع الحياة فى بحرى . لن تقوى على مواجهة الناس فى صورتها القديمة . ربما انتهى بها الحال إلى السير على البحر !..

تأمل الطبيب الأشعة جيداً ، ثم قال :

ـــ العيب ليس فى الرحم ..

ونقر بالقلم على المكتب :

ــ أنت فى حاجة إلى تحاليل ..

واستطرد فى تنبه :

ــ والزوج أيضاً ..

ثم فى لهجة مشاركة :

ــ ربما كان العيب من زوجك ..

قالت أنسية :

ــ وماذا أفعل ؟

كتب كلمات فى ورقة صغيرة . دفعها لها :

ــ انصحيه بإجراء هذه التحليلات ..

وشى صوت سيد بانفعاله :

ــ تضحكين على نفسك ؟.. أجرى تحليلاً لو أنك لا تحبلين !..

وهى تنظر إلى الأرض :

ــ وماله ؟.. ربما البذرة ضعيفة ..

رمقها بعينين متعبتين :

ــ ما كان يحدث الحمل ..

همست بلهجة محرّضة :

ــ لن تخسر شيئاً .. لماذا لا تحاول ؟..

تكورت قبضته ، واهتزت :

ــ هل تريدين تشكيكى فى نفسى ؟!..

أزمعت أن تترك الأمر لإرادة الله . لكن الهاجس الذى لا تدرى مبعثه ــ هل هى الأمومة ؟ ــ كان يلح بما يصعب مغالبته . لو أن العيب من جانبه : هل يوافق على علاج نفسه ؟.. وماذا لو أنه عالج نفسه ــ دون أن تعلم ــ وفشل ؟!.. إنها أكثر حاجة منه إلى الولد ، حتى تظل حياتها معه . حتى يستمر زواجهما . لا ينهيه خصام ، ولا مشاهد مما يحدث بين الأزواج . لا تظل أسيرة القلق والتوجس والخوف من قادم الأيام . لا تشعر أن حياتها معه معلقة فى الهواء ، بلا خيوط تبقى عليها ..

لمن كانت تعد الأقمطة والأغطية والمرتبة الصغيرة؟!.

كان قد أقلع عن الكيف . لم تعد تجد فى جيوبه ما كان يودعه فيها قبل أن ينتقلا إلى البلقطرية ..

ضحكت من قلبها لملاحظته :

ــ أليس غريباً أن أبطّل المزاج بعد أن سكنت مع تجّاره ؟!

ثم وهو يعيد خصلة الشعر المتهدلة إلى موضعها :

ــ أنا لا أسأل حتى عن السعر وهم يقفون به على الرصيف ..

وضعت يديها على كتفيه :

ــ لا شأن لنا به ولا بسعره ..

قال ليطمئنها :

ــ حتى قِطع المجاملة أعتذر عن قبولها ..

وأبعد ذراعيها برفق :

ــ نحن أصحاب عيال ..

لم يعد يربط بين ترقب الخلفة ، والإقلاع عن المخدرات ، وإن لم يعد إلى تعاطيها ..

لماذا عاد ؟..

قالت كالمتذكرة :

ــ حلمت هذه الليلة ما أدعو الله أن يجعله خيراً ..

وبصقت من فوق كتفها ثلاث مرات :

ــ اللهم اجعله خير ..

أومأ برأسه يستحثها على الكلام :

ـــ رأيت رجلاً لا أعرفه ، وإن لم يبد غريباً عنى . يرتدى عباءة بيضاء ، ويضع على رأسه عمامة بيضاء ، ويدس قدميه فى خف أبيض . اتسعت ابتسامته فى وجهى ، وقال : ربنا يعمل ما فيه الخير . ثم اختفى ..

شاب صوتها تذلل :

ـــ معنى الحلم أن الفرج قريب .. أليس كذلك ؟..

وضربت بطن يدها بظهر اليد الأخرى :

ـــ أنا الرابعة بين ست بنات وثلاثة أولاد ..

وافتعلت ابتسامة :

ـــ أمى كانت أرنبة .. وأنا قطعة حجر !..

ظل سيد على صمته . خمنت أنه يذيب فصاً تحت لسانه ..

* * *

حين عاد سيد من الخارج ، فوجئ بنثار الأطباق المكسورة فى الصالة ..

نظر إلى أنسية ، ونظرت إليه ..

أدرك ما حدث ، فظل على صمته ..

النـــذير

" جذبة من جذبات الحق توازى عمل الثقلين "

حديث شريف

***

قال أبو الحسن الشاذلى :

" المحب على الحقيقة من لاسلطان على قلبه لغير محبوبه ، ولا مشيئة له مع مشيئته "

" ومن أوصافهم تطهير النفس من كل خلق دنئ ، وتحليتها بكل خلق سنى ، يتحملون الأذى ولا يؤذون ، ويحملون على الناس ، ولا يحملون كل على أحد ، ويعينون على أسباب البر ، وويغيثون الملهوف ، ويرشدون الضال الجاهل ، وينبّهون الغافل ، ولا يتخذون حجاباً ولا حُجَّاباً ، وكل من طلبهم وجدهم ، وكل من أرادهم وصل "

علا صوت الشيخ أحمد أبو دومة فى ترحيب :

ــ أهلاً بأبى الشهيد !

تبين ضيقه فى إغماض عينيه ، وتجعد جبهته ، فسكت عن السيرة ..

قال إبراهيم سيف النصر وهو يقذف بالجريدة جانباً :

ــ وزارة التطهير !..

وعلا صوته فى أسى :

ــ تطهير مصر من الفدائيين ..

قال أدهم أبو حمد :

ــ العمل الفدائى الآن أكبر من الحكومة ، ومن الإنجليز أيضاً ..

تفد إلى ذهنه كالأطياف ، مشاهد متداخلة ، غير مكتملة : القفز من السيارة فى انحناءة الطريق إلى معسكرات رأس التين .. المبنى الصغير أعلى كوم الدكة .. شخطة أبيه فى الصرخة المنفعلة من فم أمه .. امتزاج الفرحة بالقلق لصراخ الوليد فى الغرفة المغلقة .. أنت بطل ، لابد أن تنال جزاء الأبطال .. البرد القاتل تلطمه به نوة العوة وهو يصعد

الطريق إلى رشدى باشا .. خوف الليلة الأولى فى الزنزانة الرطبة .. ادع للاستقلال ، أنقذك من حبل المشنقة .. الوجه الأبيض ذو العينان الباسمتان فى نافذة الشقة المقابلة .. رائحة ياسمين من حديقة قريبة تملأ نفس الليل .. عساكر الإنجليز يقودونه إلى العربة أسفل البيت .. المياه الراكدة والذباب والهاموش وروائح العطن .. الرجل لا يعيبه سنه ولا مكانته .. البيوت ــ على البعد ــ صغيرة ، متناثرة ، تتخللها مئذنة مسجد ، وقمينة لحرق الطوب ، ونخيل ، وأشجار .. السير المتباطئ فى زحام شارع الميدان ، ومحطة الرمل .. هواء الصباح المشبع برائحة البحر .. ليلة المولد : البيارق والرايات والدراويش والمجاذيب والدعوات والابتهالات وحلقات الذكر ومجالس الإنشاد .. تناهى بكاء طفل من نافذة مغلق .. الشوارع الخالية ، الموحشة ، يسودها الظلام ، فيما عدا الكلوبات المتناثرة على أبواب الدكاكين وعربات اليد .. جلسات النساء فى مداخل البيوت .. استاد الإسكندرية ، ومبنى الإسعاف ، والمشرحة ، والكوبرى المفضى إلى محرم بك ..

قال فهمى الأشقر :

ـــ ألم يكن من المفروض أن يبدأ على ماهر مفاوضاته مع الإنجليز ؟..

قال المهدى اللبان :

ـــ هذا هو المفروض .. لكن الرجل ـــ لأسباب يعلمها الملك ـــ حمل أوراقه ومضى ..

قال الشيخ قرشى :

ـــ الملك منذ إعلان انتسابه إلى آل البيت يعمل بالوحى..

قال المهدى اللبان :

ـــ ربما تحول إلى ولى يسقط التكليف ، ويطالبنا بالتجاوز عن جرائمه !..

قال أدهم أبو حمد :

ـــ ما يدهشنى أن وزير الأوقاف الوفدى ـــ بعد ثلاثة أشهر من إقالة حكومته ـــ شارك فى وضع تقرير مع نقيب الأشراف يثبت فيه بالكذب نسب فاروق إلى سلالة الرسول بالشهرة والتواتر !..

قال الشيخ قرشى :

ــ أى شهرة ، وأى تواتر ؟.. نازلى حفيدة سليمان باشا الفرنساوى من نسل الرسول ؟!..

قال إبراهيم سيف النصر :

ــ الأغرب أن يعلن هذا النسب بعد أن جرد الملك أمه من لقبها !..

قال فهمى الأشقر :

ــ وما الفرق إذا كان المرء من الأشراف أو لم يكن؟..

أردف للنظرة المتسائلة :

ــ مجرد سؤال ..

قال الشيخ قرشى :

ــ لا فرق !.. وإن كان انتسابه للأشراف يعطيه قوة روحية !..

قال أدهم أبو حمد :

ــ الوفد يأمل فى العودة إلى الحكم ..

وارتعشت شفتاه :

ــ ألم يرفعوا إلى الملك ــ بعد إقالة الحكومة ــ محضر جلسة مولد الأمير أحمد فؤاد على صفحتين من ورق الغزال .. والعنوان بماء الذهب !..

قال الشيخ قرشى :

ــ الشيخ عبد الحفيظ سأل فى خطبة الجمعة .. عن الفرق بين نجيب الهلالى وعلى ماهر ؟..

قال سيف النصر :

ــ هو الفارق بين توأمين ..

قال أبو حمد :

ــ بهذا المنطق ، فإن التوائم فى الحكومة بعدد رجال السياسة !..

قال أبو دومة :

ــ يحسب لعلى ماهر تخفيض أسعار الكثير من المواد التموينية .. السكر والغاز والأقمشة الشعبية وغيرها ..

واتجه إلى إبراهيم سيف النصر بنظرة مجاملة :

ــ كلها زيادات قررتها حكومة الوفد ..

قال أبو حمد :

ــ رفع الهلالى شعار التطهير .. وهو أمر يطلبه الجميع ..

فوت سيف النصر الملاحظة :

ـــ ما شأن التطهير بفتح المعتقلات وتعطيل الدستور وتسريح مجلس النواب ذى الأغلبية الوفدية ..

وعلا صوته :

ـــ هل يتصور أحد أن زعيمين مهمين فى الوفد تحدد إقامتهما ؟..

سال فهمى الأشقر :

ـــ من ؟..

قال سيف النصر :

ـــ فؤاد سراج الدين وعبد الفتاح حسن ..

قال حمدى رخا :

ـــ وماذا عن وجود الإنجليز فى القناة .. هل عدنا إلى البداية ؟..

رنا الشيخ قرشى إلى القادم بنظرة مودة :

ـــ كيف حالك ياشيخ جابر ..

حين ظهر جابر برغوت ، بعد حادثة مدرسة البوصيرى ، كانت نظرات الناس قد تهيأت لاحتضانه بمشاعر دافئة . أسكن الله القلوب حبه . أدركوا أنه من

أرباب الأحوال ، واعتقدوا فى ولايته . اعتبروه من أكابر الأولياء ، وأرباب العلوم ، والأسرار ، والكرامات الهائلة ..

ألف الناس رؤيته أمام مدرسة البوصيرى ..

يجلس على الرصيف المقابل ، أو لصق الضريح . ربما جلس على مقعد فى دكان المكتبة الصغيرة المواجهة للمدرسة . يشغله أن يكون غاية فى القرب من مقام سيدى الأنفوشى . هذا ما أوصاه به سيدى ياقوت العرش ، ووصية الأولياء واجبة التنفيذ . ألفوا فترات صمته ، سادرة عميقة . ينظر إلى ما يرونه ، ويصيخ سمعه . ربما همهم بكلمات مدغمة ، يخص بها ناساً مجهولين . ربما غادر مكانه ، فيراه الناس فى صحون الجوامع ، وفى الشوارع ، وعلى الكورنيش . يبذل همّته فى فعل الطاعات . يحرص على الفرائض والسنن ، وصلاة الضحى ، وطهارة النفس ، والبدن ، والثوب . يردد آيات القرآن ، وأسماء الله الحسنى ، والأدعية . يكر حبات السبحة ..

تواترت كراماته ..

تلاقت روايات فى أنه مجاب الدعوة ، كثير الإخبار بالمغيبات . وكان يوجد فى أكثر من مكان ، فى وقت واحد .

ينزل الدرجات الخشبية بمسجد الشوربجى ، يطوف بالمبخرة ــ وهو يبسمل ويحوقل ــ أمام المنبر والمحراب فى سيدى عبد الرحمن . يمشى فى زحام شارع الميدان ، يتمدد على رصيف الكورنيش . ربما سعى إلى مسجد محمد كريم بالقرب من سراى رأس التين . يحلو له الجلوس تحت القبة الكبيرة ، تحتها كمرات ضخمة من الخرسانة ، تؤلف زخرفة نجمية . يدخل الضوء فيحيل التجويف كرة من النور ..

قيل إن الرجل لم يعد هو . انسلخ من حوله وقوته . لبسه سيدى الأنفوشى . ظهر له فى المنام ، وأنبأه بأنه سيركبه كما يركب الجواد . يتكلم باسمه ، وينطق كلماته . وقيل إن عباءته مهداة من سيدى الأنفوشى . فرح بها الشيخ تبركاً بآثار الولى الجليل . صارت له ــ من يومها ــ كرامات وخوارق وعادات ومظاهر شطح ، وكان إذا احتاج شيئاً ، دعا به ، فاستجاب الله له . أكد ذلك قدرة الشيخ على معرفة المجهول ، والتنبؤ بالغيب ، ومعرفة ما سيظهر فى المستقبل ، والتطلع إلى مشاهدات لا يراها أحد ..

عرف عنه النصح بأدوية للمرضى والممسوسين ، والقدرة على إخراج الشيطان من نفوسهم ، فهو مملوء

بالمعارف الإلهية . كل شئ أشار باستعماله ، تحقق به الشفاء . ورآه صيادو الجرافة واقفاً على شاطئ الميناء الشرقية . لم يتأكدوا إن كان يتابع صيدهم ، أم أنه ينظر إلى ما لا يرونه . فاجأهم بالسلام ، ثم مشى على الماء ، حتى اختفى . وقيل إنه يخبر الناس بما أكلوه وشربوه ، وما فعلوه فى بيوتهم ، وما جرى بينهم وبين أزواجهم ، ويحدثهم بما فى ضمائرهم ، وما ينوون فعله . ويمد يده فى الهواء ، يستعيدها مملوءة بالمال الذى يعطيه للفقراء ، ثم يمضى . وكانت عصاه تضيء له الطريق إن سار فى الظلمة . فإذا لامس مريضاً بعصاه ، فإن العصا تشفى من المرض حالاً . وكان يمر على رأس المريض بيده ، ويتلو آيات ، ويقرأ أدعية ، ثم يأخذه بيديه :

ــ قم بإذن الله !

لجأ إليه الصيادون فيما يواجههم من شدائد البحر ومضايق البر . تسلل إليه نسوة حوامل فى ظلمة الليل ، يصعدن سلالم مدرسة البوصيرى . يدفعن الباب الموارب . يضعن يد الشيخ على بطونهن ، يسألنه عما يحملنه إذا كان ذكراً أم أنثى ، أم أنه ــ لا قدر الله ــ خنثى . وقيل إن

الساطور نزل على أصبع الأورمجى ياسين زغلول وهو يهوى به على الأورمة ، فأطاره . لحق برغوت صراخه ، وبصق على موضع القطع ، ووصله باليد ، فعادت إلى حالتها . وكان إذا أحس العطش ، نظر إلى سحابة عابرة . تهمى عليه قطرات ، يفتح لها فمه ، حتى يرتوى . ويميل بجسمه من فوق مكعب أسمنتى ، أسفل الكورنيش . طعامه ما تخرج به راحته من الجندوفلى

حصلت له من الله عناية . زالت الوحشة ، وطابت الحياة ، وحصل الجلال والهيبة . تضوعت رائحة المسك الأذفر من تحت قدميه ، وظهر النور من قلبه على وجهه . لم يعد أحد يستطيع النظر إليه من النور والإجلال . من يلمح فى عينيه إمارات شك ، يؤذيه فى نفسه . يخبله ، أو يقعده ، أو يخسف به الأرض ، فلا يعرف أحد له طريقاً . وروى أنه إذا غضب على إنسان ، سمّره فى مكانه . ورآه الناس يحمل سيفاً خشبياً يحارب به من لا يراه أحد ، يصرخ فى وجهه وهو يوجه الضربات المتوالية ..

ـــ ما لكم لا تسمعون كلامى ؟.. إنى لو كلمت أسفلت الطريق لتأثر من كلامى ..

لمحه أمين عزب من النافذة المطلة على سيدى على تمراز . صعد السلم الدائرى إلى المئذنة ..

هل ترك الرجل مدرسة البوصيرى ؟ وأين ذهب الشيخ قرشى ؟..

تحل عليه ألفة الوحدة ــ دون توقع ــ يملأها الأسى . تظله سحب الوحشة . يعانى الإحساس بالحنين والذبول والإحباط والعجز والغربة والوحشة والهزيمة والاضطهاد والقهر والجدب . تذوى دعاوى النفس ، وتذهب إمارات كبريائها . يعيب على الخلق عدم المجاهدات ، وغفلة القلوب ، ولزوم الفساد . اختلفوا ، وتنازعوا ، وتفرقت أحوالهم . سعوا إلى هلاك أنفسهم ، فانهمكوا فى المخالفة ، وسلكوا فى الخروج عن الطاعة مسلك من تقدمهم . ذاقوا أذية النار فى بيوتهم وأموالهم ، نذيراً بتذوقها فى أنفسهم . عميت البصائر ، وغامت الأفهام ، فلم يتدبروا ما حدث . ظل الأمناء على الدين فى ضآلتهم ، وكثر الحريصون على الدنيا ، وقل المتفقهون ، أو أنهم تفقهوا لغير الدين . خلا السبيل للأشرار ، وأصحاب البدع ، والآفات الباطلة ، وتاركى الفرائض ، وفاعلى الحرام ، والمجاهرين بالمعاصى . آلت الأمور إليهم

، والمراهنة فى صالح بدعهم ونزواتهم ، بعيداً عن الإقدامات الإصلاحية . لم يخلصوا فى مجاوزة الجهل إلى العلم ، ولا الضلال إلى الهدى ، ولا الشقاوة إلى السعادة . اضطرب البحر ، وتلاطمت الأمواج ، وأشرفت السفينة على الغرق ..

حصلت له الرغبة فى التصوف . لا يدرى متى تيقظت فى داخله ، ولا كيف امتلكت إرادته . تمنى أن يشهده الله المراقبة فى خلواته ، ويرى فى مراقبته ما لا تراه الأعين . غذّى القلب بتلاوة القرآن ، وأدى الصلوات الخمس بوضوء واحد ، ولم تكن تأتى عليه لحظة إلاّ وهو يذكر الله . لم يعد يسمع ، أو يقرأ ، شيئاً من العلم إلاّ حاول تثبيته فى ذهنه ، وحفظه . لازم ذكر عبارة " الولى جل جلاله " كل ليلة جمعة ، ألف مرة . توسل أن يجد ــ بذكرها ــ تيسيراً فى أموره ، ويصبح ولياً من أولياء الله الصالحين . دفعه الشوق والانجذاب إلى ما لم يكن يتصور أنه سيقبل على تعلمه . سقى قلبه بماء العرفان ، فأورق ، وأثمر ، وإن غلبه التيقن بأنه ليس من أهل الولاية الخاصة ، ولا أهل الكشف ، أصحاب الحقائق ، وأرباب التوحيد ، الموسومين بأنوار القرب . هو من جملة السائرين إلى الله ، لا من زمرة

الواصلين . اختيار الله لعبده خير من اختيار العبد لنفسه ، والأقطاب اختارهم العلى ، ولم يختاروا أنفسهم . أعدهم الله لأحوال مخصوصة ، ووضع فيهم من إرادته ، وخصهم بولايته ، وأذاقهم حلاوة مناجاته . ليس فى سماء أسرارهم غيوم ، ولا فى هوائها ضباب ، فهم يتنزهون بالأسرار ومشاهد التسبيح فى رياض الذكر . لم يعد يطمع فى مقام ، ولا كرامات ، ولا مكاشفات تبين عن نفسها بعد وفاته ..

ثمة ما عجز عن فهمه ، ووصفه ، كأنما قيدت نفسه بالتهيؤ لتلقى الإشارة ، فهى قد امتلأت بأنوار المحبة ، وسلطان الاشتياق ، وصنوف المواجيد . يشعر بالسر ، وإن لم يلامسه ، ولا سمع صوته . دعا الله أن يزيل عنه النسيان ، والغفلة ، وقساوة القلب ، ويعينه على أمور الدنيا . هو الذى يملك السمع والأبصار والقلوب والرزق والضر والنفع والحياة والموت والبعث والشفاعة والرحمة . أدركً أنه يحمل ما لا يحمله سواه من البشر . الصفاء من حوله تحوطه سكينة هادئة ، وإن تناهت أصداء الألحان التى لم يسمع مثل جمالها ، ولا فيضها ، ولا إشراقها ..

فاجأ الناس فى شارع الميدان بعصا ينهال بها كيفما اتفق ..

علت الصرخات ، وتدافعت أقدام الزحام تفسح أمامه الطريق . لم يبد أنه تنبه إلى الصخب الذى أحدثه . صعد درجات جامع الشوربجى . أطل على الأعين المتسائلة ، الخائفة . قال :

ــ فكيف تواجهون عذاب يوم عظيم ؟!..

والتمعت عيناه ببريق غاضب :

ــ لو أنى أملك نزع جلودكم لفعلت . التصقت فيها الأحقاد والضغائن فلا تزول ..

وتحسس بغلة على جانب الطريق ، دست بوزها فى مخلاة العليق . قال :

ــ متى تحمل البغلة لتنتهى الدنيا ؟..

قال حمدى رخا :

ــ سمعت خبراً عن حملات اعتقال للفدائيين ..

أردف للذهول فى الأعين المحدقة :

ــ سمعت الخبر فى محطة الشرق الأدنى ..

قال أدهم أبو حمد :

ـ هذه محطة انجليزية ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ـ استمعت إليها .. هل تتوقع أن تقدم الإذاعة المصرية أغنية تقول : فتكلم فتألم فتعلم كيف تكره ؟ ..

تبدّل سيف النصر فى اللحظة التالية . تكلم ، وناقش ، وأطلق الدعابات ، وضحك من أعماقه كمن لا يشغله شئ ..

قال الشيخ قرشى :

ـ لمن نستمع إذن ؟..

قال سيف النصر :

ـ رحم الله أيام عبد الله الكاشف .. لم يكن الراديو يفارق أذنه ..

انتظمت رسائل عبد الله الكاشف . مكتوبة بخط مشكول ، جميل . بدا مطمئناً إلى حياته الجديدة فى بركة غطاس ، وإن اختصر فى عباراته . تباعدت رسائل الكاشف بقدر تكاسله فى الرد عليها . ثم انقطعت الرسائل تماماً . يتذكره فى جلسات القهوة ، وإذا مشى أمام البيت المواجه لجامع سيدى البوصيرى . ربما تذكره بلا سبب ..

قال المهدى اللبان :

ـــ الليلة الخميس الأول من الشهر ..

رفع أدهم أبو حمد عينيه الساجيتين :

ـــ ماذا تقصد ؟..

قال المهدى اللبان :

ـــ أم كلثوم .. هذه ليلتها ..

قال أدهم أبو حمد :

ـــ أنا لا أقوى على السهر .. وإن كنت أحب صوتها..

قال إبراهيم سيف النصر :

ـــ أصارحكم بأنه إذا أصابنى صداع عالجته بسماع أم كلثوم ..

قال فهمى الأشقر :

ـــ فلنأمل إذن وجود صوت الست فى الأجزاخانات ..

قال سيف النصر :

ـــ أم كلثوم بالنسبة لى مراحل حياة .. كل أغنية تذكرنى بأيام ، بعضها جميل ، وبعضها لا أعاده الله !..

قال فهمى الأشقر :

ـــ تعجبنى شادية .. صوتها طفل ..

قال أبو دومة :

ـــ ولكنه لا يطرب ..

قال سيف النصر :

ـــ دع الطرب لأم كلثوم ..

قال فهمى الأشقر :

ـــ فى الفترة الأخيرة ظهرت أصوات أخرى لا بأس بها .. شهرزاد وهدى سلطان وفايدة كامل ..

قاطعه أدهم أبو حمد :

ـــ ألا تعجبك سوى أصوات النساء ؟..

قال فهمى الأشقر :

ـــ بالعكس .. صوت عبد الوهاب يحتفظ حتى الآن بعذوبته ..

علت الصيحة بالنشوة ، فاضطربوا ..

ذاق لذة الإخلاص ..

داعبت وجهه نسائم كأنها مس الحرير ، ورائحتها كالمسك . ملأه الشعور بأنه يملأ الكون . لحظات السكينة والصفاء والمناجاة ، المسربلة بالأسرار والخفايا والبواطن والرموز والإشارات . استيلاء الذكر ، واطمئنان القلب ،

وسلطان الشهود ، والإلهامات ، والتجليات ، وفيوض البحر الإلهى ..

هل تنهتك أستار الريب ، ويسطع فجر العرفان ، وتطلع شموس التحقيق ، تنقشع سحب الغيبة ، وينجلى ضباب الأوهام ، وتصفو سماء الحقائق مجلوة ، مشرقة ؟..

مضى ــ دون أن يتلفت ــ ناحية اسماعيل صبرى ..

غاب فى زحام شارع الميدان ..

العودة إلى البحـــر

كان الصباح رمادياً ، ومرسى المراكب يتنفس الهدوء ، حين فك الحبل من الــبروة ، وقفز إلى لنش حمادة بك ، وانطلق ..

رحلة العودة ــ بعد ما حدث ــ نصف ساعة ، أو أقل . ظل البلانس فى اتجاهه إلى الأمام ، حتى ظهرت نصف الدائرة فى امتداد الشاطئ بين السلسلة وقلعة قايتباى ..

مضى باللنش فى الاتجاه نفسه ، وهو ينظر إلى الساعة المثبّتة فى التابلوه ..

كان يتمشى بلا هدف ، عندما رأى مفتاح اللنش متدلياً من الموتور ..

طقّت الفكرة دون تدبّر . أسقط الأسئلة والتوقعات ..

يعلم أنه خرج لملاقاة سمكة بالذات . لا يدرى تماماً إن كانت كذلك ، أم أنها وحش بحرى ، كما روى الرجال ،

وأمّن المعلم عباس الخوالقة ، أم هو جن بحر ، كما قال حمودة هلول . هو لن يستطيع ركوب البحر إلا إذا لقيها ، تنتظر لقاءه . تصارعه . يقتلها ، فيتاح له العودة إلى البحر..

لما أسند الحقيبة القماش الصغيرة على كتفه ، واتجه إلى داخل السيالة ، كان يدرك أن رفضه لما قرره عباس الخوالقة بلغ حد القطيعة ..

غادر حلقة السمك إلى الناحية المقابلة . ابتلعته الشوارع الضيقة ، الملتوية ..

كان المعلم بمفرده يحصى إيراد اليوم ..

ظل فى مكانه إلى جانب الطاولات الفارغة ..

ــ الجد السخاوى ..

علت وجه الخوالقة ابتسامة فاهمة :

ــ أعرف ماذا تريد أن تسأل عنه .. لماذا أوكلت إليه وحده مسئولية البلانس ؟..

فى صوت ممزق :

ــ طول عمرى السكوندو ..

قاطعه الخوالقة بإشارة من يده :

ـــ أنا أدرى بالصح والخطأ ..

شوح بيده فى تهوين :

ـــ ما واجهناه فى البحر مجرد سمكة ..

رمقه بانعكاسات ضيق :

ـــ هل رأيتها من قبل ؟..

لملم جرأته :

ـــ وهل رأينا كل أنواع السمك ؟!

فاجأه استطالتها بالقرب منه . كأنها تقف بذيلها على الماء . لم يلحظ وجودها ، ولم يلحظ حتى الخدوش فى ذراعه ، وهو يدفع ـــ بعفوية ـــ ارتطامها به . انطلقت الحربة من يد إبراهيم فرغلى . أصابتها فى كتفها ، فانطلقت فى سرعة مذهلة ، وفى مدارات متقاطعة . وكان قد ومض فى عينيها ما أرعبه ..

وهو يخطو على السقالة للرحلة التالية ، منعه عباس الخوالقة بإشارة من يده :

ـــ خذ أجازة ياقاسم ..

حدجه بنظرة متسائلة :

ـــ لماذا ؟..

قال الخوالقة فى صوت باهت :

ــ الوحش يترصد لك .. قد يغرق البلانس كله ..

داخلت صوته ارتعاشة :

ــ إنه مجرد سمكة .. ولا تعرفنى ..

أدار الخوالقة عينيه :

ــ يعرف رائحتك .. ولن يفلتك إذا ركبت البحر ..

واجه الرفض عند كل المعلمين ..

بدت السمكة ، المخلوق الهائل ، الوحش الذى لم ير منه سوى عينين ناريتين ، مساوياً لحياته . لن ينزل البحر مادام الوحش فى أعماقه . مادام قد عرف رائحته ، وينتظره . تخايل له ، لاحقه ، ارتسم له فى أشكال لا تنتهى . حتى الصورة التى ظلت فى باله لأيام ، تداخلت بصور أخرى ، رسمها الرجال ، وأضاف إليها . جاوزت الصورة المحددة ، وإن مالت إلى الطول والامتلاء والسحنة المخيفة ..

همس حمودة هلول :

ــ لعله جنّى أغضبته مواخاتك لجنية البحر ..

وانتزع ابتسامة :

ــ لعلك أخذتها منه ..

الجد السخاوى تحدث ــ ربما لجرأته ــ عن مخاواته لجنية . انت مخاوى ياولد . تلقف القول ، وتفاخر به ..

قال :

ــ هذا مجرد كلام ..

قال هلول فى جد :

ــ الجد السخاوى لا يقول إلاّ ما يعنيه !..

قبل أن يغيبه زحام شارع الميدان ، ظهر أمامه فكرى ، جرسون قهوة مخيمخ . دس فى يده ورقة مطوية ، واختفى فى الزحام ..

رنا ــ بعفوية ــ فى طريق العودة ــ إلى الوجه الباسم فى المشربية المطلة على شارع الموازينى ..

عندما سأله فكرى فى جلسته على قهوة الزردونى ، تلفت فى حيرة :

ــ إنها سيدة متزوجة .،

قال فكرى :

ــ أصارحك بأنى كلمتها فى ذلك .. قالت إنها لا تحبه ..

تململ فى جلسته :

ـــ ولماذا قبلت ؟..

اقترب بفمه من أذنه :

ـــ قالت إنها لم تتزوج منه باختيارها .. فرضه أهلها عليها !..

دفعه الغرياني في كتفه :

ـــ لا أقيم علاقة مع امرأة متزوجة ..

رمقه فكري في توجس : هل هذا هو الغرياني الذي يعرفه ؟..

بدا التوجس ذهولاً عندما فز قاسم :

ـــ يكفيني وحش واحد !..

ظل على اندفاعه إلى الأمام ، وإن بدا الطريق كثير الانحناءات ، مملوءاً بالنتوءات الصخرية والطحالب والأعشاب ..

هل أدرك عباس الخوالقة أنه يقذف به بعيداً عن دنياه : البحر والبلانسات والصواري والقزق والغزل والمداري والجرافات والصيد والحلقة والسمك والجو العدل والغليني والشرد والنوات ونفضات الشعير وسحابات الطير ورائحة الملح . لا يتصور دنيا غيرها ..

لابد أن يأذن له الخوالقة بالعودة إلى البحر ، وملاقاة السمكة ، الوحش ، الجسم الهائل ، الجنى . قال الخوالقة نفسه : توقع الخطر أقسى من مواجهته . ربما مضت الأعوام ، فلا ينزل البحر ..

خالط تحديه خوف فى اقترابه من المنطقة التى لابد أن السمكة الهائلة ظهرت فيها . امتد الزمن ، واتسع ، واختلط ، وتشابك . تحول إلى لحظة واحدة ، فاصلة بين الحياة والموت . لم يشعر ــ من قبل ــ بهذا الخوف . تلاحقت أنفاسه . علا صدره ، وهبط . ارتعش فى وقفته ، وارتعش كل جسمه . حتى أسنانه اصطكت ، فلا يستطيع إيقافها . تحسس السكين الطويلة على جانب البنطلون ، وتمتم بما أسعفه به لسانه من آيات القرآن ..

تعثر فى وقفته لمروق طائر بالقرب من أذنه . تساند ــ حتى لا يسقط ــ على البروة ..

حدق فى سطح البحر الساكن . الأسماك الصغيرة تتقافز . تحدث صوتاً كالهسيس ، والمد يلقى بالأعشاب الخضراء ، الداكنة ..

تنبه لصوت احتكاك بجانب اللنش . ثار الموج الساكن ، واهتز اللنش ، وتمايل فى وقفته . استند إلى البروة براحة يده اليسرى ، وانتزع السكين باليد الأخرى . اتجه بنصلها إلى توقع الخطر ..

صرخ لانبثاق الموج أيمن اللنش ، عن جسم هائل ، لم يتبين ملامحه ، وإن فطن إلى العينين الناريتين تعلوان الخلقة الغريبة . ليس انساناً ، ولا حيواناً ، ولا سمكة مما يشغى بها البحر ، ويعرفها ..

لطم الجسم الهائل جانب اللنش بذيله العريض . تصور ـــ لشدة اللطمة ـــ تحطم اللنش . مال اللنش . دفعه هيجان الموج إلى وجهة أخرى ..

مال بدورة ، وأطلق السرعة ، فطار اللنش فوق المياه ..

أبطأ من سرعته فى مواجهة السؤال : هل يعود إلى الشاطئ ، فلا يركب البحر ثانية ؟..

عاود تحسس السكين المدلاة بجانبه ، والتقط من الأرضية عموداً من الحديد ، وأدار عجلة القيادة إلى الناحية المقابلة ..

بدا الوحش كأنه ينتظره . بعد المسافة أتاح له تأمله ، الطول البادى فوق الموج يشى بأنه أقصر مما يتذكره . الجسم لسمكة وإن بدا بلا زعانف ، والذيل عريض . وكان متحفزاً ، متوثباً ، يهم بما لا يتوقعه ..

اندفع الكائن نحو اللنش كعاصفة تداخلت مع الأمواج ، عمود دخان تعالى فى الجو . لطم بذيله جانب اللنش . قذف به بين الأمواج ، علت ، توالت ، تكسّرت على جوانب اللنش . شعر باللنش يتأرجح ويتمايل . لم يعد ثمة أفق . اختلطت المشاهد ، وتمازجت ، وتشوشت . بدت مزق صور ، ونقاط ضوء متباعدة ..

تساقطت المياه داخل اللنش . لم تستطع الفتحات تصريفها . انحرف ثانية ، وانطلق إلى نتوء صخرى تعلوه طحالب وأعشاب . أطال الوقفة وراءه ، حتى خلت أرضية اللنش من الماء . تلفت حوله . ثم أدار الموتور . ولف ـــ عائداً ـــ حول الصخرة الصغيرة ..

لم يكن الوحش ـــ حين عاد ـــ فى موضعه ..

بدا الموج حصيرة ، وإن حلقت فوقه طيور دائمة الصراخ ..

خمن أنه أفلت منه . أطال تأمل الموضع . الأمواج تلال صغيرة ، وأشعة الشمس تسقط فى زاوية حادة على سطح المياه ، حزم متشابكة من الأشعة المضيئة ، تبين فيها أسراب الأسماك المتداخلة . وثمة قطع سحب داكنة ، تزحف من الأفق ، والريح " طياب " مشبعة برائحة الملح واليود والأعشاب ، وكركرة بلانس تترامى من بعيد ..

أحس بوجود الكائن الغريب ، وإن لم يتبين موضعه ..

أدرك أن الوحش يراوغه ، يغريه بالمساحة الممتدة بلا أفق ، فيصعب عليه الفرار . شعر بجفاف فى حلقه ، وبما يشبه الاختناق يضغط على صدره . حبل التف حول عنقه ، فهو لا يقدر على التنفس .

صرخ ــ بعفوية ــ لطلوع الجسم الهائل من الناحية المقابلة .عيناه الثاقبتان ، الثابتتا النظرة ، وجسمه الهائل ، المكتنز ، الدائم الاهتزاز ، وشاربه الكثيف ، وزعانفه كأنها أشرعة صغيرة ، متداخلة . وكان ينفث دخاناً أبيض من فتحتى أنفه وعينيه وأذنيه ..

امتلأت أرضية اللنش بدفعات من الماء ، فقاربت حافته الموج ..

داخله فى وقفته خلف الصخرة إحساس بالعجز والهزيمة . وتخاذل ساعداه . لم يعودا قادرين على الحركة ..

تملك الوحش هياج . اندفع الدخان من فتحتى أنفه ، ثارت الأمواج لقوته ، وفاضت المياه على جانب اللنش ..

نسى الخوف من الوحش ، والخوف من الموت نفسه ..

استجمع ما تبقى من قواه . جز على أسنانه ، وتقلصت راحته على السكين ..

مال بها إلى الوراء ، ودفعها ــ بآخر ماعنده ــ فى الجسد المتطاول ..

تنافر السبـــل

افترقا على صيحة عم محجوب ..

حدق ليتأكد مما رأى . الأنوار داخل الحمام مطفأة ، فيما عدا لمبة وحيدة أمام الباب الموارب ..

ضغط على زر النور القريب . تأمل العصا فى يد الولد ، والحبال كتفت يدى الرجل وقدميه ، والملابس الملقاة فى ركن المربع ..

خمن ما حدث ، فصرخ :

ــ يا أولاد الأبالسة .. هل خلت الدنيا من النسوان ؟!

فاجأته سحنة حمادة بك . غالب ارتباكه :

ــ ما هذا يا حمادة .. ماذا يفعل هذا الولد معك ؟..

التقط حمادة بك ملابسه من ركن المربع ، ارتداها بلهوجة . دفع عم محجوب بأصابعه ، وجرى خارج الحمام ..

***

كان قدوم الليل يخيفه ..

تصده الظلمة عن السير فى الشوارع الضيقة ، المفضية إلى شارع اسماعيل صبرى .

الحكايات تغادر به القهوة خائفاً من الأشباح والموتى والجان والعفاريت ، يعطى لها انتباهه ، لا يشارك فيها ، فهو لم ير ما يتحدث الرجال عنه ، لكنه يثق ـــ من خلال التأكيدات ـــ بوجودها ، ويخاف مطاردتها . يتصورها فى أشكال وتكوينات ، يتوقع ترصدها له فى الأماكن المظلمة والخرابات والبيوت المهجورة ، حيث تفضل العيش . قد تفاجئه فى حنية السلم وهو يصعد إلى الشقة ـــ يستعيذ ، ويبسمل ، ويتمتم بعدية يس . يتوقع زوالها ، وإن ظل الخوف هاجساً يناوشه ..

كان يفضل الشوارع ذات فوانيس غاز الاستصباح على جانبيها ، فى طريقه بين البيت والمسافرخانة والحجارى وقعدة محمد صبرة وقهاوى الزردونى والمهدى اللبان وفاروق وجوامع المرسى أبو العباس ونصر الدين والبوصيرى وياقوت العرش وعلى تمراز ومقامات أولياء الله ..

حاول أن يطرد الخوف بقراءة سورة يس ، وآيات من جزء عم . اصطنع الغناء بصوت مرتفع . استدعى إلى لسانه ما لم يحاول اختياره ..

قبل أن يتجه من ميدان الأئمة إلى الموازينى ، لحقه صوت الشاب :

ــ كيف أصل إلى حمام الأنفوشى ..

وهو يشير إلى ناحية شارع التتويج ، شده فى الشاب ما لم يتبينه على وجه التحديد . فى حوالى الثامنة عشرة . أميل إلى النحافة والطول . شعره مجعد ، له قصة تنزل على جبينه ، وعيناه ساجيتان مطمئنتان ، وشاربه خفيف فوق شفته العليا . يرتدى جلباباً أزرق ، له فتحة فى الصدر ، تبرز منها فانلة متآكلة الأطراف ، ومثقوبة ، ويدس قدميه ــ لاحظ اتساخهما ــ فى حذاء كاوتش ثنى جزأه الخلفى . يدارى مظهره الأنثوى بصوت ينتزعه من حنجرته ..

قال مدفوعاً برغبة فى أن يأخذ ويعطى :

ــ الحمام لايفتح ليلاً ..

همس الشاب :

ــ أعرف ..

ــ هل تقصد مكاناً بالقرب منه ؟..

قال الشاب فى صوته الهامس :

ــ أنا أقيم فيه ..

فى نبرة مبطنة بالود :

ــ تقرب لعم محجوب ؟..

غالب الشاب ارتباكاً ، ولم يجب ..

توقف حمادة بك عن المشى ، واتجه ناحيته ..

قال لمجرد أن يحدثه :

ــ ماذا تعمل ؟..

فرد راحتيه :

ــ أقصد وجه الله ..

وهو يعيد نظرته :

ــ لماذا لا تعمل فى الحمام ؟..

رفع إليه عينين مرهقتين :

ــ الحمام لا يحتاج إلا إلى خفير ..

رسم ابتسامة متوددة :

ــ المكيساتى مهنة مربحة ..

ران على صوت الشاب تخاذل :

ـــ لا أعرفها ..

ثم وهو يعتصر كفيه :

ـــ الحمام لايحتاج إلا إلى خفير ..

قفز الخاطر الجهنمى إلى ذهنه دون تفكير ، وبلا تدبر . قذف البركان حممه فى غير موعد ، وتوالى وميض البرق ، كأنما سواد الليل تحول إلى نثار ، وقصف الرعد ، وهطل المطر فى صفاء الجو ، وتراقصت الأشباح والتهاويل ، وهزت الريح ـــ فى امتداد الشاطئ ـــ أوراق الشجر وسعف النخيل ، وساخت القدمان فى الرمال الساخنة ، الناعمة ، واختلط صياح الديكة فى الأسطح القريبة ، وتتابعت الأمواج ، وتلاحقت ، والتمع زبد الماء تحت انعكاسات أشعة الشمس ، وتصاعدت رائحة الشواء فوق جمرات الفحم المتقدة ، وترامى صوت فرقعة سوط حوذى ، وحفّت أفانين اللذات والأغانى ..

داخلت صوته ارتعاشة واضحة :

ـــ أنا أحتاج إلى مكيساتى يساعدنى فى استعادة عافيتى ..

إلحاح الخاطر أرعش صوته وجسمه . كانت الرغبة تفاجئه بمناوشتها . تحيطه الغابة المسكونة بالصراخ والبكاء ، والأصوات الهامسة ، والصاخبة ، والمتلاغطة . يتصاعد فى داخله ما يصعب فهمه ، ولا يقوى على كتمه . تسيطر على نظرات عينيه . تفتش عن المعنى فى قعداته ، وفى نظرات ناس الطريق . ربما تجتذبه عينان تشيان بانفراجة الباب إلى غابة السحر والنشوة ..

لم يكن قد تردد على الحمام منذ الزيارات الجماعية لتلاميذ مدرسة راتب باشا الابتدائية . المربعات التى يصل ارتفاعها إلى طول القامة ، يتصاعد منها البخار الساخن ، ووشيش نزول الماء من الأدشاش ، ووقع القباقيب على الأرضية ، والأصوات المتلاغطة تترامى بما لم يكن يعرفه ، ولا استمع إليه ..

كانت دلائل البلوغ تدهشه ، حين رآه الجد السخاوى يتأمل الرجال الواقفين تحت الأدشاش :

ــ انجر من هنا ..

ذوت النشوة فى داخله . لم يعد إلى الحمّام من يومها ، وإن تعرف إلى عم محجوب من تردده على فرن التمرازية ، وقهوة الزردونى ..

غياب الرخام الساخن عوّضه بالتمدد على البسطة المفضية إلى داخل الحمام . بدا الشاب متحيراً : ماذا يفعل ..؟

أشار برأسه :

ــ هات ليفة وصابونة وماء فاتراً ..

همس باللذة :

ــ كن قاسياً .. لاتخجل من إهانتى ..

***

قال الشاب :

ــ لا ذنب لى .. هو الذى ..

تحير عم محجوب بين مواجهة الشاب . وملاحقة حمادة بك الذى اختفى فى الظلمة ..

واجه الشاب بعينين جامدتين :

ــ ماذا ؟.. هو الذى ماذا ؟..

ارتعش أنف الشاب بالخوف والارتباك :

ـــ التقيت به فى ميدان أبو العباس ، فصحبنى إلى الحمام ..

تنمرت ملامحه :

ـــ هذه أول مرة أراه هنا . أما أنت فتجازى إيوائى لك بكبيرة ؟!..

تقطعت شهقات الشاب فى نشيج مرتفع :

ـــ سألنى أين أقيم .. أصر أن يصحبنى ..

ثم وهو يخفى وجهه براحتيه :

ـــ عرف ظروفى ، فعرض تشغيلى ..

قاطعه عم محجوب :

ـــ فى الكومبانية ؟!..

* * *

عندما وقف الشاب على باب الحمام ، قال عم محجوب:

ـــ الحمام بالمجان .. والمبيت ممنوع ..

وهو يهز رأسه :

ـــ أعرف !

تهيأ لإغلاق الباب :

ـ الحمد لله ..

قال الشاب فى مداهنة :

ـ أطمع فى كرمك .. ثلاث ليال .. أحضر فيها مولد أبو العباس ..

رمقه بنظرة باردة :

ـ هذا مولد .. لا أحد يسأل عن أحد ..

عاود الشاب إلحاحه :

ـ جئت بمفردى .. ولست مريداً فى طريقة ..

نبه عليه الصاغ عاطف شوقى مأمور نقطة الأنفوشى بألاّ يأذن لمخلوق بالمبيت فى الحمام ، حتى من يأذن لهم بمجرد الدخول ، عليه أن يتثبت أنهم من أبناء الحى . كلّمه عن الفارين من الجماعات السياسية . من يشك فيه ، يغلق الحمام عليه ، ويبلغ نقطة الأنفوشى القريبة ..

كانت الشوطة أصعب أيامه ..

أملت عليه الأوامر أن يقتصر دخول الحمام على الموظفين وتلاميذ المدارس . غاب عن الحمام قاسم الغريانى وحمودة هلول ومحيى قبطان وخميس شعبان . من ألف قدومهم قبل أن يطلع الصبح . توالى قدوم تلاميذ المدارس ،

وطلبة المعهد الدينى ، والسحن الغريبة لرجال يرتدون البدل والجلابيب والجبب ..

نظر الرجال إلى الشاب فى ريبة ، وتهامسوا بأسئلة ، ولمّحوا إلى جلسته على باب الحمام ، بالقرب من عم محجوب ..

قال ــ ليسكت فضولهم ــ إنه قريبه ..

قال قاسم الغريانى :

ــ أخيرا .. ظهر لعم محجوب أهل !..

لم يكن من أهل بحرى ، ولا من أهل الإسكندرية . السنوات التى أمضاها فى الحمام ، وتردده على الجوامع والقهاوى ، ومعرفة الصيادين ، جعلته من أبناء المدينة . لم يعد يذكر العسيرات إلاّ أن يلتقى ــ كل حين ومين ــ بأحد أبنائها عند أبو العباس . عرف مواعيد النوات ، وموالد الأولياء ، وأنواع السمك ، وحكايات البحر . وكان يروى للرجال ما يعكس لذة المتابعة فى عيونهم : أبو زيد والزناتى والسندباد والجازية وسيف بن ذى يزن والزيبق والسفيرة عزيزة ، وشخصيات أخرى يخترعها ، ويضيفها إلى السيرة والحكاية ، يبالغ فى روايته حتى يأخذ انتباههم تماماً ..

***

لم يكن عم محجوب يتردد على البلدية إلاّ ليقبض راتبه . لم يستدع لمساءلة ولا تحقيق . حتى عهدة الصابون والفوط يتسلمها عامل الغلاّية والتبخير . ينصرف العامل فى الثانية بعد الظهر . يغلق عم محجوب الحمام ، لا يأذن بالدخول إلاّ لمن يعرفه ..

قال الرجل ذو الشارب الكث الأبيض ، والعينان الجاحظتان :

ــ أنت تؤجر الحمام للمبيت ..

حدجه عم محجوب بنظرة مندهشة :

ــ وهل الحمام لوكاندة ؟..

قال الرجل :

ــ أنا الذى أسألك : هل الحمام لوكاندة ؟..

خالط صوته استياء :

ــ قهوة كشك بقرشين .. هل آخذ قرش صاغ ؟!

كرر عم محجوب السؤال : لماذا ، حين أمره مفتش الصحة أن يسلم عهدته . آخر زيارة إلى الصعيد منذ ثمانى سنوات ، ثم لم يعد يغادر الحمام ولا الإسكندرية ..

قال فى نبرته المستاءة :

ــ هل كنت أتركه مع الولد ؟..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ــ إذا اعتذرت لحمادة بك .. أثق أنه سيعفو عنك ..

عاود الصراخ :

ــ هل كنت أتركه ؟..

ومض فى الذاكرة ما نقله الولد عن حمادة بك : أنا الملك فى بحرى .. فتش عن مهنة مناسبة ، واترك لى الأمر..

قال قاسم الغريانى :

ــ لولا إشفاقى على صحتك لطالبتك بالمشاركة فى اللعبة ..

نطق الغضب فى ملامحه . غطّاها بقناع من الخطوط والتجاعيد :

ــ اخرس يا قليل الأدب ..

***

تقدم الليل ، وتناقص عدد رواد قهوة الزردونى . أطفئت أنوار الداخل . لم تعد إلا اللمبة المدلاة من السقف ،

أعلى الرصيف . انشغل عبد البصير ، عامل النصبة ، بالتنظيف ، وإعادة " العدة " إلى أماكنها ..

اقترب ياقوت من عم محجوب الجالس بمفرده ..

قال ، يتحسس الكلمات :

ــ هل تقبل استضافتى هذه الليلة .. يحصل لى الشرف ؟..

أصوات بلا أصداء

في غبشة الفجر ، سبق حمادة بك ـــ فى سيارته الصغيرة ـــ سيارتى النقل إلى الرمل ..

بدا الابتعاد عن بحرى منفذاً وحيداً من الورطة التى أوقعته فيها اندفاعته . شغلته ثمار اللحظة ، فانطمست الاحتمالات الغائبة ..

الخوف من أن ينتقل السر من فم أنسية ، إلى آذان المترددين على بيت سيدى داوود ، لا شىء أمام مناداة عم محجوب له : يا حمادة . لم يتصور أنه يمكن لأحد فى بحرى أن ينطق الإسم مجرداً ، بلا صفة تسبقه ، أو تتبعه . هو الأستاذ حمادة منذ وعى ، وهو حمادة بك منذ نقل الرجال التسمية عن الحاج قنديل . إذا اقترنت المناداة الجديدة بظروفها ، فإن الفرار من بحرى هو التصرف الذى يجدر به أن يفعله ..

اكتفت نهى بالسؤال :

ـــ لماذا ؟..

قال وهو يتحاشى نظراتها :

ــ أبداً .. زهقت من هذا الحى ..

لم تناقشه ، ولا أظهرت رأياً ، وإن كتمت الإحساس بالراحة فى داخلها . رحبت بالقرب من بيت أبيها ، وما صادفته فى دولاب ملابسه يشى بتصرفات لا تعرفها . أدركت أن الانتقال إلى الرمل فرار من مأزق يواجهه ..

فاجأ إمام أبو العباس المصلين ، وحمادة بك فى الصف الأول ، بالقول فى خطبة الجمعة :

ــ إن مع كل امرأة شيطاناً ، ومع كل غلام ثمانية عشر شيطاناً ..

تحدث الإمام عن إهمال الاستعداد للآخرة ، والغفلة عن الموت ، والتدنس بالمعاصى ، واجتناب الكبائر . وقال :

ــ مما تمادى عليه أهل هذا الزمان ــ كما أنبأنا حكيم ــ مباسطتهم ، ومؤانستهم للعاصين ، واحترامهم ، ومقابلتهم بالبشاشة والإجلال ، والثناء عليهم فى المجالس ، ومخاطبتهم بألقاب الشرف ، ومصاحبتهم طمعاً فيما عندهم ، أو خوفاً من بطشهم ، مع أن الله تعالى قد نهانا عن هذه الأفعال ..

توقع أن يفاجئه الإمام بالقول : هذا هو أنت ياحمادة !..

ماذا يستطيع أن يفعل لو أن الإمام وبخه ــ باسمه ــ أوشتمه ؟! نقل محجوب مارآه على غير حقيقته . لكنه لايستطيع مواجهة السؤال : وماذا كنت تفعل مع الولد داخل الحمام ؟..

وشى إلحاق الحاج قنديل لعم محجوب بواباً بعمارة له فى شارع رأس التين ، بتصديق عم محجوب فيما رواه . هو يثق فى رواية الرجل . وقيل إنه صارح جلساء قعدة محمد صبرة أن السن لا تأذن بتلقى مفاجأة ظهور السلطان ، وسماع نصائحه وتحذيراته . بدا له تصرف الحاج قنديل مؤشراً ، بوصلة عليه أن يهتدى بها ..

لو أنه صحب الشاب إلى بيت سيدى داوود ..

تركه على حاله منذ ورثه . فى باله حكايات أبيه عن الصرخات المنبعثة ــ حين يأتى الليل ــ من داخله ، والأنات المكتومة ، والنشيج ، والصيحات المحذرة . ربما تصاعدت ضحكات ، أو مناقشات صاخبة . لولا أن أنسية سبقته إلى دخول البيت ، ما فكر فى أن يدخله .. رافقه دوى الطبول ، والنغمات القاسية ، والصرخات الوحشية . نسى الخوف ، ولحقها ..

لم يضع فى باله ذيول ما حدث ..

أوعز ، ففصل محجوب من عمله . جاوز الرجل الذهول بعد يومين أمضاهما فى بيت ياقوت . ثم خرج إلى الجوامع والزوايا والقهاوى ، يروى ويروى . حتى من لقيهم فى الطريق روى لهم ما رآه بعينيه . لم يضف ، ولم يحذف . ما رآه بالضبط تماماً . همس الحاج قنديل بأن لعبة الانتخابات انتهت ، ويعرف الرجل قيمة حمادة بك فى الحى . هو لم يتحدث إلا عمّا رآه . رفض عباس الخوالقة تصديق ما قيل . ربما قصده الولد فى عمل ، والناس جعلت من الحبة قبة ..

قتلته الحيرة ..

لم يتصور أن الرجل يضعه فى موقف المساءلة . توهم فى طرده من الحمام إنهاء لما حدث ، للمشكلة التى ورطته فيها نداءات اللهفة ..

كان فؤاد أبو شنب أول من همس له بما رواه الرجل . عانى الحرج فى انصاته الصامت . كيف ينزل إلى شوارع الحى ، ويجالس أصدقاء قعدة محمد صبرة ، والمعارف الجدد فى المهدى اللبان وفاروق ، ويواجه النظرات المتسائلة

، والشامتة ، والغاضبة ، ويتحدث عن الترشيح للانتخابات القادمة ؟!..

لم يعد يتردد على الزردونى أو المهدى اللبان أو فاروق ، ولا يجالس الأصدقاء فى قعدة محمد صبرة ، ولا يظهر فى تشييع الجنازات ، ولا سراقات العزاء ، ولا حضور حفلات عقد القران أو الزفاف ، ولا يؤدى صلاة الجمعة فى أبو العباس . لا أحد تخايل به فى شوارع بحرى ، وإن صافحه ابراهيم سيف النصر على رصيف ديليس ، واعتذر ــ بمشوار ــ عن دعوته إلى فنجان قهوة ..

* * *

فاجأه عبد الوهاب مرزوق فى جلسته بالتريانون ..

الأيام الجميلة !..

ربما يجد من يؤانسه ، يناقشه فى السياسة وتقلبات السوق وأحوال الجو ، لكن ما يفتقده هو النظرات المعجبة ، والمداهنة ، وطلب الوساطة ، والصداقة المبطنة بالرهبة والتقدير والاحترام ..

هو حمادة بك ، وهم معلمون وصبيان وموظفون صغار . يروقه أن يجد نفسه محاطاً بهؤلاء الرجال ،

ويسعدهم جلوسه بينهم ، الترقب والعطاء ، العرائض وبطاقات التوصية والعلاقات الشخصية . تشحب الصورة بعيداً عن بحرى ، تكاد تغيب تماماً . رجال أعمال ووزراء ووكلاء وزارات وخواجات ومصيفون من القاهرة والأرياف . تتشابه الظروف ، فلا يتميز بالمخالفة فى شىء ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ــ نشرت الصحف نبأ حل مجلس النواب ..

هز رأسه بما يعنى عدم الفهم ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ــ هذه فرصة لدخول الانتخابات ..

غالب انفعاله :

ــ تانى ؟!..

تغلف صوته بمداهنة :

ــ وهل دخلت الانتخابات من قبل ..

أطرق لحظات ، ثم رفع رأسه :

ــ كانت هناك فرصة .. لكننى ــ لظروف شخصية ــ لم أقدم أوراق الترشيح ..

قال فى صوته المداهن :

ـــ أمامك من الآن عشرة أيام لتعلن ترشيحك ..

لاحظ نظرة الرجل المتأملة إلى صدره ..

تنبه إلى أن زحام النازلين من ترام الرمل أطار زرار البلوفر ..

وضع راحته ــ بعفوية ــ موضعه ..

التذوق .. للمعرفة

ألف الصوت ، وإن لم يستطع تبين طبيعته . يتداخل فيه مد الموج وجزره ، وهسيس النخيل الواقف على امتداد الرصيف المقابل للكورنيش ، واصطفاق الريح للشبابيك المغلقة . هزه الألق بعناق الشمس ومياه البحر . ضوت المياه بما يشبه الزغاريد .لاحظ فأراً يخرج من بين قطع الحجارة الضخمة . تلفت حوله ، ثم اختفى ..

البحر مهنته ، نشأ عليها ، فلا يعرف غيرها . لم يعدّ نفسه ، ولا تصور أنه يسعى إلى مهنة أخرى غير البحر . وحين أقعدته الإصابة ، عرض عليه الحاج قنديل أن يرتب له ــ كل صباح ــ شروة سمك يسرح بها ..

قال فى لهجة معتذرة :

ــ ابتعدت عن البحر .. فهل أبتعد عن الشاطئ ؟..

أخذته رائحة البحر ..

حمل البوصة والسنارة والغلق الخوص . تعلم من الجد السخاوى ما غاب عنه . البورى تأكل على طرف لسانها .

فمها الصغير لايأكل إلا العجين . إذا لم يكن البواص شاطراً ، فشل فى صيدها . المياس يشتهى سمك السردين والموزة . القاروس واللوت تحب الأسماك الحية . حذره من الأسماك التى تلتقط الطعم ، ولا تأكله ، العشب والعجينة والبسارية والجمبرى ، فلا تجذبه السنارة . يختار للمياس والبطاطا نوعاً من السنار أكثر صلابة . إذا أحست بالألم ضغطت على فمها بحدة ، فتقضمه . ارفع البوصة ببطء . لو جذبت بشدة ، يتهشم فم السمكة ، وتعود إلى البحر . يمسك السمكة من خيشومها ، فيشل حركتها ، أو يضغط على عينيها بإبهامه وسبابته . يحذر الأسماك السامة والمكهربة . إذا بدت السمكة غير مألوفة ، تأملها ، يدسّها فى الغلق ، أو يعيدها إلى الغلق ، دون أن يلمسها ..

روى الجد السخاوى ما جرى لصاوى رزق : كان يصيد بالسنارة . أخرجت سمكتى مرجان صغيرتين . نزع واحدة . وضعها فى فمه حتى يخلص الثانية من السنارة . قفزت داخل حلقه ، ووقفت فيه . ظل يصارع ، حتى مات ..

همس لنفسه ــ ذات يوم ــ بالسؤال : هل تطلع له السمكة التى تحوى فى بطنها خاتم سليمان ؟

قال الجد السخاوى :

ــ للأسماك أصواتها ، مثلنا تماماً .. عندما تتعارك حول الطعام ، أو تدافع عن أماكنها ، أو عند الهرب ، أو فى موسم التكاثر ..

قال وهو يهز رأسه فى تأكيد :

ــ الأسماك تتجه إلى المناطق المزدحمة بالأصوات ..

اطمأن إلى ياقوت ــ منذ زاد على ما كان يتقاضاه فى الزردونى ــ فى الوقوف على النصبة ، وتقديم الطلبات . تنقل بين الشواطئ . يصطاد ، ويبيع ، ويدخر النقود . عندما تتوافر معه قيمة البلانس ، يشتريه . يسافر إلى البحار البعيدة..

وقفته على شاطئ البحر اقتراب منه ..

كان يتجه إلى البحر ، يرقب البلانسات وهى تميل من حاجز الأمواج إلى الآفاق التى تنتهى فى موانى ومدن ، حلقات فى سلسلة لا تنتهى . يكتم خاطراً بأن يرمى بنفسه فى الأمواج ، تمضى به إلى آفاق لا يعرفها . مجرد أن يسلم نفسه إلى الأمواج ، تحمله إلى أبعد ميناء فى الدنيا . لما أقعدته الإصابة ، وجد فى وظيفة عامل إنقاذ فرصة للاقتراب

من البحر ، للحياة على شاطئه ، والارتماء فى أمواجه إن تعالت صيحات استغاثة . فاجأه الكشف الطبى بما حاول مداراته . حتى التحليق على الشاطئ ، مثل النورس ، لم يعد بوسعه ..

ألف الميل ــ فى قدومه من شارع الميدان ــ إلى وكالة الليمون ، ثم إلى باب الجمرك رقم واحد . يتنقل بين المخازن والحاويات والأجولة والصناديق الهائلة . يرقب البواخر الراسية . يسرح فى التصورات التى لا نهاية لها ..

قال له قاسم الغرياني :

ــ وماذا بعد أن تشبع من البحر ؟..

شردت نظرته فى أفق المياه الممتد :

ــ أنا لا أشبع من البحر ..

قال الغرياني :

ــ ماذا بعد أن تكبر ؟..

تشاغل بمتابعة سرب من الطير يحلق فوق خليج الأنفوشى :

ــ سأكون قد شاهدت بلاد الله خلق الله ..

ــ ألم تفكر فى الولية والأولاد ..

ــ أوفر لهم ما يكفيهم .. وزيادة ..

عسكرى السواحل يتسلى بالمشاهدة . وتحت الحاجز الأسمنتى عم رجب يتأكد من مسكة طراحته ..

قال لمختار :

ــ هذه الطرحة على بختك ..

وقذف الطراحة فى المياه ..

السنارة بطعم الجمبرى . دار بها فى الهواء ، فوق رأسه ، ثم هوى بها إلى الماء . أحدثت وقع الحصاة الصغيرة . تزايدت حلقات الماء ، اتسعت ، ثم ضاقت ، حتى تلاشت ..

قال كمن يحدث نفسه :

ــ السمكة الملعونة خطفت الطعم وهربت إلى داخل شق ، فانقطع الخيط ..

قال عم رجب :

ــ أعطيتها فرصة الهرب إلى الشق .. أرخيت لها الحبل طويلاً أثناء جذبك لها ..

ثم وهو يعبر بيديه :

ـ بمجرد أن تصل الهزة إلى يدك ، اسحب السنارة حالاً ..

قال وهو يتأمل مشنة عم رجب :

ـ حظك أحسن من حظى ..

قال عسكرى السواحل :

ـ حظه أحسن لأنه معذور ..

قال عم رجب :

ـ السمكة دودة ماشية .. اللى له نصيب فى شىء بيشوفه ..

لمح سمكة تطير فوق الماء بضعة أمتار ، وتغوص ثانية ..

ـ هل عادت القناديل ؟..

قال عم رجب :

ـ هذه سمكة طيارة .. زعانفها كالأجنحة ، تطير بها مسافة على سطح البحر ، قبل أن تعود إلى الماء ..

غمزت السنارة ..

خمن أنها سمكة كبيرة لما اجتذبت البوصة إلى أسفل ..

جذبها بسرعة ، وبآخر ماعنده . لعلطت سمكة لم يتبين نوعها . اهتزت لها البوصة ، فأمسكها باليد الثانية ..

قال له الجد السخاوى :

ــ صيد البورى بالسنارة أسهل .. إنه كثير الحركة ، لكنه لا ينزل القاع إلاّ نادراً ..

هل هى سمكة بورى ؟..

قال لنظرة عسكرى السواحل المتسائلة :

ــ جمبرى كبيرة !..

قال العسكرى ، وهو يستند براحتيه على البندقية فوق الكورنيش الحجرى :

ــ هذه السمكة وافدة ..

ارتجفت رموشه :

ــ كيف ؟..

تأملها عم رجب :

ــ إنها فى الأغلب استاكوزا من البحر الأحمر

ثم عاود قذف طراحته :

ــ كسفتنا يا مختار .. الباشجاويش يعرف نوع السمكة ، ولا تعرفها أنت ..

وسرت فى صوته نغمة حزينة :

ــ هل يمكن للإنسان أن ينسى سحن أبنائه وأسمائهم ..

شمله إحساس بالخجل ، بالارتباك ..

اتجه بخطوات أثقلها الحزن إلى شارع التتويج . تعمد أن يغير اتجاهه . كان يسير بمحاذاة الكورنيش ، حتى مكتب صحة الجمرك . ومنه إلى قلب السيالة ..

اخترق الطريق إلى ميدان أبو العباس ..

أطال الوقوف أمام كشك سيد الفران . سأله عن أدوات الصيد ، وتأملها . سأل عن الأدوات الجديدة . حتى ما اعتاده فى البواخر الكبيرة ، أخذ فيه وأعطى ..

قال سيد :

ــ من يسأل الآخر .. أنا أم أنت ؟

قال مختار :

ــ أخشى أن تكون ذاكرتى تأثرت بالغياب عن البحر..

ــ أنت لم تعد تركب البحر .. لكن حياتك مع الصيادين..

ثم وهو ينخسه بأصبعه فى مودة :

ــ وقهوتك اسمها البحر !..

أغمض عينيه ، وسرح بتصوراته للمياه التى بلا ساحل ، والمراكب الضخمة ، والنوات ، والأمواج العالية . يحيا حلم اكتشاف الدنيا ، وتوقع المجهول . رؤية ما لم يسبق له رؤيته . تبدو المدن والجزر والفنارات والبواغيز ، نقاط ضوء بعيد ، منثورة فى ظلمة آفاق البحر المترامية ..

بحر بلا ساحل

قال أبو الحسن الشاذلى :

" إذا ظهرت الظلمة تحت النور الممتد من القلب ، فلا يخلو أن يلوح عليها لائح القبض بانقباضص القلب . فاحذر ذلك وتجنّبه ، فإنه المحظور أو يكاد "

" إذا افتقرت فسلّم ، وإذا طلبت فاصبر ، واسكن تحت جريان الأقدار ، فإنها سحابة سائرة "

قال ابن عطاء الله السكندرى :

" لا يشككنك فى الوعد عد وقوع الموعود ، وإن تعين زمنه ، لئلا يكون ذلك قد جافى بصيرتك ، وإخماداً لنور سريرتك "

تمدد ــ فى استرخاء ــ على ظهر القارب . يضرب أصابعه فى الماء ، تتطاير طرطشات ورذاذ . ترك الأمواج الصغيرة ، المتلاحقة تهزه ، وتحركه . خليج الأنفوشى ساكن

، تطير فوقه سحابات بيضاء من طيور البحر ، والمد يدفع أمامه بقعة زيت ، تتسع فى تكوينات متداخلة . وثمة خربشة فأر فى موضع قريب ، لم يتبينه ..

لم يعبأ بتحذيرات محيى قبطان من أن القارب يدور حول نفسه ، وربما ينقلب ..

قال فى هدوء متكاسل :

ــ البحر حصيرة .. ولا خوف منه ..

قال محيى قبطان :

ــ القارب صغير يا حسان ..

قال حسان عبد الدايم :

ــ لكنه هو الذى فاز فى السباق ..

تنطلق القوارب ناحية الجزيرة فى أفق الأنفوشى . تعود من الناحية المقابلة . الفائز هو الذى يصل أولاً . يمسك الدفة ، فيضمن سرعة القوارب وتحركه . يجيد سرقة الريح ، فيفوز . يركب الريح ، يطلع فوق ريح بقية المتسابقين ، يأخذ ريحهم . يغطّى قماشه على قماشهم . يحرص فلا يلتف الشراع حول الصارى ، ولا يستخدم المقاديف ..

تجاهل ملاحظة خميس شعبان :

ــ حسان عبد الدايم من رأس التين .. قواربية شطار
!..

حمل الرجال القارب فوق رءوسهم ، تعلوه الأعلام والخرق الملونة . يرافقهم أولاد يرقصون ، ويتقافزون ..

مضى الموكب من شارع السيالة إلى ميدان الأئمة ..

فى منتصف الميدان طلب محيى قبطان من الرجال أن يضعوا القارب على الأرض ..

فاجأ الجميع ، وأذهلهم ، حين ألقى ــ بالفرحة ــ عود كبريت مشتعل على القارب ليحرقه ..

صرخ حسان عبد الدايم :

ــ القارب أكل عيشى ..

قال محيى قبطان :

ــ أكل عيشك فى البلانس ..

ضغط على عود الكبريت بيده ، فأطفأه :

ــ والقارب أيضاً ..

قال محيى :

ــ كيف تعلن عن فوزك ؟..

قال حسان :

ــ ليس بخراب البيوت !

تنبه لصوت جابر برغوت :

ــ فزت يا حسان ..

اتسعت ابتسامته بالفرحة :

ــ رأيت السباق يا شيخ جابر ؟ ..

قال جابر برغوت :

ــ لو أنك تفوز فى السباق الأكبر ..

أردف للدهشة المتسائلة فى ملامح حسان عبد الدايم :

ــ ما حدث انفض وانتهى .. يبقى الذى بلا انتهاء !

أزمع أن يظل سائراً فى طريق التمنى ، حتى يفتح الله عليه . تلح عليه الخواطر والمعانى التى يعجز عن فهمها ، فيدرك أن نفسه الضعيفة لا تقوى على المجاوزة . الولى لا تتحقق له الولاية إلاّ إذا كان موفقاً لجميع ما يلزمه من الطاعات ، معصوماً عن الخطأ والخطيئة . لم تتح له حياته السابقة أن يلزم الطاعات بما كان يرجوه ، ويظن أنه ليس معصوماً بعد من الخطأ والخطيئة . ما يملك فعله هو الإنصات ، والتهيؤ لتلقى الإشارة . يتعرف إلى ما حدثه عنه ولى الله ياقوت العرش . يلتقى بسيدى الأنفوشى ، يزيح

غلالات الأسرار ، فتضئ شمس الإقبال ، وتشرق أنوار المعارف ، ويستولى سلطان الحقيقة . متى ؟ أين ؟ كيف ؟.. علمه عند الذات الإلهية ..

ظل على ميله إلى العزلة ، والانفراد عن الخلق ، والابتعاد عن صخب الحياة ، والخلوص لله ، والتجرد من كل العلائق ، ومن حب الدنيا . أخذ النفس بالمجاهدة والمكابدة والزهد والتقشف والتقوى والتنظف ، والحفاظ على التهجد والنوافل ، والإكثار من قراءة الأحزاب والأوراد ، وتلاوة الأذكار والأدعية . لاذ بالمشيئة والإرادة . ربما أتت اللحظة بالإلهام الربانى دون سابق إشارة ، ولا واسطة من أحد . الله الأزلى ، الأبدى . ما عداه حادث . وجد بعد أن لم يكن ، وهو صائر إلى فناء ، وإن ظلت الأرواح باقية ، لتعود إلى الجسد يوم لا ينفع مال ولا بنون . ما سبق به القضاء لا محالة يحدث ، وإن بدا بعيداً ..

كان يدرك صعوبة المرتقى ..

السائر إلى الله لابد أن يمر فى طريقه بمنازل ومقامات ، يرقى بعضها فوق بعض ، إلى مقام التعرف ، مرتبة الوصول ، لا يبلغها إلا قطب الغوث . ذلك أبعد ما يكون عن

باله ، وتتقاعس أمامها همته . أسرار الله مكتومة ، لا تودع إلاّ فى سر محصن . اختص الله أولياءه بوديعة أسراره ، وكشف لهم عن حقائق الأسماء . للولى بصيرة تتكشف أمامها كل الحقائق ، يدرك بها كل الموجودات ، ويعرف ما كان منذ بداية الخلق ، وما سوف يكون إلى يوم الذهول عن النفس ..

الهاتف فى أعماقه يدعوه إلى الانطلاق فى عالم لا يعرف ملامحه . تمنى لو أنه تفهم اللغة الخفية . لو أنه أحسن الإنصات إليها ، والتحدث بها . قال سيدى ياقوت العرش ما قال ، واختفى . تناثرت ــ فيما بعد ــ كلمات هى مفاتيح الأبواب المفضية إلى أنوار الأنس والهيبة والجلال ، حملها على قدمين عاريتين فى أرض الشوك ..

أن يخصه الله بما خص به الأقطاب ، هدف يعجز عن بلوغه . ذاقوا حلاوة الخدمة ، ولذة الطاعة ، والأنس ، والقربة ، فبلغوا من الرتب ما لم يبلغه ، ولا يأمله أحد ، وارتقت أرواحهم إلى العالم العلوى ، فتحدثوا بالمغيبات ..

حين ناداه عبد الوهاب مرزوق : ياولى الله ، قال :

ــ أعوذ بالله أن أدّعى الولاية .. أنا خادم الأولياء !

ترك نفسه لإرادة الله ، هى الضوء الذى يدركه أينما حل ..

عبر الطريق إلى شارع الحجارى . مال فى شارع الكنانى . صعد السلالم الرخامية المتآكلة إلى ساحة مدرسة البوصيرى ، تحوطه الأنفاس الهادئة ذات الجلال ، وهمسات الوجد ، وأحاسيس التشوة ، وأصداء الأوراد والأذكار والمدائح النبوية وأهازيج السحر ..

ــ ثم ماذا يا جابر ؟..

أومأ برأسه مستفهما :

قال عم شحاتة :

ــ أنت هكذا تقتل نفسك ..

ــ هل أعصى أوامر الأولياء ؟..

ثم وهو يهز رأسه :

ــ أنا عبد مأمور ..

قال عم شحاتة:

ــ بدأت الطريق ولا تعرف نهايتها ..

سرحت عيناه فى الفراغ :

ــ الإشارة قريبة بإذن الله ..

ـــ فإذا لم تظهر الإشارة ؟..

فاضت عيناه بالحزن :

ـــ هل تشكك فى مكاشفات أولياء الله ؟..

أظهر التصعب :

ـــ أنا أشفق عليك ..

قال فى لهجة حاسمة :

ـــ لم أعد منذ ظهر لى سيدى ياقوت العرش أملك أمر نفسى ..

فات أوان التراجع ..

بدأ رحلته الجميلة ، القاسية ، ولابد أن يكملها . لابد أن يمضى إلى النهاية ، يهمل النظرات المشفقة ، أوالشامتة ، أو المستغربة ، لا يشغله حتى العبارات المؤنبة ، أو السب . ما يعنيه هو الإشارة . قسمات السر التى طال انتظاره لها . كشف الغطاء ، وإحياء القلب ، وتحقيق المحبة ، وتلقى النفحات الروحية ، والإشراقات الإلهية ..

ارتدى لباس التقوى ، وزهد فى ملذات الحياة ، وخرج حب الخلق من قلبه ، وأقبل على الطاعة بهمة عالية ، وعزيمة صادقة ، ونية سليمة خالصة . تفرد بالله ، وانقطع

عن كل شئ سواه . تحددت أمنياته فى أن ينوّر الله قلبه بنور معرفته . أكثر من صلاة الاستخارة . لم يسأل عناية ، ولا عطفاً ، ولا وقف على باب التذلل . حاول أن يتحلى بالصبر والحلم والرحمة والمحبة والتوكل والتفويض والتسليم والشوق والرضا والأحوال الصافية ، وسائر الصفات المحمودة التى تخلق بها الأقطاب . يصبح قلبه كالبحر ، لا يعكره ما يلقى فيه من أوساخ . لا يضيق صدره بسماع ما يناله به الناس من شتم ، فهو فى محل الشهادة ، لا تعنيه مؤاخذات ولا شتائم . التمس العذر لإنكار أمين عزب عليه ، ودعا له . تنبت الأرض الثمار الطيبة ، وتنبت الأشواك والحشائش الفاسدة . كثرة الدعاوى فى الطريق تفضى إلى تشابكه واختلاطه . يصعب على المرء أن يمضى فى الوجهة الصحيحة ..

قيل إنه حفر قبره بالعامود ، بالمجاورة لولى الله على الراكشى . وكان ينزل فى القبر ، ويصلى ..

هل يفى عمره بما تعلقت به همته ؟..

العصفور يفلت من القفص

اخترقت الظلمة الشفيفة ، والسكون ..

دكاكين شارع السيالة مغلقة ، والرجل مقطوعة . لم تعد تستأذن ، وإن تحرص فلا يلحظ أبوها غيابها ..

مالت إلى شارع فهمى الناضورى ، ومنه إلى طريق الكورنيش . طالعها الأنفوشى بدفقات من الهواء البارد ، المشبع برائحة الملح واليود والأعشاب . وصوت مد الموج على الشاطئ . على الرمال المبتلة علب فارغة وأوراق ممزقة وقطع خشبية وبقايا أطعمة ، وفى مدى الأفق بلانسات وفلايك وجنادل وقلوع وأشرعة . وثمة — فى القزق — هياكل بلانسات ، وفلايك تآكلت أخشابها ..

شجعها نزول البنات فى الماء . خلعت الملاءة والفستان . لم يعد إلاّ قميص النوم الساتان الوردى . شاطت الشبشب ، واتجهت إلى البحر ..

التف الماء حول جسمها ببرودة لذيذة ، منعشة . تسللت إلى داخلها . أحست بروحها تنتعش ، تكاد تطير . لم تأبه

حتى بالتصاق قميص النوم بالتقاطيع والتكورات والانحناءات ..

لم تكن تعرف العوم . حركت يديها وقدميها دون أن تدخل الغميق ..

عانت بعد ما جرى ..

شدد أبوها ، فلا تغادر البيت إلاّ لضرورة ، أو لزيارة أعمامها فى السكة الجديدة ، يصحبها مصطفى ، أو أمها . اختلست أوقات التردد على مساكن السواحل بعد الخروج من المدرسة ..

فاجأها عباس الخوالقة بالقول :

ـــ أين كنت ؟..

غالبت ارتباكها :

ـــ أذاكر ..

ـــ أين ؟..

ـــ مع صاحبتى ..

وشى صوته بغضب :

ـــ أين ؟..

احتواها الارتباك ، فصمتت ..

أسعفتها أم محمود :

ــ دع البنت لمذاكرتها ..

قال فى لهجة باترة :

ــ وضع الأرمل أهون فى حينا من وضع المطلقة ..

لم يعد يأذن لها بالخروج وحدها . يصحبها محمود أو أمها ، ولاتزور إلا الأقارب ..

تسلت بالقراءة : روايات ومجلات ، يشتريها محمود ، أو يستعيرها ، من مكتبة حمامة النن بشارع إسماعيل صبرى . حفظت مواعيد برامج الإذاعة . أغلقت الحجرة من الداخل ، وأطالت الوقوف أمام المرآة . تخلع الفستان ، وقميص النوم . تتأمل جسمها . تتحسس ــ بأطراف أصابعها ــ وجهها ، وعنقها ، وصدرها ، وبطنها ، وردفيها ، وساقيها . تستدير ، تتأمل الظهر العارى بجانب عينها ..

موت مصطفى قلص قبضة الأب ، وعزل الأم فى جزيرة حزن ، لا تغادرها . وانشغل محمود فيما لا تسأله عنه ..

كان قد مضى سنتان على قعودها فى البيت ، لما سمعت أباها يحدث أمها عن مولد أبو العباس . همست بطلب

الخروج . زكت أمها ما طلبت بالأيام المباركة . الجميع يذهبون إلى بركة السلطان ومدده ..

قال عباس الخوالقة :

ـــ ألا تخرج إلاّ للمولد ؟!..

حين طلبت أن تعود إلى المدرسة ، توقعت أمها رفض الأب . هز رأسه بالموافقة ، فاتسعت عينا الأم اللوزيتين بالدهشة ..

اتسعت انفراجة الباب ، حتى انفتح تماماً . تجلس ـــ بالساعات ـــ فى شقق الجيران . تشترى لوازم البيت من شارع السيالة ، أو من ميدان أبو العباس . ربما سارت إلى الموازينى وشارع الميدان ..

زال الخوف من نفسها . لا تدقق فيما ترتديه ، ولا تستأذن فى الخروج ، ولا تخشى مفاجأة أبيها بوقوفها فى النافذة ، ولا بنزولها على السلم من شقة الجيران . تتبين اسمها يتردد فى الصالة ، فلا تصيخ السمع . فى داخلها قوة تدفعها إلى الانطلاق . لا يوقفها أحد ولا شئ . تذهب إلى أى مكان ، وتفعل كل ما يفد إلى خاطرها . لا تتلفت وراءها . لا تشغلها النظرات التى تراقب ، وتحاسب . حتى أبوها لم

يعد يشغلها ملاحظاته . أفلت العصفور من القفص . طار فى المدى الواسع . تزور صديقاتها ، وتمشى فى الشوارع ، وتتنزه على الكورنيش ، وتجرى ، وتتكلم ، وتضحك ، وتقفز ، وتغنى ، وترقص ، وتصرخ ..

كانت تغلق عليها باب الحمام ، تقف عارية أمام المرآة ، تتحسس جسدها بأصابعها ، تتأمله بجانب عينها ، وتتخيل . تمر بالمرود على عينيها ، وتضغط بأسنانها على شفتيها ، وتقرص خديها . تتخيل نفسها فى مواضع الممثلات اللائى تشاهدهن فى أفلام سينما الأنفوشى ورأس التين . ممثلات مصريات وأجنبيات ، يتكلمن فى الحب ، ويعانقن الرجال ، وتعلو أصواتهن بالغناء ..

تفتح الباب . تمضى إلى الخارج ، وهى تعلن أنها قد تأخرت ..

ألفت الملاحقة فى شوارع بحرى . النظرات والتعليقات الهامسة والغمغمات . الجالسون فى القهاوى ، وعلى أبواب الدكاكين . عبارات غزل ، ترضيها ، وإن واصلت سيرها ، لا ترد ، ولا تتلفت ..

غالبت التردد فى مواجهة الوقفة الثابتة ، عند خروجها من المدرسة ، والنظرات الداعية . ثم انحرفت عن طريق البيت إلى الكورنيش ..

ــ جلال هاشم ..

لم يعد من تحبه هشام ، ولا فى صورته ، ولا فى صورة أبيها أو محمود ، أو حتى المرحوم مصطفى . شعره الأسود يتناقض مع عينيه الخضراوين ، الصافيتين . يتخلل شعره بالصابون والفازلين ، ويفرقه ، شاربه رفيع فوق شفتيه ، وفى خده الأيمن خال أسود . يختلف عن كل من فى حياتها ، يحبها . يدافع عن حبه لها ، لا يضايقها بأوامره وتحذيراته ، ولا يشتمها ، أو يضربها . تغمض عينيها ، تستدعيه إلى ذاكرتها ، تتصوره فى كلمات وتصرفات ..

بدت كالمذهولة ، كالمسحورة ، كالمنساقة وراء نداء خفى . لاحظت أم محمود ، وإن غابت الملامح . حرضت محمود على متابعتها عند خروجها من البيت ، أو من المدرسة ، وعودتها ..

أهمل الأمر بعد أيام ، فلم تعد نظراته تتبعها ..

خاضت فى المياه حتى بلغت أعلى صدرها ، وإن تبدت ــ فى الماء الساكن ــ استدارة الفخذين ، والساقان الطويلتان المخروطتان . تسرب الماء إلى ثدييها ، وتحت بطنها ، فأحست ببرودة منعشة ، داعبتها ، تسللت فى المسام . تمنت لو أنها ظلت فى البحر ، لا تتركه . الماء الهادئ وسادة ، تحملها فوق الهموم والتحذيرات ..

أفاقت على الصوت الذى لا تخطئه :

ــ مهجة !..

كان فى طريقه إلى الحلقة ، حين لمحها ..

لم يعد ــ منذ وفاة مصطفى ــ يأخذ باله إن كانت فى البيت ، أو أنها خارجه . غابت النصائح والملاحظات والتحذيرات المشفقة ..

غطت يداها ــ بتلقائية ــ كتفيها ..

أعاد تأملها فى ومضة : هل هذه ابنته ؟ هل هذه مهجة ؟..

سحبها من البحر ــ ظلت فى موضعها لا تعى ماذا تفعل ــ بقميص النوم الملتصق بلحمها ..

ألقى عليها تلفيعة يتقى بها برودة الصباح ، ودفعها أمامه حافية القدمين ..

أغلق الباب وراءه . تساند عليه ، وأنفاسه تلهث . لم يعد فى الحجرة سواهما ، تبدلت سحنته . فى عينيه نظرة لم ترها من قبل . بدا إنساناً مختلفاً عن أبيها الذى يسألها ، ويجيب على أسئلتها ، ويناقشها ، ويداعبها ، وينصحها ، ويسبق نزوله من الشقة قوله : تريدين شيئاً يا مهجة ؟..

رأته فؤاد أبو شنب ..

تلاحقت صرخاتها ، خائفة ، محشرجة ، متقطعة ..

اندفع بالغضب نحوها ..

لم يعبأ بتوسلات أم محمود وراء الباب المغلق ، ولا صيحات الجيران من النوافذ التى فتحها الفضول ، ولا الدم المنبثق من أنف مهجة ، تناثر على جسمها ، ولا البياض الذى أخذ عينيها ..

لم يرفع غضبه إلاّ عندما سكنت حركتها تماماً ، فيما عدا أنفاس خافتة ، بطيئة . غاب فؤاد أبو شنب ، وغابت عن كل ما حولها ..

خمن الطبيب فى مستشفى رأس التين ما حدث . أصر على تحرير محضر . تدخل الرجال ، فعاد الخوالقة بابنته ، وبقسم ـــ ألزم به نفسه ـــ ألا يحاول أذية مهجة ..

السباحة فى بحار الشوق

قال أبو الحسن الشاذلى :

أربعة ، من حازهن فهو من الصديقين المقربين ، ومن حاز منهن ثلاثة ، فهو من أولياء الله المقربين ، ومن حاز منهن اثنين فهو من الشهداء المؤمنين ، ومن حاز منهن واحدة ، فهو من عباد الله الصالحين . أولها الذكر ، وبساطه العمل الصالح ، وثمرته النور . الثانى الفكرة ، وبساطه بغض الدنيا وأهلها ، وثمرته الوصول إلى المحبوب . الثالث الفقر ، وبساطه الشكر ، وثمرته المزيد منه . الرابع الحب ، وبساطه بغض الدنيا وأهلها ، وثمرته الوصول إلى المحبوب "

من دعاء الشاذلى :

" اللهم صلنى باسمك العظيم ، الذى لا يضر مع اسمه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، وهب لى معه سراً لاتضر

معه الذنوب شيئاً ، واجعل لى منه وجهاً تقضى به الحوائج للقلب والروح والسر والنفس والبدن ، وادرج أسمائى تحت أسمائك ، وصفاتى تحت صفاتك ، وأفعالى تحت أفعالك . درج السلامة ، وإسقاط الملامة ، وتنزل الكرامة ، وظهور الأمانة ، وكن لى فيما ابتليت به أئمة الهدى من كلماتك ، واغننى حتى تغنى بى ، وأحبنى حتى تحب بى ما شئت من عبادك ، واجعلنى خزانة الأربعين ، ومن خلاصة المتقين ، واغفر لى ، فإنه لا ينال عهدك الظالمون " ..

طال قعوده بالقرب من المقام ذى الكسوة البيضاء ، فى مدرسة البوصيرى ..

ليس ثمة ما يشى بحياة . لا حركة ولا صوت . اعتاد الناس جلسته الساكنة ، وخروجه من مدرسة البوصيرى ، وعودته إليها . أهملوا المتابعة والتأمل ..

حين بدأ يلقى السؤال على نفسه : هل هذا الثاوى تحت المقام هو سيدى الأنفوشى ، أتاه ــ فى غفوة ــ صوت لم يتأكد إن كان لسيدى ياقوت العرش ، أو هو صوت علوى :

ـــ الناس أخطأوا ضريح ولى الله الأنفوشى . ضريح قلعة قايتباى لعسكرى من الدولة القديمة ، مجهول الشان .

وقال الصوت فى نبرة رائقة :

ـــ ربما تجد البشارة فى على تمراز ..

على تمراز ؟!..

همس بالحيرة :

ـــ هذا مقام سيدى على تمراز ..

قال الصوت الذى لم يتبين صاحبه :

ـــ على تمراز مجذوب بدا منه ما يشبه الكرامات فى وقت حسن باشا الإسكندرانى ، فأمر بإنشاء هذا الجامع باسمه ..

واستطرد فى تأكيد :

ـــ ولكن الثاوى فى الضريح هو من تبحث عنه ..

وعلا الصوت :

ـــ إذهب إلى الموضع الصحيح ..

استأذن الأقطاب أصحاب الدرك ..

لم يبد الشيخ عبد الحفيظ اهتماماً بجلوسه وسط مريديه ، وأجاب على سؤاله بلهجة محايدة :

ـــ على تمراز لم يكن ولياً .. إنه مجذوب أخلص فى محبة الله ..

ثم وهو يعود إلى مريديه :

ـــ هذا كل ما نعرفه عنه ..

قال جابر برغوت :

ـــ ما أعرفه أن الضريح لسيدى الأنفوشى ؟!..

رمقه الشيخ بنظرة دهشة :

ـــ من سيدى الأنفوشى ؟..

أظهر الغضب :

ـــ ولى له كراماته ومكاشفاته ..

قال الشيخ فى دهشته :

ـــ والمولد ثمانية أيام فى السنة .. هل هو للهواء ؟!

ضغط على الكلمات :

ـــ هو لسيدى الأنفوشى .. وقد أخطأ الناس !..

من يدرى ؟..

ربما الشيخ عبد الحفيظ يعنيه كتم الحقيقة لغرض فى نفسه . أكثر من التردد على الجامع . يلزم جوار المقام ، مثلما كان يفعل فى مدرسة البوصيرى . يجول فى شوارع

الحى ، ثم يعود إلى جلسته ، لا يتركها ، ولا يترك الجامع ، إلاّ إذا قال عم سلطان :

ــ هل ستظل معنا يا برغوت .. أم نغلق الأبواب بعد انصرافك ؟..

كان عم سلطان يزوره فى ياقوت العرش عندما يتردد على ميدان الأئمة . يزور أبو العباس وياقوت العرش والواسطى ونصر الدين والبوصيرى وغيرهم من أولياء الله الصالحين . وكانا يتحدثان فى ظروف الحياة والعلاوات وإعانة الغلاء ، وحصول الإمام على معظم ما يحويه صندوق النذور . لم تعد الأيام كما كانت ..

داخل الشيخ قرشى إشفاق وتعاطف . تيقن ــ لما يعرفه من شخصية جابر برغوت ــ أن الرجل تحققت له الولاية ، واعتقد فى ولايته . لم يعلن ذلك ولا أظهره ، ولا حاول الكلام عنه . حتى إذا ناله إنسان بأذى ، قتله الشعور بأنه أراد هلاك أحد أولياء الله ، وقد كتب الله الستر على أوليائه . وحين علا صوت عم سلطان . أشار إليه بيده حتى يخفض من صوته ، فيتيح للشيخ برغوت سماع كلام الأولياء..

تمنى ألاّ يغلبه النوم ، ولا ينام . ما يشغله يجعله فى حالة الصحو ، لا تفارقه ، ويحرص ألاّ تفارقه . يخشى زوال ما كان يلوح فى قلبه من لوامع الإرادة ..

فنى عن هوى النفس وما تدعو إليه ، وتخلص من وسوسات الشيطان ، ومن الخواطر الردية . دفن نفسه ، أمات شهواتها فلم يبق له منها حظ ظاهر . قيد نفسه بالأمر والنهى . لم يعد يكتب التعاويذ والتمائم والرقى والأحجبة ، ولا يطرد الجان ، أو يفك السحر . يملأه إحساس بأنه بين الناس فى بحرى ، كالنبى فى أمته ، يهملون تنبيهاته وتحذيراته . تنشأ فى داخله أحوال كما الصوفية : الإشراق ، الجذبة ، الوجد ، الفناء ، استرواح نسيم القرب فى أوطان الخلوة ، مشاهدة الجمال الإلهى بعين القلب . انصرف إلى أحواله . تهب على القلب رياح العناية : يصعد فى معارج درية مضيئة فى رحاب أولياء الله . يخرج من سجن الأكوان ، يرقى إلى فضاء المراقبة والشهود والمعاينة . ينكشف حجاب الحس وظلمة الكون . يرى ما يتصور ، ما يثق ، أنه الشيطان . يصرخ ، يستغيث بما لا يراه ، لينقذه مما يراه ..

صعد إلى مئذنة على تمراز . أذّن للظهر دون ميكروفون . قال :

ــ قررت ألاّ أؤذن فى حديدة ..

عدل الشيخ عبد الحفيظ عن منعه من دخول الجامع ، بعد أن رأى أشباحا تتراقص ــ عقب صلاة العشاء ــ فوق سلم البيت . تصل إلى البسطة التالية للمدخل ، وتعود . تواصل الرقص حتى تغيب فى الانحناءة . ثم تظهر برقصاتها الطيفية ، العجيبة ، كأنها تداخل دخان ، وإن ظهرت الأجسام ــ فى انفصالها ــ واضحة ..

أهمل ما رأى ، وإن طاف عم سلطان بمبخرة فى أركان الجامع ، وتلا آية الكرسى وأدعية ، ووزع ورقة ، عليها آيات من القرآن . قرأها المصلون ، والسكان داخل البيوت . أعادوا قراءتها على الماء ، ورشّه فى أركان الشقق ، وعلى السلالم ، وفوق الأسطح ..

انهالت الحجارة على الشيخ عبد الحفيظ من الخرابة المواجهة للبيت . تقذفها أيدى ، نهاياتها فى الفراغ . اعتلى من لم تتفق الروايات على ملامحه ، سطح بيت إبراهيم سيف

النصر المواجه للجامع . قذف الحجارة على رءوس المارة وعربات الكارو فى ميدان الخمس فوانيس ..

قيل إن جابر برغوت أخذ العهد على رؤساء الجن من الصالحين ، لا يؤذيهم ولا يؤذوه . يجعلون أنفسهم فى تنفيذ إرادته ، ومناوأة خصومه ، حتى وإن كانوا من ذوى الجلال والهيبة . وقيل إنه أفلح فى أن يستخدم جماعة من الجن ، يأتون إليه بالأخبار والمغيبات ، ويكشفون ما تخفّى فى القادم المجهول . أذعن له أولياء الجن ، يأتمرون بأوامره ، ويخضعون إرادتهم لإرادته . من يقدر على تسخير الجن ولى صالح ، داوم على الطاعات والأذكار ، حتى أتيحت له خوارق العادات . وروى عبد العال السكرى بائع الدندرمة ، أن الشيخ جابر ــ حين ضايقته مؤاخذات الشيخ عبد الحفيظ ــ طمس على قلب الرجل . سلبه كل ما فى رأسه . حتى الفاتحة نسيها ، وضاع كل ما كان فى نفسه من علم . تنكرت عليه أحواله ، فلسانه يتعثر فى إلقاء خطبة الجمعة ، والعجز يغلبه فى الفتاوى ، والنوم يغمض عينيه وقت درس المغرب . لم يعد إلى الصلاة ، ولا إلى إمامة المصلين ، إلاّ بعد أن

فتح أبواب على تمراز للشيخ برغوت ، لا يعترض على دخول الجامع فى ليل أو نهار ..

خلت عظات الشيخ عبد الحفيظ ــ فى الأيام التالية ــ من رفض التصوف ، والإنكار على أهل الطرق والموالد والأذكار والكرامات . لم يرفضهم ، ولم يؤيدهم كذلك ..

طالت جلسة جابر برغوت لصق مقام سيدى على تمراز . تدور عيناه فى أركان الجامع : الأعمدة التى تحيط بالصحن ، وتتوسطه . القبلة المجوفة فى الحائط مزدانة بآيات قرآنية بخط الثلث ، يجاورها المنبر الخشبى ذو التداخلات المعشقة . المقرنصات والعقود المحملة بالجفوت والصنج والخناصر . الزخارف الجصية الرقيقة ، تعلو الجدران بامتداد الإفريز العلوى لصحن الجامع . النجفة المدلاة من السقف ، واللمبات المتناثرة فى الجوانب ، والنوافذ الزجاجية الملونة ــ فى أعلى ــ تصنع تداخلاً بين الضوء والظلال . إلى اليمين : المقام ذو الكسوة الخضراء ، المحاط بالنحاس اللامع ، بالقرب من الباب المفضى إلى شارع التمرازية ، وحجرة الشيخ عبد الحفيظ التى تسبح ــ دوماً ــ فى ضوء خافت . يتوجه نحو القبلة ، متربعاً .

يغمض عينيه ، ويضم شفتيه ، ويضع راحتيه على ركبتيه ، ويطرق رأسه . لا تشغله الوحدة ، ولا العزلة عن الناس ، ولا أصوات التلاوات والتكبيرات ، وأدعية الساعين حول المقام . قطع أوقاته بالفكر والتأمل والمراقبة . وكان يلجأ إلى المكتبة الخشبية الصغيرة ، بالقرب من المقام ، يقرأ فى التاريخ وسير الصالحين ..

لاحظ عم سلطان أن الموضع الذى يرقد فيه جابر برغوت ، لصق المقام ، يظل مضاء إلى الصباح . وكان عم سلطان يطمئن إلى إطفاء كل اللمبات . فإذا صحا برغوت من رقدته ، يخرج منه نور يخترق رمادية الصباح الباكر ، وتتضوع فى صحن الجامع رائحة بخور ، وتتعالى ألحان وأصوات سماوية ..

تخلى عن القيود ، وقطع رجاءه بدنيا الغاوين ..

الناس فى عمى . سدّت أبصارهم ، فتاهوا فى أودية الحيرة ، وعثرت بهم الضلالة فى وهدات لا حصر لها . استولت عليهم دواعى العصيان ، فهم لا يسمعون موعظة ، ولا تزجرهم معصية . يرفضون كشف الغطاء ، بتعرية ظلام وجودهم . أعطاهم الله الدنيا ، ليستعينوا بها على

خدمته ، فحادوا عن موجب الأمر ، ومالوا إلى جانب هواهم . أعرضوا عن الشكر ، وتباعدوا عن بساط الوفاق ، وظهر أهل المنكر على أهل المعروف ، وتكرر عدوان المارقين ، وانتشر شرهم ، وآذوا المستأمنين ، وغدروا بهم بغير حق ، وانطوى بساط الخير ، فعيل صبر المتقين ..

متى ينزل المطر من محاضر الرحمة ، يحيى أرض القلوب الميتة ، فتنبت كلأها ، وعشبها الوفير ؟ متى تفيض أنوار القبول ، وتتعطر الأسرار بنسيم القرب ، أو تنقلب الآية ، فيدور الهلال ، وتزلزل الأرض ، ويقرقع الرعد ، وترفرف الطيور بصراخ ، وتظهر فى الشمس ظلمة كما الكسوف ؟

صــراع

رأى مهجة تهبط من ترام ٤ القادم إلى بحرى ..

غالب ارتباكه . لم يحاول اجتذابها بأى كلمة أو تصرف . لا يدرى إن كانت لمحته أم لا ، لكنها عبرت ميدان أبو العباس إلى شارع السيالة ..

ظل ــ لحظات ــ مقيداً فى مكانه . نسى لماذا هو هنا ، ولا لماذا جاء ..

لاحظ خلو أصابع يديها من دبلة . أدرك أنها لم تخطب بعد طلاقها من فؤاد أبو شنب . وأدرك أن حبه لها مازال كما هو ، لم يتغير بانقضاء السنوات ، ولا بكل ماجرى . حتى زواجها من فؤاد أبو شنب لا حيلة لها فيه ، وهى التى أجبرته على تطليقها . هى تحبه ، وهو يحبها . هو الآن موظف بمصلحة الموانى والمنائر . مستقبله لا صلة له بالقهوة برفض أبيه ، ولا بالقهوة ..

ــ إلى أين ؟..

سيد الفران . الخصلة المتهدلة ، والوجه النحيل ، والعينان الواسعتان ، والأنف الضخم ، والسنتان العلويتان النابيتان ، تضغطان على الشفة السفلى ..

أسعفته بديهته :

ــ عائد من الحلقة .. اشتريت ثلاث أقات ترسة !

قال سيد :

ــ ولماذا تتعب نفسك ؟.. أنا موجود !..

وأعاد خصلة الشعر المتهدلة إلى موضعها :

ــ أنت لم تر كشك سيد حتى الآن .. ماذا لو زرتنى؟..

اتسعت ابتسامته :

ــ بعيد ؟..

قال سيد :

ــ أبداً .. على ناصية الموازينى ..

وهما يعبران الطريق سأل بعفوية :

ــ ما أخبار ولى العهد ؟

ولى العهد ؟!..

لو أن هشام يعرف ماذا واجه بالأمس حتى ينتزع الأمنية الصعبة ؟!..

***

أطلق أف منغمة ، حاول من خلالها أن يلم مشاعره المبعثرة ، الخائفة ..

بدت الوكالة أمامه ساكنة ، غارقة فى الظلام ، فيما عدا لمبة خافتة فى نهاية الساحة الواسعة ..

حذرت زمزم أنسية من أن البيت قد يكون ملاذاً لروح شريرة ، تمنع الخير عن أصحابه . تجاهلت أمر سيدى ياقوت العرش إلى التاجر كمال مصباح بأن يعطيها الشقة . بخّرت الحجرات كلها ، ودعت الشيخ مكى قارئ سيدى نصر الدين ، فقرأ آيات من القرآن لفك الأعمال السفلية . علقت ــ أعلى السرير ــ أحجبة وقطع نحاس وخرزاً ملوناً . وضعت فى جوانبه أربعة سكاكين ، تخيف الشر ، تدفعه إلى التراجع ، فلا يركب السرير ، لا يطول أذاه الجنين فى بطنها . كتبت لها نظلة حجاباً ، تشربه مع الطعام ، أو مع الماء ، أو مع الشاى ، أو اللبن . لا تعلّقه ، ولا تضعه تحت المرتبة أو المخدة ، لكنه لابد أن يدخل معدتها ، يحدث تأثير الطعام والشرب والدواء ، فى تحقيق العافية للبدن . خضبت يديها وقدميها بالحناء ، ودلكت نظلة جسدها بمزيج من

الأعشاب البرية المسحوقة ، المخلوطة بماء الورد والطلاسم والأدعية . نصحتها الكودية نظلة أن تتحمم فى ماء مخلوط بدم قلب كلب أعمى ..

قالت من بين دموعها :

ـ والمرسى .. لا تعد من غيره ..

رفع حاجبيه فى دهشة :

ـ إذا لم يكن أعمى .. ألا يصلح ؟..

تحول بكاؤها إلى نشيج :

ـ طلب الأسياد ..

وأعادت القول :

ـ لا تعد من غيره ..

وهو يهز رأسه :

ـ بإذن الله ..

داخل صوتها حشرجة :

ـ سأقتل نفسى لو تكررت وفاة المولود ..

التمعت عيناه :

ـ لا تكفرى ياولية .. حتى لا يعاقبنا الله ..

التقط كلمات قاسم الغريانى :

ــ أغرب حراسة فى وكالة درويش بسوق الترك ..

الحارس كلب أعمى !..

انشغل بمراقبة الوكالة ، حركة الدخول والخروج ، موعد قدوم الخفير ، وموعد انصرافه ، تبدو كقلعة ساكنة الواجهة ، يشى الباب الخشبى الضخم ، الموارب ، بالحياة داخلها ، وإن تغطت ــ فى النهار ــ بظلمة شفيفة . وأنارتها ــ إلى الصباح ــ لمبة صغيرة ، مدلاة من السقف ، فى نهاية الساحة ..

كان يشغله ألاّ ينبح الكلب ، وألاّ يصدر صوتاً يشرخ الصمت المحيط بالمكان . يثق أنه أعمى ، وإن خاف أن يشى به نباحه ..

حاول أن يدفع الباب ، فزام الكلب ..

اجتاحه خوف . ظلت قدماه فى مكانهما . تسربت القدرة على الحركة من جسمه . فكر فى العودة من حيث أتى ..

قبل أن يدفع باب الوكالة ، تعالى النباح من الداخل . توالت اللحظات بطيئة ، تفح بالخوف ، فأدرك أن الكلب مربوط فى سلسلة ..

تعمد أن يحدث حركة فى وقفته ، لكن الكلب ـــ فى ضوء عود الكبريت ـــ هز ذيله ، ولم ينبح ، وظلت عيناه فى تحديقهما الساكن ..

تحسس السكين بيده المرتعشة . أحس ببرودتها تلامس أصابعه ..

لما زمجر الكلب فى مكانه ، خمن أنه شعر بوجوده ..

تواصل زم الكلب فى تواصل ، دون أن يفتح فمه . ثم وقف على قدميه الخلفيتين ، ومال بصدره إلى الوراء ، وأطلق صوتاً ممطوطاً كالعواء ..

سحب السكين من جيب بنطلونه الخلفى ، وتقدم داخل الوكالة ..

* * *

ألقى أمامها جثة الكلب :

ـــ أمامى مشوار إلى مستشفى رأس التين لتلقى حقنة فى البطن واحداً وعشرين يوماً !..

شهقت فى تراجعها إلى الخلف . علت رائحة التعفن . سدت أنفها بأصابعها . أحست بأمعائها تتحرك . تصعد بدوار وميل إلى الغثيان . وضعت يدها ـــ بتلقائية ـــ على فمها

المفتوح . مالت المرئيات ـــ بالخوف ـــ وتشابكت ، واختلطت . لم تلحظ الخدوش التى تقاطر منها الدم فى وجه سيد وذراعه . تخاذلت قدماها فلم تساعدانها على الوقوف ، ولا أسعفها لسانها بما ينبغى قوله .. ثم أسرعت إلى المطبخ . أفرغت كل ما بجوفها

أقعت نظلة بجثتها الهائلة ، وبشرتها السوداء ، وأنفها الأفطس ، ورنين الأساور الذهبية يعلو فى ساعديها . هوت بالساطور . شطرت الكلب المذبوح ، الملقى على ظهره ، إلى نصفين . ثم شطرت الصدر وأعلى البطن إلى نصفين . أعملت السكين فى الصدر ، فاقتطعت الجزء الأيمن منه ..

أغمضت أنسية عينيها بالخوف ، ولحم الكلب يقاسمها ماء الطشت ، ويد نظلة تضوع البخور فى الأركان :

ـــ يا سيدى المرسى .. فك عقدة أنسية بنت ..

واتجهت إليها بالقول :

ـــ ما اسم أمك ؟..

ظلت عيناها مغمضتين :

ـــ أم رمضان ..

قالت نظلة :

ــ اسمها هى ؟

ــ هاجر ..

واصلت نظلة تضويع البخور :

ــ ياسيدى المرسى .. فك عقدة أنسية بنت هاجر ..

***

حمل سيد ما تبقى من الكلب . ألقى به فى البحر ، فلا تحدث عكوسات ..

سكـــوبا

أما لماذا عرضت عليك أن تغوص معى ، أو نغوص مجموعة ، فذلك ما لم أطلبه من قبل ..

الهمس بأنى أهملت الجسارة القديمة ، وأصبحت خوافاً ، منذ لقى زميلنا طه ملوخية مصرعه . نسى ماسك الأنف المطاط ، فواجه الخطر فى عدم معادلة الضغط . أصابته الطلعة المفاجئة بالشلل ، وظل فى المستشفى الأميرى ثلاثة أيام ، ودعناه بعدها .. يصلنى فى جلستى فى قهوة الزردونى ، أو فى الحلقة ، أو فى ورش المراكب . ربما التقيت على الكورنيش بمن يواجهنى بالهمسة الشائعة . يغلف الابتسام كلماته ..

لا يشغلنى الغوص ــ كما تعلم ــ فى المناطق الزرقاء ، العميقة . أهمل التماع عينيك بالخوف وراء النظارة . غصت ما يزيد على العشرين عاماً . تنقلت فى أعماق البحر من رأس التين إلى السلوم . واجهت مشكلات ومتاعب ، أنقذنى منها الزملاء ، أو أنقذت نفسى ، ولم أتحدث عنها . طلعت بكميات لا أذكرها من الأسفنج ..

لم أنتبه ــ ذات يوم ــ الى الأمتار التى غصتها . أذهلتنى رؤية درفيل ضخم . انتترت ــ بالذعر ــ الى أعلى . أحسست ــ حالاً ــ بميل إلى النوم . أنقذتنى صيحة حكيم منيب ، وإمساك يده بساعدى نحو البلانس ..

ظللت راقداً ثلاثة أيام لطلوعى المفاجئ ، عرفت بعدها أن الدرفيل صديق الغطاسين . هكذا قال لى الخواجة نيقولا . وهو ما أكده الجد السخاوى ، وأنا مستلق ــ فى البيت ــ على ظهرى ..

وحين شكوت ألم أذنى الى الطبيب فى المستشفى الأميرى ، وضع أذنى أمام عينيه ، وسلط ما يشبه البطارية فيها . ثم قال وهو يرفع مرآة مستديرة ، صغيرة ، على جبهته :

ــ أنت تعانى تهتكاً فى طبلة الأذن ..

ثم وهو ينقر بأصبعه على خدى :

ــ دخل الماء الأذن الوسطى ..

أضاف للتساؤل فى ملامحى :

ــ ان لم تحرص على الدواء ، ربما أصبت بالصمم !

وعلا صوته فى تحذير :

ـــ قد يفضى الإهمال الى تعرضك للشلل !

لم يكن الخوف فى بالى ، ولا عرفته . أتأكد من وضع النظارة بما يمنع تسرب الماء ، الشنوركل فى الفم ، الزعانف فى القدمين . آخر ما أضعه فوق بدلة الغطس حزام الأثقال واسطوانة الهواء . ربما استخدمت بدلاً من الشنوركل أنبوبة خفيفة ، مستقيمة ، ومفتوحة ، دون صمام . هذا ما يفعله معظم الغواصين ، ويفضلون عدم استخدام أدوات معقدة تخونهم وقت الحاجة إليها . أقرأ الفاتحة . لا أستخدم الأربطة قبل أن ألتقط شهيقاً من الأنف ، وأحبس أنفاسى . تسبق يدى بسكين الغطس نزولى فى الماء ، أو أربطها حول ساقى . لايشغلنى إلا الصعود بالأسفنج . لا أعطى انتباهى للروايات المفزعة عن غواصين أخطأوا ، ففقدوا السمع ، أو قضوا بقية حياتهم مشلولين ، أو ماتوا ..

فتحى عبد ربه .. هل تذكره ؟

زاملنا فى الغوص إلى أعماق بعيدة . من العجمى ـــ غرباً ـــ حتى السلوم . صعد من الماء مشلولاً . نزل إلى الأعماق ما يزيد على الأربعين متراً . واجه شيئاً لم نتبينه . بعد أن أخرسه الشلل ، شيئاً قاسياً ، مفترساً . دفعه إلى

الطلوع من المياه بسرعة . نسى الحقيقة التى نعرفها . بتأثير الفزع نسيها . طلوع الأربعين متراً مرة واحدة ، أضاع توازن الدم ، فشل الجسد ..

تعلمت كيف أهتدى الى الأسفنج ، ملتصقاً بالقاع ، والصخور ، والطحالب والأعشاب الغائصة فى الأعماق ..

أفضل الأنواع ما أعثر عليه فى المياه العميقة . أتفادى أعلام الغطس والعوامات المتناثرة . أحرص على مسافة كافية ، فلا أواجه الإصابة دون قصد ، وأتجنب قناديل البحر ، والشعاب المرجانية الملونة ، والأخاديد والنخور العميقة ، المتعرجة ، والتشكيلات الصخرية ، والأسماك الكبيرة . لا أستعمل السكين . أضرب الحيوان ــ بقوة ــ من أسفل . أنتزعه ، أو أخلعه ببطء ، من المحيط الخارجى الى مركز التثبيت . أنتزعه برقة ، فأضمن الحصول على الحيوان كاملاً ، وغير ممزق . التقطيع ــ كما تعلم ــ يقلل من رتبة الأسفنج . أضيف إلى ما اصطاده الزملاء ، يوضع كومات على الشاطئ ، حتى تتعفن أنسجة الأجزاء الرخوة . تعصر الهياكل المتبقية . تغسل بمياه البحر . تربط فى حزم ، ثم تجفف فى الهواء ، وتظل منشورة حتى تتحلل بأشعة الشمس

. تنظف جيداً ، ثم تبيض . يخلو الأسفنج من الحصى والرمال والأصداف والأعشاب . تقص الجذور والتفريعات والزوائد . قد يأمر الخواجة نيقولا ، فتصبغ باللون البنى ..

أتنبه لنصائح الجد السخاوى :

ــ حتى لا يؤذيك الضغط ، اتبع الفقاعات .. ولا تصعد بسرعة أكبر من سرعة ارتفاعها ..

ويعتدل فى مواجهة الشمس :

ــ الغوص يحتاج الى فن .. القاع ملىء بالصخور التى تشبه الصدف ..

ثم وهو يهز إصبعه :

ــ أقل خطأ يعرضك للشلل أو الموت ..

يسبق استعداد النزول ، تعرف إلى طبيعة المكان ، مساحات الغوص ، الصخور المخفية تحت الماء ، اتجاه التيار وقوته ، حركة الرمال بالقاع ..

أطلع من الماء ..

أتابع ــ بعين متعبة ــ عملية التجهيز : دوس الإسفنج بالأقدام ، أو عصره لقتل الحيوان ، وطرد المادة الحية والسوائل ، تجميعه فى كومات ، تغطيته بأكياس ئمبللة .

يتحلل الإسفنج ، ويحمل ــ مغسولاً ــ إلى البلانس . تستمر عملية التنظيف ، للتخلص من الرمال والحصى والطحالب والأعشاب ..

بداية المشكلة ، لما اشترت الشركة جهاز سكوبا ، وطالبتنا باستخدامه . يستطيع الغواص أن يظل به تحت الماء ثلاث ساعات . يسمح بالتنفس من أنبوبة مطاطية ، أحد طرفيها فى فم الغواص . الطرف الثانى يتصل باسطوانة تحمل هواء غير مضغوط . تستخدم الجهاز مراكب يونانية ، تأتى من جزر الدويكانيز . تصيد الأسفنج فى مرسى مطروح والسلوم والسواحل الليبية ..

قال لى الخواجة نيقولا :

ــ لا أريد أى أسفنج .. التعاقد على تصدير أغلى الأنواع ..

وافتر فمه عن أسنان سودها التدخين :

ــ إنها شركة يابانية تطلب تركى كب أو ملاتى نمرة واحد ..

وأضاف بلهجة مؤكدة :

ـــ إذا أحببنا أن نبيع محصول الأسفنج .. فليكن ذلك الآن ..

ثم وهو ينقر بأصبعه على طرف البلانس :

ـــ مالم نبعه الآن .. سنؤجل بيعه إلى العام القادم ..

وقطب جبهته ، فتكرمشت بشرتها :

ـــ العادة أنهم يتركون موسماً بأكمله حتى ينمو الأسفنج ويكبر وتتوفر كمياته .. فيشترونه فى الموسم القادم بسعر الموسم الحالى ..

حين أضع الأسفنج على أرض البلانس ، أخمن الجهة التى سيذهب إليها . التركى كب تطلبه مصانع مستحضرات التجميل . ناعم وجيد الخامة ، ويتألف من خمس درجات . الكباتجة يشبه خلية النحل ، يستعمل فى أدوات الحمام ، وتلميع حروف الطباعة . الزيموكا تحتاجه صناعة المعدات الحربية ..

قلت :

ـــ الزيموكا لايوجد إلاّ فى أبو قير ..

قال :

ـــ أريد التركى كب .. ولا يهمنى منطقة صيده ..

أظهرت القلق :

ـــ لكنها منطقة خطرة ..

علا صوته بالدهشة :

ـــ هل يتحدث الغواص عن الخطر ؟..

نصحنى الخواجة نيقولا أن أضع ثقلاً من الرصاص فى الحزام الملتف حول بطنى . أنزل البحر ، وأطفو ، مثل السمك . أغوص ـــ دون خوف ـــ فى الأعماق التى أريدها . أصعد دفعة واحدة الى سطح الماء . لا أخشى انفجار المخ ، أو الشلل ..

كنت أخشى تشوه العمق ..

رفضت عرضاً من الخواجة نيقولا بأن أرتدى نظارة تعالج تأثيرات التكبير ، وتقريب المسافات تحت الماء . أفضل رؤية الأشياء كما هى ، بالنظارة العادية . يبدو كل ما أراه فى صورته الحقيقية ، وإن زاد حجمه ـــ تحت الماء ـــ إلى الثلث . تعلمت ـــ بتكرار الغوص ـــ تصحيح أخطاء التكبير والمسافات .

أفضل الغطس ساعات الصباح ، أو ساعات بعد الظهر . أفضل من ساعات الظهر . حين تميل أشعة الشمس على السطح . يبدو رائقاً ، وشفافاً ..

عندما أغوص الى أكثر من خمسة وأربعين متراً تحت سطح الماء ، أشعر أنى أستطيع أن أغوص أعمق وأعمق . أتنفس فى الماء . أستغنى عن جهاز سكوبا ..

مع أنى أحذر نفسى ـــ قبل الغوص ـــ من الشعور بالسكوبا . يلفنى ، يدفعنى إلى النزول فى الأعماق أكثر . أتذكر تحذيرى لنفسى ، فأصعد الى سطح الماء . أعاود التذكر ..

أما لماذا عرضت عليك أن تغوص معى ، أو نغوص مجموعة ، فلأنى أخشى أن يسرقنى الشعور بسهولة الغوص الى الأعماق التى أريدها ، بجهاز ، أو بدونه . أهمل حتى التحذيرات التى تصلنى من البلانس بأن أتوقف عن الغوص ..

إذا كنت معى ، أو كنا مجموعة ، فإن من تسرقه سهولة الحركة ينقذه زملاؤه ، نتنبه إلى الخطر لحظة اقترابه ، قبل أن يغويه جهاز سكوبا..

الرفقة والصداقة والمؤانسة ، كلمات نتبادلها فى القهاوى ، وأثناء سيرنا على الكورنيش ، وفى القعدات الخاصة ، ولحظات الاسترخاء فوق البلانس . نلتقى بها فى الأعماق . دنيا واسعة من الأسماك والأعشاب والطحالب والصخور والكهوف والتوقعات . لا تقطع دقائق الغوص والطلوع صلتى بالحياة فوق الماء . الوحدة تقذف بى فى دوامة التردد ، وربما الخوف . إذا رافقنى زميل ، تصورت المساندة فى مواجهة ما لا أتوقعه .

لم يبق إلاّ البحـــر

بسمل الحاج محمد صبرة ، وحوقل ، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ..

– أعوام لم ألامس بالمقص رأس زبون ..

قال المعلم حنفى قابيل :

– أريد البركة ولا أريد الحلاقة ..

رأى فى منامه سيدنا الخضر راكباً على جواد أبيض . بيده سيف أبتر ، لم يستقر ولا تحرك . ظهر كالومضة ، واختفى كالومضة أيضاً ..

قال فى تأثر :

ـ لذلك قررت أن أنهى حياتى بالحج ..

ـ متعك الله بالعمر المديد .. زيارة الكعبة وقبر الحبيب واجب على كل مسلم ..

رأى بنفسه أيام فتونة الرجل . قبل أن تغرب شمس الفتوات ، ويقنعون بالجلوس على القهاوى ، والتجارة ، ويصدرون الأوامر من نافذة المجد القديم ..

كان أعوانه يتقدمون موكبه ، يفسحون الطريق بأيديهم وبالنداءات والشتائم . يبدأ معركته وسط الصهبة . يقذف كرسياً فى الكلوب القريب ، فتصمت الأغنيات والزغاريد . تنهال من بعده الكراسى ، وتتمطى الفوضى ، وتختلط الصرخات والصيحات والضربات الموجعة . وكان إذا نطح برأسه ، كسر رأس الذى يعاركه ..

وصحت السيالة ــ ذات صباح ــ على حبل يسد الشارع ، لا يواصل أحد السير إلاّ إذا دفع قرشين ..

لم يخف غضبه عندما شكا الحاج قنديل على الراكشى فى نقطة الأنفوشى ..

قال بتأسف :

ــ وهل قصّرت حتى يلجأ إلى النقطة ؟!

كان يعتز بأنه لم يدخل القسم فى مشكلة . حتى لو أذية غدر ، يتماسك ، فلا يبلغ القسم . هو الذى أوذى وليس الحكومة . عليه أن يأخذ ثأره بيده ..

حتى بعد أن قنع بالجلوس فى قهوة الزردونى ظل ملتفا بالمهابة . كانت له ملاحظاته ، وآراؤه ، وأوامره النافذة ..

وحين غادرت الست جمالات السيالة ، ذاع أن الرجل أمرها بترك الحى . أغضبته حكاياتها مع الأسطى فتحى . ثم شدد على فتحى أن يترك السيالة هو أيضاً ..

ظل على حاله ، لا يعبأ برجال الإدارة ، ولا يظهر لهم اهتمامه . حتى الصاغ قرة إذا وقف الرجال لمروره أمام القهوة ، ظل هو فى مكانه . لا يغادر مبسم الشيشة شفتيه ، ولا تتحول نظراته ..

قال المعلم حنفى قابيل :

– ليس فى الأمر حتى الآن مشكلة .. ولكن ما الذى يمكن أن أفعله عندما يتقدم العمر ، وأصاب بالتهاب المفاصل والسكر ، وأواجه أول أزمة قلبية ؟!..

سعى إلى صلاة الجمعة فى أبو العباس ، وإلى أوقات الصلاة فى المساجد القريبة ، وحمل مسبحة . وألف الناس تمتماته بآيات وأدعية . واختار الجلوس على قهوة الزردونى . يرد على السلام ، أو التحية . لا يلح ــ كما الزمن القديم

ـــ فى ضرورة الاستضافة . ربما مضت ساعات وهو جالس ـــ بمفرده ـــ إلى النرجيلة يحتسى دخانها ، ويتأمل المدى ، ويجتر فى ذهنه ما يبين بالتأثر فى ملامحه ..

***

البداية لا يذكرها أحد . ربما قبل الحرب العالمية الأولى ، وربما بعد انتهاء الحرب مباشرة . طافت المعارك بالأحياء ، لترسو ـــ فى كل حى ـــ على بر الفتوة الواحد : الشاطر فتوة رأس التين ، السكران فتوة السيالة . لم يكن حنفى قابيل فتوة منطقة بالذات . قدم من الصعيد إلى بحرى فى شبابه . رفض البلطجة ، وإن عمل له الجميع ألف حساب . امتدت معاركه إلى كل أحياء الاسكندرية . لا يحمل سلاحاً ، حتى لا يقبض عليه البوليس ومعه ما يدينه . خاتمه الضخم يلتف حول إصبعه ، يكفل تكسير الأنف أو الأسنان . يحسن الملاكمة ، واستعمال المقص والروسية . يحيط بخصر عدوه ، فيعصره ، تكاد روحه تطلع من فمه . ينهال على رأسه وصدره بقبضة حديدية . قد يلوى الذراع ، ويضرب الركبة فى أسفل البطن . اذا مر على قهوة ، انتتر الجالسون وقوفاً

لتحيته ، لا يعودون الى أماكنهم الاّ بعد أن يميل فى شارع جانبى ..

قبض عليه البوليس ، فى خناقة مع عساكر إنجليز بالمنشية . عافر ، وعصلج ، وأوعز الضابط الانجليزى للمحتجزين ، فاتهموه بسرقة أموالهم ..

قال عبد الرحيم ، فتوة اللبان ، للضابط الانجليزى :

ــ أضربه ، فتخلى سبيلى ؟

وافق الضابط . مشاغبات قابيل ومعاركه ، هم يومى لأقسام الاسكندرية . لو أن فتوة ــ مثله ــ يذل أنفه ؟

دفع الاثنان داخل زنزانة مغلقة ..

أذهلته المفاجأة لما فتح الزنزانة . خرج حنفى قابيل بمفرده . سعى إلى ركن القاعة ، وجلس ..

من يومها ، ألف حنفى قابيل التردد على أحياء الاسكندرية . يدخل معركة مع فتوة كل حى . يغلبه ، ويعود..

* * *

طرف خيط البداية ، فى افتعال خناقة . اصطياد الرءوس الكبيرة ، ومرمغتها فى التراب . ما تكاد المعركة

تبدأ ، حتى تغلق أبواب الدكاكين والبيوت ، وتغلق النوافذ ، وتخلو الشوارع من الجالسين والمارة . تبدو المساحات متسعة ، باقتصارها على المتعاركين . يعمق من الصمت ارتطام الشوم بالشوم ، وبالرءوس والأجسام والصيحات والتأوهات والصرخات . يسير الفتوة فى شوارع بحرى ، يتبعه أعوانه ، حاملين العصى والأسلحة . موكب له هيبته . كلما كان الأثر طيباً ، سارت خطوات الأيام القادمة فى أرض صلبة . المبالغات تنقل تفاصيل التفاصيل الى الأحياء البعيدة ، تصنع أسوار المهابة حول أطراف الحى . يفكر أبوحمدات الأحياء الأخرى قبل أن يحاولوا اجتيازها ..

كان الفتوات يحيون بين الناس . يخالطونهم فى الأسواق والشوارع وعلى القهاوى . يزوون الأهل والأصدقاء ، يصلون فى مساجد الحى ، يعقدون الصفقات ، يشاركون فى حلقات الذكر وليالى السمر . لا يعتدون على الجيران ، أو على النساء ، ولا يترددون على كوم بكير ، ولا يفرضون الاتاوات ، وإن استحلوا سرقة معسكرات الانجليز ، وسياراتهم ، وتحدى السلطة . يرفضون السحت

والمال الحرام . من خالف ذلك ، ينظرون إليه بسخط . ربما توسلوا لجره فى خناقة ..

الاعتراف بالسيطرة شرط أول ، مطلوب . النظر الى الغلابة بعين التعاطف جزء من الصورة . الوقوف فى وجه الحكومة أجزاء واجبة أخرى : كبس طربوش مأمور القسم على أذنيه ، تحدى الأوامر ببيع المخدرات ، وتعاطيها ــ ولو للمظهرية ــ فى عز النهار ، تمزيق محاضر الضرب ، كسب الأتباع والمساعدين خطوة تالية . كلما تزايد العدد ، تأكدت السيطرة . حتى أقواله وتصرفاته ، لابد أن تشى بانتمائه إلى دنيا الفتونة ..

روى الناس عن تصدى السكران لهجوم مساعدى النجرو ، فتوة حى المنشية ..

كان جالساً فى قهوة البوستة ، يرفع ــ بيد ــ كرسياً ، يتلقى به الضربات ، بينما تواصلت ضرباته بالعصا الغليظة التى لم تكن تفارقه ، فقضى عليهم تماماً ..

حملت الإسعاف الجرحى عدة مرات ، والسكران فى مجلسه ، ينفث دخان النارجيلة ..

روى أنه كان يقود عربة حانطور . ينتظر جنود الانجليز ، عند خروجهم من كازينوهات الكورنيش . يقلهم الى أماكن بعيدة . يقتلهم ، ويعود ..

لما حل أجله ، انتهت حياته بصورة لم يكن يتوقعها أحد ، ولا توقعها هو نفسه : حدث له مرض شديد ، ألزمه الفراش ما يزيد على العامين . لحقه سرساب ، وتشوشت ذاكرته ، ولم يعد يتعرف على زواره . وصوّت أهل بيته فى وجهه وهو ينتزع أنفاسه الأخيرة ..

* * *

صارح الجد السخاوى حنفى قابيل برأيه ، فى قهوة مخيمخ ..

كان قد مضى على قدومه من قريته فى الصعيد ثمانى سنوات ، وكان فى عزه . كانت تصرفاته ترضى الجد السخاوى . الأبوحمد الحقيقى يرفض الغدر . ربما نادى على خصمه ليواجهه قبل أن يبدأ خناقة . يلقى سلاحه إذا كان الخصم بلا سلاح . يحترم المسالم والضعيف ، ويحتقر الجبان ، يرفض أن يوجه اليه كلمة ..

لم يكن لحنفى قابيل صلة بالصيادين ، وان قيل إنه تزوج جنية ، لا يقوى على مضاجعتها إلا فى الشتاء . لشدة السخونة فى جسمها ، إذا انتهى منها ، أسرع الى البحر ، يستحم فيه ، ليذهب عنه الحرارة الشديدة ..

لأن العروسين اللذين ينتقلان من حيهما الى حى آخر ، لابد أن يستأذنا فتوة الحى الجديد ، اختار منطقة أبو العباس مجالاً آخر لسطوته . بركة الطواف حول المرسى واجبة لكل عروسين ليلة زفافهما . يتناثر أعوانه حول الساحة الواسعة ، يسألون عن الموافقة . الموافقة لها معلوم . من يغامر لقاء الرفض ليلة زفافه ؟

قيل إنه صاحب فكرة الزفة الاسكندرانى . اخترعها ليتقدم الزفة ، ويتقدم الجميع . إن لم يحدث ذلك ، فلا أحد يدرى مصير الزفة ، ولا مصير المشاركين فيها . حتى العريس قد يواجه الموت بضربة شومة ..

يسبق أعوانه أهل العروسين بالهتاف :

يا عريس يا حلو يا ابن الناس

يا وردة محطوطة فى الكاس

هنــزوّرك لأبو العبـــــــاس

يصحب أعوانه موكب العروسين ، حتى يغادر بحرى . يتسلمه أبوحمدات الأحياء الأخرى . العصا الغليظة تتقدم الموكب . لا تشرع عصى الأعوان إلا لضرورة . ربما هوجم الموكب المتقدم ، فيثور غبار الأقدام والأجساد المتلاحمة والشوم والخناجر ..

لما جرت النقود فى يد عبد الرحيم استأجر حجرة للدعارة فى حارة الشيخ سلامة الراس ، وثانية تطل على سيدى المغاورى ، وثالثة فى حارة مدورة . اعتبرته المعلمة أنصاف منافساً . أبلغت البوليس بزهرى أصاب واحدة من نسائه ..

تناقضت التوقعات ..

قيل إن عبد الرحيم أمر أعوانه بإغلاق بيوت أنصاف فى كوم بكير ، وفى أحياء الاسكندرية . وروى سيد الفران عن حديث هامس فى قهوة مخيمخ ، بين حنفى قابيل وأحمد قاسم ضابط مباحث الجمرك ، تردد فيه اسم أنصاف . امتدت التوقعات ، وتشابكت . ثم فاجأ حنفى قابيل الجميع بزواجه من أنصاف ..

***

تكاثر الفتوات كالجراد . كل من لطشه السلك ، وصار بلا مهنة ، أعلن نفسه فتوة ، يخوض المعارك ، أو يرشو الأقوى لقاء تغاضيه . هجر حنفى قابيل الفتونة ، وفرض الإتاوات ، والدخول بالمعلوم فى معارك الأحياء . استهوته تجارة الممنوعات ، ومسروقات السلطة العسكرية . يتسلل أعوانه إلى معسكرات مصطفى باشا وكوم الدكة ورأس التين . يتسلق أحدهم سيارة نقل عسكرية ، يقذف ما فيها إلى الباقين ، الذين يعدون خلف السيارة . زادت جرأته ، فباع ملابس العساكر الانجليز وهم يرتدونها . يشك العسكرى مقلباً ، يضربه روسية ، يعريه من ثيابه بالقوة . لم يحمل السلاح أبداً لعلمه بخطورته . تسلل الأعوان ــ ليلة ــ الى معسكر رأس التين ، فسرقوا صندوقاً هائلاً . أذهلتهم المفاجأة لما وجدوا بداخل الصندوق جثة . خطف توتو الرشيدى ــ أقرب أعوانه ــ كرتونة معلبات من سيارة جيب انجليزية فى شارع إسماعيل صبرى . لمحه السائق ، فجرى إلى الخلف . دخل وراءه ــ دون أن ينزع الحذاء ــ وسط المنتظرين صلاة الجمعة ، خارج على تمراز . أقعده إلى جواره ، وانطلق بالسيارة . وشى الرشيدى بمعلمه وبقية الأعوان .

عادوا ــ فى اليوم الثالث ــ تسبقهم تأكيدات بحماية السلطة ..

شكا الأهالى من أن البوليس يخشى الفتوات . يرفض تحرير محاضر الضرب والتعدى . يبتعد عن الخناقات حتى تنتهى ..

***

ساعدت أنصاف حنفى قابيل بمعارفها من ضباط البوليس . خلت المحاضر من حادثة ضده ، أو ضد أعوانه . تكاثر أعوانه مدفوعين بإحساس الطمأنينة . انطوى بحرى فى إرادته . الأنفوشى والسيالة ورأس التين . فرض سيطرته على الميادين والشوارع والحوارى والقهاوى والدكاكين . صبيانه يرصدون له تحركات الفتوات الآخرين ووجهاء الحى . حتى حفلات عقد القران والحنة والزفاف يعرف مواعيدها بالساعة . امتدت السيطرة إلى داخل البيوت . صبيانه يطرقون الأبواب ــ فى الليل والنهار ــ يبلغون السكان بما يطلب . من يرفض أو يتأخر عن التنفيذ ، يفاجئه قذف حجر فى زجاج نافذته ، أو طعنة خنجر وهو يتلمس طريقه ــ ليلاً ــ فى مدخل البيت ، أو حريق داخل الشقة غاب مصدره .

كان يعتز بأنه يملك الشوارع من صلاة العشاء إلى ما بعد الفجر ، ويعتز بأنه يملك بحرى فى كل الأوقات . أعوانه المبثوثون يفرضون سطوته على البيوت والدكاكين ورواد القهاوى . ثم جاوزت سطوته بحرى الى أحياء أخرى قريبة . قيل إنه عقد صفقات لشراء مخلفات المعسكرات البريطانية ، قبل جلائها عن المدينة .

تلاشى صغار الفتوات ، وإن أوصى حنفى قابيل صبيانه بتجنب الخصومة ما أمكن . لم تعد الإتاوات مقصورة على بحرى فقط . تقاضى إتاوات فى المكس وأبو قير . وأتاه مرعى بيبى بحمولة ــ هدية ــ من كفر الدوار . زاد ، فأمر فرق الصوفية ــ عندما تخرج فى الموالد ــ أن تمر بزقاق العماوى ــ رغم ضيقه ــ وتتوقف أمام بيته . يستضيفهم بأكواب الماء المثلج والقرفة والشاى .

* * *

حدث ما كان يتجنبه حنفى قابيل ..

اقتحم الشاطر مجلسه فى قهوة النجعاوى . يرتدى جلابية من الحرير ، ويضع على رأسه طاقية بيضاء ، ودس قدميه فى مركوب أصفر ..

رماه بنظرة متحرشة :

ــ تركت البلد لكلابك يبولون فيها .. حتى اقتحموا بيتى ..

انتزع حنفى قابيل مبسم النرجيلة من شفتيه فى قلق :

ــ من يجسر يا أخى ؟

ــ الولد مرعى ببيى .. تعرض لكبرى بناتى فى طريق عودتها الى البيت ..

مسح مبسم النرجيلة بباطن يده ، وقال فى هدوء :

ــ أعدك بتوبيخه ..

غالب انفلات أعصابه :

ــ أنا الشاطر !

فى لهجة ذات مغزى :

ــ وهل أنكرت ذلك ؟..

وهو يضغط على الكلمات :

ــ هذا الكلب لا يدخل الأنفوشى ..

ظل حنفى قابيل على هدوئه :

ــ مبلغ علمى أن الأنفوشى ملك الحكومة ..

صرخ فى صوت محترق :

ــ وأنا فتوته !

طوح بمبسم النرجيلة ناحيته :

ــ دافع عن شرفك إذن .. وامنعه من الحى ..

لوح الشاطر بسبابته :

ــ سأمنعه من الحياة نفسها ..

تحسس طرف شاربه ، وغمز بعينه :

ــ لا تسرف فى توهم حماية الانجليز ..

اقترب منه ، فلامست سخونة أنفاسه وجه حنفى قابيل :

ــ قبضتى تحمينى !

أذن حنفى قابيل لمرعى بيبى بنظرة موافقة . قفز أمامه ، ووضع أصابعه على جنبيه :

ــ أتحداك يا عرة الأبوحمدات !

جز الشاطر على أسنانه :

ــ لا تحسن الظن بفتوتك .. فحاميته امرأة !

النظرة السريعة الى الأعوان المحيطين ، وشت برد الفعل . اهتزاز ساقه وشى بالانفعال الذى يغالبه . أحس بما يشبه الخدر يغيبه عن العالم من حوله . قال فى صوت يرعشه الغضب :

ـــ أمنحك فرصة وداع أهلك !

***

النهاية يذكرها الجميع ..

بعد هزيمة هتلر بأقل من شهرين . خناقة ميدان الخمس فوانيس : شك مقالب ، ضرب روسيات ، شلاليت ، كراسى متطايرة ، شوم ، خناجر ، سكاكين ، بلط . لاذ من فاجأتهم المعركة بمقام سيدى على تمراز ، قبل أن يغلق الجامع أبوابه . أطلت الوجوه من النوافذ والشرفات ، ومن فوق الأسطح ، وإن ظلت أبواب البيوت مغلقة . حتى باب سيدى على تمراز المطل على ميدان الخمس فوانيس . ظل مغلقاً . ودخل الناس لصلاة العشاء من الباب الجانبى بشارع رأس التين ، قبالة محطة الكهرباء ..

وقفت عربة لورى أسفل الفوانيس الخمسة ، المحطمة . نزل منها العساكر ، على رءوسهم الخوذ ، وفى أيديهم الهراوات . أحاطوا بالميدان الذى خلا تماماً إلا من المتعاركين . ماجد العطوى ضابط المباحث الجديد ــ بين دهشة الناس ، وتردد العساكر والمخبرين ــ دفعهم بعصاه

واحداً واحداً ، إلى عربة البوكس . انطلقت بين الأعين المندهشة التى كانت ترقب من بعيد ..

مضى العساكر والمخبرون وراء بقايا المعركة من الفتوات ، فى الشوارع المتصلة بالميدان والحوارى والأزقة ومداخل البيوت . قلبوا عربات اليد ، ربما تخفى تحتها من يريد الفرار . قبضوا على العشرات من الذين شاركوا فى المعركة ، أو لمجرد الاشتباه . لفظهم قسم الجمرك بعد ثلاثة أيام ، إلى الشوارع والأزقة والقهاوى ، لا معايرة بكلمة ، أوجر لخناقة ، أو محاولة لفتونة . جرت بعدها معارك صغيرة فى قهوة الزردونى ، فى ساحة المعهد الدينى ، فى المسافرخانة ، فى الباب الخلفى لجامع البوصيرى ، على ناصية شارع الميدان . صفافير العساكر تعلو فى كل مرة . يأتى ماجد العطوى بعصاه التى لم تكن تفارقه ، يطيح فى المتعاركين دون تمييز . يعاونه العساكر والمخبرون بالشوم وكعوب البنادق . يدفع المتعاركين ــ فى النهاية ــ إلى البوكس ..

شاهد صبياً فى سوق الترك يردد :

الشاطر ضربه قاسى .. ياما كسّر بالكراسى

مات الولد لما ناداه :

ـــ أتعرفه ؟

فى خوفه :

ـــ من ؟..

ـــ الشاطر ..

ـــ سمعت الأغنية ..

لكزه فى كتفه :

ـــ لا ترددها !

حين أصدرت الحكومة قانون إلغاء البغاء ، طالبت أنصاف زوجها بأن يحمى أعوانه بيوتها السرية . خافت النسوة من القانون . تسربن من البيوت التى استأجرتها أنصاف فى كامب شيزار والشاطبى والإبراهيمية . لم يعد إلاّ أربع نساء ، اضطررن ـــ للظروف القاسية ـــ إلى البقاء فى البيوت ..

لم يعد هو الفتوة القديم ، يشخط ، وينطر ، ويتقاضى الإتاوات ، ويفرض المعلوم ، ويدخل ويخرج ، فلا يصاب بخدش . تطلب منه شراء حاجاتها من سوق راتب ، أو شارع الميدان ، مرافقة النسوة إلى بيوت الزبائن فراراً من

ملاحقة البوليس . لم تكن تأذن بلقاء أحد داخل بيوتها . حتى الحساب يجرى بعيداً ، فلا يأخذ البوليس باله . وكان يحمل حقائبها إذا غادرت البيت فى مشوار . أدرك المهانة التى وصل إليها . اعتبره الناس مجرد زوج لأنصاف . حتى اسمه يغيب إذا جاءت سيرة الفتوات ..

رمقها بنظرة سخط : تحرص على إخفاء الشعر الأبيض بخضاب ظاهر ، توصى به فى سوق الدقاقين . يتألم لرؤيتها وهى تصحو . لا تستطيع أن تحرك مفاصلها ، تعانى لأقل حركة . تبحث يدها عن دواء الضغط فوق الكومودينو ، قبل أن تنزل من السرير . تقضى وقتاً طويلاً فى تجلية وجهها . تدلكه باللبن ، أو بالزيوت العطرية ، أو ماء الورد ، أو قشر الخيار . تجمله بمعجون الحسن يوسف . يأتى به مرعى بيبى من زنقة الستات ..

قال فى تسليم :

ــ انتهى زماننا .. رأيى أن نفكر فى مهنة جديدة ..

علا حاجباها الرفيعان :

ــ دعك منى .. هل تقوى صحتك الآن على العمل ؟

ثم فى صوت كالدندنة :

مرات العليل شافت بلا جوزها .. نطت من الحيطان

فوت المعنى :

ـــ يمكننى العودة إلى الصعيد .. وشراء أرض نحيا من إيرادها ..

فهمت ما يقصده ، فقاطعته :

ـــ لا أنتقل من الاسكندرية .. ولا أغير الكار الذى أعرفه ..

حاولت أن تفتح بيوتها لألعاب القمار ، أو لتعاطى المخدرات . لم يأت الإيراد بهمّ المغامرة ..

غالب انفعاله :

ـــ كار الشؤم !

خبطت صدرها فى تحسر :

ـــ كأنك لم تكسب منه !؟

ارتعشت أهدابه :

ـــ تتهميننى بالقوادة ؟

لونت صوتها :

ـــ العفو يا سيد الشرفاء !

جاهد حتى لا يفتضح انفعاله :

ــ من حق الرجل أن يصحب زوجته إلى حيث يقيم ..

بصقت في عب فستانها :

ــ فإن رفضت ؟

اربدت ملامحه :

ــ يطلقها !

ألقت برأسها الى الوراء :

ــ عين المراد .. طلقني !..

وانتهى عهد الفتوات .

أفق بلا غيــوم

مضى فى الشوارع الضيقة ، لا يجيل عينيه فى النوافذ المفتوحة ، ولا الأبواب التى سدت بالنسوة الجالسات ، يعددن الطعام ، ويغسلن ، ويثرثرن ، والبيوت قصيرة ، متساندة ، تطل من شرفاتها الصغيرة ونوافذها ، مناشر علقت فيها قطع الغسيل ، وتكومت أمامها ولصق الجدران عروق الخشب ، والشباك القديمة المثقوبة ، والصفائح الصاج ، والأسفنج ، وأعشاب البحر . تتبين أذناه طشيش التقلية ، ويشم رائحة التراب والعطن والأسماك الميتة والبول والغائط ، وهبات من الهواء البارد تتداح فى التقاء الأزقة ..

تلفت ــ بعفوية ــ لضحكة امرأة ، تناهت من نافذة قريبة . تشابهت النوافذ المفتوحة ، الخالية . فاتجه بعينيه إلى الأمام ، وواصل السير . يحاذر مياه الغسيل الزرقاء المختلطة بالتراب ، والأوساخ المتخلفة من تنظيف السمك ..

كان يطيل الوقوف على ناصية السيالة . يتوقع ــ أو يتمنى ــ خروج مهجة إلى الشرفة ، تنشر الغسيل ، أو تدلى

السبت لبائع ، أو تتفرج . يشغله أن ينظر اليها ، وتعرف أنه يفعل ذلك . ترهقه الوقفة ، فيسير خطوات ، ويعود ، وعيناه ترنوان إلى شقة عباس الخوالقة ..

فى شهادة الإبتدائية ، كتب إلى أبو العباس رسالة ، يطلب فيها مساعدته على النجاح . أودعها مقصورة الضريح . هل يكتب للسلطان رسالة ، تحنن عليه قلب مهجة ، فتعود إليه ؟ هل يستجيب المرسى ؟..

حاول أن ينساها ..

تردد ــ مع أصدقاء ، وبمفرده ــ على كوم بكير . تأمل ، واختار ، وأغلقت صاحبة النصيب الستارة عليهما . يحتضنها دون كلام . لا يسألها عن اسمها ، ولا تسأله من هو . يكتم رغبته فى أن يزيل ارتباكه . تمد يدها . يتمنى أن تشعله المرأة ، تزيد من الدفقات الموارة داخله . يكتفى بفك أزرار البنطلون ، حتى لو عرّت نفسها من الثياب تماماً . ينتهى ، فيعيد ترتيب بنطلونه . يضع النقود على الكومودينو المجاور ، ويمضى . لا يقرر العودة إلاّ إذا امتلأ ..

لم يكن يتصورها فى نساء الكوم ، وإن ظلت فى باله ساعات وساعات ، لا تغادره . يرى صورتها على الوسادة

بجانبه ، تطل عليه من النافذة ، تطالعه فى صفحات الكتاب ، تتقافز صورتها بين السطور ، تكلمه ، وتنصت إليه ، وتبتسم ، وتضحك . يلمحها فى زحام شارع الميدان . وحتى لا تغيب عنه ، كان يغلق عليها عينيه ، يـتأمل ملامحها ، وربما صحا على صورتها : الوجه الباسم ، العينان البنيتان ، الواسعتان ، الشعر الأسود المنسدل على الكتفين ، الشفتان الرقيقتان كورقتى وردة . تتشربها عيناه بنظرات متأملة . تتحدث ، ويكتفى بالإنصات . سعادته فى أنه يجلس إليها ، يطمئن إلى وجودها بالقرب منه . يتأمل تعبيراتها وهى تقوم ، وتقعد ، وتخرج ، وتأتى ، وتتكلم . يفاجئها باحتضان أصابعه لأصابعها . تجتذب يدها ، ثم تتركها له . يرفعها إلى فمه ، ويقبّلها ..

كان يسرح فى تهويمات لا نهاية لها ، متداخلة ، متشابكة . يمتزج وضوحها وغموضها وبساطتها وغرابتها : يتمددان على رمال الأنفوشى ، يتمشيان على الكورنيش ، يختبئان تحت ظل شجرة فى حديقة رأس التين ، يركبان بلانس يبحر بهما إلى مدن بعيدة ، تروى له عن الحياة فى الحلقة ، ويروى لها عن الحياة فى قهوة كشك . عيناه فى

عينيها ، ينظر إليها ، وتنظر إليه . أنفاسهما تختلط .. بدت له ملامستها ، يدها أو شعرها أو فستانها ، حلماً يتوق لتحقيقه . لا يكلمها ولا تكلمه . لا يطيل الوقوف أمامها . تكفيه الملامسة ، ثم الابتعاد ..

مالت معظم مشاويره إلى الوسعاية ، يبحث عن الوجه الذى لا يخطئه بين البنات الواقفات حول الحنفية . يفرح لرؤيتها . تبطئ خطواته ، أو يتظاهر بحاجته إلى الشرب ليقترب . يكتم الخيبة فى نفسه إن لم يرها ، ويمضى بالأمل فى أن يراها عند العودة ..

فوجئ بسيرتها على قهوة كشك ..

قال بيومى جلال إنه شاهدها مع شاب غريب فى لسان السلسلة .. كانت أصابع أيديهما متداخلة ، وكانا يضحكان ..

قهره الألم ..

لم يكن فى بال بيومى جلال فشل زواجه من مهجة ، ولا أن المسألة تهمه أصلاً ..

لم يتدبر السؤال ، أو أنه فوجئ به :

ـــ هل تعرفها ؟

قال بيومى جلال :

ــ طبعا .. مهجة بنت المعلم عباس الخوالقة ..

استطرد فى تنبه :

ــ لا شأن لك بها منذ زواجها من أبو شنب ..

شعر بسخونة أذنيه لسماع اسمها :

ــ أنت تحكم على سلوكها ..

أطرق برأسه :

ــ حكيت ما شاهدته ..

تكررت السيرة ، وهو يصيخ السمع لهمس ــ داخل القهوة ــ بين مصطفى حجازى ومؤمن الدشناوى ، وهو يتابع مباراة الكرة فى ساحة السيالة ، وهو يفاصل على شروة سمك فى شارع الميدان ، وهو يقرأ الفاتحة لسيدى خضر ..

لم تعد مهجة التى يعرفها ..

رآها تخرج مع بنات فى العصارى إلى ما بعد أبو العباس ، ترقص فى حفل ختان ، تحمل صينية البطاطس إلى حلقة السمك ، ورآها فى ظل المراكب بالقزق ، وتثرثر مع البنات ، وتداعب ، وتضحك أمام حنفية الماء . وثمة بنات وعجائز أخذن جانباً ، يملأن الصفائح ، ويغسلن

الملابس والحلل والأطباق والأكواب والصوانى . يدعكن ويعصرن ويشطفن ، ويتبادلن الحكايات والنكات والتعليقات التى لاتنتهى ..

مال إلى الحنفية ، يتظاهر بالرغبة فى غسل رائحة الزفر من جسمه . الحوض الصغير من الطوب المكسو بالأسمنت . يمتلئ ، فتصبح الأرض حوله بركة آسنة ..

عاودتها مشاعر التحدى ..

هل يكلمها ؟ هل يؤذيها ؟ ولماذا ؟.. كلمات طه مسعود ليست قرار الموت . لماذا لم يرفض ؟ لماذا لم يصرّ على زواجهما ؟..

أبعدت يده وهى تضحك :

ــ غسل اليدين مع شخص آخر فى نفس الحنفية ، شؤم ..

أضافت للدهشة فى وجهه :

ــ إذا غسلت يدك مع آخر لابد أن تتعاركا قبل أن يحل المساء ..

قالت أشجان بنت خميس شعبان :

ــ فإذا حدث الاغتسال فى الليل ؟..

قالت مهجة :

ــ أتكلم بجد ..

أردفت كالمتذكرة :

ــ وأنا أقف فوق سطح بيتنا أمس .. حامت حمامة مرتين من حولى ..

وغمزت بعينها :

ــ هذا يعنى أن من يحبنى لم ينس حبه ..

داخلته فرحة . أدرك أنه هو المقصود ، وإن ظل على صمته ..

دفعت يد الطلمبة ، فاندفع الماء فى دفعات متوالية ، حتى امتلأت الصفيحة ..

فاجأته بالقول :

ــ يدك معى لأضع الصفيحة فوق رأسى ..

تلفت ــ بعفوية ــ حوله . لم يتصور أنها تكلمه . فلماذا صدّته حين التقى بها فى شوارع بحرى ؟..

قال بلهفة :

ــ أحملها عنك ..

هزت أصابعها فى تظاهر بالخوف :

ــ تذهب بها إلى بيتنا .. يراك أبى فيقتلنا ..

تباطأت فى رفع الصفيحة . شلحت طرف فستانها ، ومدت ساقيها تحت الحنفية . دعكت باطن القدمين والكعبين ، وجانب عينيها يتأمل وقفته المتحيرة ، وارتباكه ..

أعادت القول :

ــ يدك معى ..

تقدم ، يرفع معها الصفيحة إلى رأسها . مد يده ، ومدت يدها . حين تلامست اليدان ، شعر بتحرك شىء فى داخله ، ما يشبه الفرحة ، أو النشوة ، أذهلته عن كل ما حوله . عكست ابتسامتها الواسعة سرورها لارتباكه . تخللت بأصابعها أصابعه ، فانتفض . نسى أنها تركت يدها فى يده ، وتكلما ، وقال لها : أحبك ، وقالت له : أحبك ، وتكلما فى خطوات تأثيث البيت ، قبل أن يصدر الإمام أمره القاتل ..

قالت لأشجان وهما تميلان بالصفيحتين فوق رأسيهما داخل السيالة :

ــ اسمعى اليمام .. سبّحوا ربكوا .. جوزوا بنتكوا ..

لم تعد تفارقه فى اليقظة ولا فى النوم . ألح عليه إصرار فى أن ينفرد بها ، يكلمها . يأخذ منها ويعطى .

مجرد جمل قصيرة ، يوجهها إليها هى بالذات ، وتوجهها إليه هو بالذات . لا يبوح ، ولا ينطق عيباً . يقول كلمات عادية مما يتبادله الناس فى لقاءاتهم : الصحة والجو والوقت وغيرها مما يفد عفو الخاطر . ربما فتحت له قلبها ، وفتح لها قلبه ، ووصلا البدايات بما انتهى إليه حالهما ..

لمحها فى انحناءة الطريق إلى الموازينى ..

حياها بهزة من رأسه . واجهته بنظرة باسمة ، ثابتة ، وواصلت طريقها . خمّن أنها سترد على تحيته لو ألقاها ، وتجيب على أسئلته . تطمئن اليه ، وتروى له عن حياتها بعد الطلاق ..

لبد لها فى عتمة شارع حداية المتفرع من السيالة . توقع أن تميل إلى الشارع ، فيجتذبها . يدفعها إلى سماعه أو .. ماذا ؟ .. لايدرى ! . المهم أن يجدها أمامه ، فى النور أو الظلمة ، يحدثها عما يعانيه ، ويتعرف إلى ما تنوى عمله ..

غالب نفسه مرات . خشى أن توبخه ، أو تلم عليه الناس ..

دبر فى ذهنه الكلمات . بدل ، وأخر ، وحذف ، وأضاف . وحين رآها ــ ذلك الصباح ــ تصعد الدحديرة ،

بيدها كيس لم يتبين ما بداخله ، نسى كل ما أعده من كلمات . لفحته سخونة وجهه ، وهم بالعودة . لمح وميض ابتسامة وهو يتظاهر بتأمل جدران الجامع . استجمع الكلمات من أغوار بعيدة :

ــ مهجة .. أقول لك كلمة ..

أدرك أنه يجب أن يقول شيئاً ، أى شئ . مجرد أن يتكلم ، وتنصت . يأخذ منها ويعطى . ينكسر حاجز الارتباك والصمت ..

كانت قد أولته ردفها ، ومضت فى اتجاه الموازينى ..

لحقها فى ناصية شارع حداية ..

صدته بنظرة عابسة ، وأسرعت فى خطواتها ..

لاحظت أنه يقترب باتساع خطواته . همت بالتوقف ومواجهته ، لكن أضواء ميدان المساجد ، القريبة ، دفعتها إلى الإسراع فى مشيتها ، حتى خرجت إلى الميدان ..

همس فى هدوء القيلولة أمام مدرسة البوصيرى الأولية :

ــ أريد أن أكلمك ..

وهى تبدى الضيق :

ــ عيب ياهشام ..

انبثق فى صدره أمل :

ــ العيب لو أنى أعاكسك ..

فاجأه عباس الخوالقة ــ عصر اليوم التالى ــ بوقفته الغاضبة على باب القهوة . انتزعه ــ بصوته الزاعق ــ من انشغاله فى قراءة كتاب :

ــ ماذا تريد من مهجة ؟..

فطن إلى أنها روت له . غمغم :

ــ أنا ؟..

رماه الخوالقة بنظرة ساخطة :

ــ تلاحقها أكثر من ظلها ..

واتته جرأة :

ــ كانت ستصبح زوجتى لولا الفرية الكاذبة ..

ظل الخوالقة على صوته الزاعق وهو يتجه إلى الطريق :

ــ هذا كلام لا معنى له .. لا تفسد العلاقة بينى وبين والدك !..

لاحظ ترددها ــ عصر كل يوم ــ على مساكن خفر السواحل . ظل على مراقبتها ، فعرف أنها لم تكن تذهب ــ كما ادعت ــ للمذاكرة ..

طال ترقبه لها بجانب دكان الحاج محمد صبرة . كأنه ينتظر مريضاً بالداخل . نظرته ثابتة نحو حنفية الماء . يبدّل رجلاً برجل . يعانى الحرج فى سؤال معارفه : من تنتظر ؟.. يهمهم بكلمات مدغمة ، ويحول عينيه . يلمحها ، فتتبعها نظراته وهى تميل من شارع أبى السعادات إلى الكورنيش . تمضى ناحية سينما الأنفوشى ، ومنها إلى الساحة الترابية المفضية لمساكن السواحل ..

فاجأها بوقفته على الأرض الردم بجوار سينما الأنفوشى . قاست ــ بعينيها ــ المسافة بينها وبينه ..

إعترض طريقها ..

أول مرة ــ من زمن ــ يقترب منها إلى هذا الحد . توقفت . اختارت بين مواصلة سيرها ، أو العودة . تحرك نحوها ببطء ، فتراجعت متوجسة . هل يؤذيها ؟.. اقترب منها . دفعت يده ، وتراجعت إلى الوراء .

تقافزت الكلمات على شفتيه ، وإن لم ينطقها : أين تذهبين يا مهجة ؟.. أنا أعرف كل شئ عنك .. وأعرف الشاب الذى تصادقينه ، والبيت الذى تذهبين إليه فيه .. أنا أعرف كل شئ .. كل شئ ..

صرخت بتلقائية . صرخات عالية متوالية . جرى نحوها العشرات من داخل السينما ، ومن قهوة بركات القريبة ..

واصل تراجعه أمام الاندفاع الغاضب . عانى تعثرات اصطدامه بالصخور والحصى الصغيرة . واصلوا تقدمهم ، وواصل تراجعه بالقفز دون أن يلتفت وراءه . لامس حد الأرض أعلى البحر . تشبثت قدماه ، واهتز جسمه . ارتفع ذراعاه يتقى ما لا قبل له على مقاومته .. ثم انفلتت منه صرخة مذبوحة ، أسكتها صوت ارتطام جسمه بالصخور النائتة ، المتصاعدة من المياه ..

الاتهـــام

تناهى صوت مصطفى حجازى من شارع فرنسا :

ــ الساعة لم تبلغ العاشرة ..

قال حسنين الدمنهورى وهو يعيد فتح الباب ، ثم يغلقه :

ــ من تطيعه نفسه على السهر ؟!..

القهوة على حالها : النصبة والطاولات والكراسى والبطاطين والجدران المتآكلة والضوء الخافت .. لكن الأنفاس الحزينة ملأت المكان ، فغطته تماماً . اختفت الضحكات ، وقلت التعليقات والتعقيبات . حتى الأخبار لم يعودوا يتابعونها ، بعد أن صمت الراديو خلف قعدة المعلم كشك ..

من أخطأ ؟.. ومن يدفع الثمن ؟..

قال هشام :

ـــ طالبتنى بأن أحلق ذقنى .. أنا لن أحلقها إلاّ إذا تزوجت مهجة ..

علا الغضب بصوته :

ـــ نذر يا ابن الكلب ؟!..

ولاحظ المعلم أن عينيه أطالتا النظر إلى الجريدة بين يديه ، لا يقلب صفحاتها :

ـــ اللى واخد عقلك ..

انتزع ابتسامة :

ـــ مصلحة الموانى كلها تحقيقات من باب الجمرك إلى بعد البوغاز ..

قال عباس الخوالقة :

ـــ هل أصدق أنك المسئول عن البحر ؟..

قال هشام :

ـــ طبعا لا .. لكن الإدارة القانونية مهمة ..

أنصت المعلم كشك ـــ بعينى الذهول ـــ لما رواه حسنين الدمنهورى . التقط هشام همسات تبادلها مع مصطفى حجازى ..

جلال هاشم ..

التقط الإسم . تناثرت المعلومات فى سمعه ، وأمام عينيه ، وهو يتابعها من السيالة إلى مساكن السواحل . لمح جلال هاشم وهو يطل من النافذة المواربة ، وراء السور الممتد بواجهة المساكن . حدق فى الجسد الواقف فى تمازج الضوء والظلمة . بدا فى حوالى الثلاثين . طويل القامة . يرتدى بيجاما مكوية ، وإن لم يتثبت من لونها ..

ثابر هشام على السؤال . حتى رأى الرجل ــ ذات صباح ــ يدخل مدرسة قاسم أمين . تأكد مما روى له من أن جلال هاشم مدرس فى قاسم أمين . والده صول فى السواحل . نقلته المصلحة إلى السويس ، فلحقته الأم وأخت صغرى ، لم تتزوج ، وظل جلال ــ بمفرده ــ فى الشقة ..

لماذا تتردد على البيت ؟ وما صورة علاقتهما ؟ هل تحبه ؟ وهل يحبها ؟ وهل يصارح عباس الخوالقة ، أو يحذرها ؟..

لمحته مهجة فى وقفته أمام المدرسة ..

كان ينتظر خروج جلال هاشم ، فلم يبدّل موضعه . حين قلّب ما تخيله من ردود الأفعال ، فطن لسخف ما اعتزمه ، وانصرف ..

هتف المعلم كشك :

ــ لماذا لم ترو لى ذلك من قبل ؟..

ضرب الدمنهورى كفاً بكف :

ــ هل كنا نتصور ما حدث ؟!..

وبهمس مشفق :

ــ كان يحبها ..

زفر الخوالقة فى غضب :

ــ هل يحب امرأة فضلت سواه عليه ؟..

وتهدج صوته :

ــ لو أنى كنت أعرف ، لنصحته بأن يبتعد عن طريقها..

***

قيل إن الشيخ طه مسعود أصيب ــ عندما بلغه ما جرى ــ بأزمة قلبية . أدرك أنه أخطأ إذ لم يتبين النبأ ، قبل أن يصر على فصم خطبة الشاب للفتاة ..

قال المعلم كشك :

ــ لو أننا زوجناهما ..

قال عباس الخوالقة :

ـــ نزوج أخوين فى الرضاعة ؟!..

صرخت أم محمود :

ـــ غير صحيح .. مجرد افتراءات قالها الشيخ جابر زفت ..

اعتبر المعلم كشك نفسه مسئولاً عن موت هشام . لو أنه وافق على عودته إلى مهجة ؟.. لو أنه لم ينصت إلى الشائعات والوقائع الكاذبة ؟.. لو أنه ألح على الخوالقة بأن يكمل الولد والبنت مابدآه ؟ . لم يعن حتى بأن يتأمل الولد وما آلت إليه أحواله . سكت عن توبيخات الأم واتهامها وصراخها فى وجهه . هو المسئول عن كل ما جرى ..

تذكر عباس الخوالقة موت مصطفى . غالب ـــ لأول مرة ـــ دمعاً فى عينيه . يغيب هشام مثلما غاب مصطفى من قبل ..

الموت ؟..

هو حق . لكن الفراق مما يصعب تحمله . من كان بيننا ، تكتفى ذاكرتنا باستعادة أيامه ؟!..

بكت أم محمود فى العزاء كما لم تبك امرأة . استدعت الغالى ، فلا أحد يعرف من تقصد بتعديدها : هشام أم

مصطفى ؟.. لم تعد تعرف ــ منذ وفاة مصطفى ــ إلاّ الصمت ، والحزن ، والعزلة ، ولزوم البيت ..

وشت لهجة عباس الخوالقة بإشفاق :

ــ هل ترتدين السواد طول العمر ؟..

أشاحت بيدها :

ــ أنا ست كبيرة ..

وأجهشت فى البكاء :

ــ هل نسيت مصطفى ؟!

كانت تحدجه بنظرة متأملة : هل يشعر الرجل بفقد ابنه ؟ هل أثرت فيه طبيعته الباردة ، فنسب وفاة مصطفى إلى الماضى ؟..

لم يتزوج عليها ، ولا يذكر أنه هددها بالطلاق ، أو أقدم على أذيتها . حتى لحظات انفعالها كان يقابلها بابتسامة هادئة . هى العمر والعشرة وأم الأبناء . أزمع أن يترك للزمن إقناعها بأن مصطفى ذهب ، ولن يعود ..

***

قال جابر برغوت ــ فى جلسته المستندة إلى مقام سيدى على تمراز :

ـ حلت اللعنة على الولد لأنه أراد الزواج من أخته فى الرضاعة !

هل يظل الناس على انهماكهم فى الإباحة المطلقة ، ورفع الحجاب ، واستباحة المحظورات ، وإنكار الشرائع ؟.. إلى متى يقبلون على عاجل الدنيا ، ويهملون نفيس الآخرة ، ويجنون على أنفسهم بالإضلال والإغواء ؟..

ركن الخلق إلى الغفلة ، وانجروا إلى ما قادهم إليه الهوى ، وأصروا على العصيان ، والزهد فيما هو مأذون لهم بالشرع . اغتروا بطول المهلة . غشى على أبصارهم ، وظلوا فى ضباب الجهل ، واسترسلوا على الهوى ، وأهملوا اعتناق أوامر الله ، والانتهاء عن زواجره ، فحرموا من شهود الحقيقة ، وحرموا من استشراف يوم ، لا يسمع لهم عذر ، ولا تنفع لهم حيلة ، ولا تقبل فيهم شفاعة ، ولا يؤخذ منهم فداء ولا عدل ..

الســـتر والتجلّى

فاجأه بضربة على كتفه . ثم توالت الضربات عنيفة ، قاسية . لا يعطيه وقتاً لردها ..

وقع على الأرض ، فبرك خوفه . كال له بقبضة يده فى رأسه . تمازجت الآهة بانبثاق الدم من مقدمة الرأس ..

التقى به فى بداية الطريق إلى مساكن السواحل :

ــ إلى أين ؟..

قال محمد الراكشى :

ــ الجامع ..

قال مرعى ببيى :

ــ لماذا ؟..

رمقه بنظرة دهشة :

ــ لأصلى ..

فاجأه بضحكة سخرية :

ــ هل تنوى الدروشة كأبيك ؟!..

ارتعشت أهدابه . قبض على جلباب مرعى بيبى من الصدر . صرخ وهو يهزه :

ــ الدرويش أشرف من البلطجى !..

قال له الحاج قنديل :

ــ أريدك أن تعمل معى فى الحلقة ..

قال محمد الراكشى :

ــ بيع السمك مهنة لا أعرفها ..

وهو يربت كتفه :

ــ لن تفعل شيئاً .. أنت بركة من رائحة أبيك ..

ضايقته الكلمات . استفزته . وافق على العمل مساعداً لعم محمد كسبة فى رفو ثقوب الغزل . يظل يومه فىالساحة المقابلة لمساكن السواحل . رفض الحياة بلا عمل . فى باله ماقاله حنفى قابيل : من معه نقود ، فهو أبو احمد ، فتوة .. من يفرض إتاوات ، فهو بلطجى !..

شاطه مرعى بيبى بركلة فى بطنه . صرخ من الألم ، وتقوس جسمه ، وتعثر فى وقفته . لحقه بيبى بركلة ، فسقط . توالت الركلات ، فتحملها . احتضن الساق المندفعة . تراجع الرجل بأعلى جسمه ، وحاول أن يجتذب الساق

المقيدة ، لكن محمد الراكشى وضع فيها كل قوته ، فلم يفلتها . علا الرجل بالساق الأخرى ، فسقط على ظهره . ارتمى محمد فوقه . كال له الضربات فى رأسه ووجهه ، وخمش ظهره .

[قال له حنفى قابيل : إذا لم يعتد عليك أحد ، فلا داعى لإظهار قوتك . وقال : لا تعتد على أحد إلاّ إذا اعتدى عليك . من يحترف أذية الناس ، بلطجى وليس أبو احمد . ليس فتوة . وقال : لا تظهر قوتك إلاّ لمن يستهين بها .. لمن يستهين بك . انزع ثوب التواضع والبساطة والملاينة ، وواجهه . قف على نقطة الصفر ، واستعد لخوض المعركة . إذا خضتها ، فإلى النهاية]

تملص مرعى بيبى من تحته . داسه فى صدره ـــ وهو يتهيأ للوقوف ـــ بضربة من كعب الحذاء . تحامل محمد الراكشى على نفسه . طوح قبضته فى وجه مرعى ، فتطاير الدم من الأنف ..

مسح مرعى أنفه بظهر يده ، ونزع البنش عن كتفيه . طوح به ، واقترب بقبضة مكورة ، وعينين تومضان بالشرر ..

[قال حنفى قابيل : إذا أصبت ، فلا تظهر تأثرك ، حتى لو ساح الدم على جسمك ، واصل الضرب . إكتم ألمك ، وتماسك ، وخض معركتك إلى نهايتها . لا تظهر التخاذل ، ولا الخوف]

لحق مرعى بيبى بلكمة ثانية . تعثر فى نفسه ، وسقط . حاول النهوض ، فعاجله محمد الراكشى بركلة فى بطنه ، تطوح من قوتها على ظهره ..

فز مرعى بيبى . اندفع ناحية الشارع بكل سرعته . مد محمد ساقه فى طريقه . تعثر . انقض عليه محمد ، وجذب ذراعه خلف ظهره . ضغط ، وضغط ، وضغط . أطلق مرعى بيبى صرخة ، ونتر جسمه .. اختلطت الصفعات والركلات وقبضات الأيدى والشتائم والصرخات والصيحات . امتلكه محمد من الخلف . أدخل ذراعيه بين ساعدى مرعى بيبى ، وضغط . مال بأعلى صدره ، فتأوه مرعى لألم رقبته . واصل محمد الضغط ، وتأوهات مرعى تعلو . ثم أخلى ساعديه ، فسقط الرجل من طوله ..

قام مرعى بيبى بجانب كتفه . ثم استل من جراب فى ساقه ، مطواة ملتمعة ، قذفها واستعادها . تراجع وتقدم .

تحرك إلى اليمين وإلى اليسار . قرب المطواة بين عيني محمد ، وقال :

ــ نهايتك !..

تمنى لو أنه كان يحمل مطواة ..

[قال له حنفى قابيل : إذا أفلحت فى استخدام المطواة ، أخرجها من جيبك فى الوقت المناسب . وافتحها بلا ارتباك . صوبها فى موضع يصيب ولا يقتل . تصبح ــ بعون الله ــ أبو احمد ، لا يقدر على هزيمتك أحد]

طال طرف المطواة وجنته ، فأدماها . أحس بسخونة تنبثق من أنفه . تحسسها بأصابعه . أخافته رؤية الدم ..

[قال له حنفى قابيل : احرص على رأسك وعنقك وصدرك وبطنك . إذا نال الساعد طعنة خنجر ، فما أيسر أن يلتئم الجرح بالخياطة . أما إذا نالت بقية الجسم ، فإنك لن تضمن حياتك]

عاد إلى الوراء . أطار المطواة بساعده . اصطدمت بالأرض الحجرية ، وانتثرت إلى بعيد . لحق مرعى بيبى بقدمه ، وهو يحاول الجرى . تخلخلت ركبتاه ، وسقط من طوله . ارتمى على تكوره ، وهوى عليه بلكمات سريعة ..

[قال له حنفى قابيل : لا تمل المحاولة .. فالمسمار لن يخترق الحائط من أول ضربة !]

لمح أصابع الرجل تتحسسان الأرض ، بحثاً عن السكين . أطبق بيدين كلابتين على جانبى فمه . فشخه بما وسعه . غاب صراخ الرجل بالألم ، وإن توالى ضربه للأرض بقدميه فى توال ..

[قال له حنفى قابيل : حاول أن تصيبه بجرح . احرص ، فلا يكون الجرح نافذاً . مجرد أن يتحسس الدم فى وجهه وذراعه .. يقتله الخوف ، ويجرى]

رفع مرعى بيبى قطعة خشب ملقاة على الأرض الجيرية . هوى بها عليه . تفاداها محمد بإمالة رأسه ، ثم دفع رأسه فى بطن الرجل ..

انتهيا إلى الكومة الحجرية المطلة على أول الأنفوشى . تعثرا فى عدم استوائها . تماسكا ليحمى كل منهما نفسه من السقوط . فز مرعى بيبى ووقف . لحق محمد بساقه ، فأمسكها . تشنجت عليها أصابعه . دفعه مرعى بيبى فى جنبه ، حتى يخلى ساقه ، وسار خطوات متعثرة . ظل محمد

ممسكاً بساقه ، وظل مرعى يواصل الضرب بالقدم الأخرى ..

[قال له حنفى قابيل : إذا قطعت يدك اليمنى فى معركة ، فإن عليك أن تقاتل باليد اليسرى .. وإذا شق خنجر بطنك ، فإن عليك أن تعيد أمعاءك إلى جوفك ، وتواصل العراك حتى النهاية .. هذه هى أخلاق الفتونة !..]

قوس محمد جسمه . أمسك بموضع القدرة فى مرعى بيبى . ضغط بآخر قوته . أهمل صراخ مرعى واختلاجاته المرعبة ، حتى غلب البياض عينيه ، وسقط من طوله ..

تهيأ محمد الراكشى فوق رأسه لمواصلة العراك ..

تحامل مرعى بيبى على نفسه ، وابتعد يتقافز على يديه وقدميه ..

[قال له حنفى قابيل : إذا لاذ خصمك بالفرار ، فاتركه .. لاتجر وراءه .. ولا تدفعه إلى العودة للعراك .. فقد انتصرت .. والكل عرف بفراره ، وانتصارك]

بقايا حلــــــــــم

أمواج البحر تتشابك زرقتها فى نهاية الأفق بزرقة السماء . لاشىء حوله إلا الماء . وفى مرمى البصر ، البيوت العالية تطل على الكورنيش ، تنتهى ــ من ناحية ــ إلى السلسلة ، ومن ناحية إلى قلعة قايتباى ..

حين دخل المعلم أبو الحسن هنو قهوة البحر ، كان مختار زعبلّة قد استقر وراء البنك ، وياقوت ينثر على الأرض نشارة الخشب ..

عرفه مختار ..

غالب البياض سواد الرأس ، وتخللت الوجه خطوط وتجاعيد ، وضاقت العينان .. لكن ملامح الوجه لم تتبدل . حتى القامة النحيلة لم يطرأ عليها امتلاء ، وإن استبدل بالجلباب قميصاً ، وبنطلوناً ، ووضع على رأسه ــ مستغنياً عن الطربوش ــ قبعة من الخوص ..

قال :

ــ تعرفنى ؟

قال مختار زعبلّة بصوت مهلل :

ــ طبعا .. معلم الجميع الحاج أبو الحسن ..

هجر بحرى . ترك تصريف أعماله لموظفيه وصبيانه . لايزور المنطقة إلاّ لأمر مهم : مشكلة يعجز الموظفون عن حلها ، أو مجاملة عقد قران ، أو عزاء ..

وهو يهز رأسه :

ــ هذا ييسر مهمتى ..

ثم اعتدل فى مواجهته :

ــ عرفت أنك ستوقّع فى الصباح عقداً بشراء بلانس ..

هز رأسه :

ــ صحيح ..

قال أبو الحسن :

ــ مبارك !..

واعتمد على الطاولة بكوعيه ، واتجه إليه بنظرة متسائلة :

ــ هل تنوى أن تصبح معلماً ؟.. شيخاً للصيادين ؟..

انتزع مختار ابتسامة هادئة :

ــ أبداً .. أشتريه لأركبه بنفسى ..

ظل ركوب البحر أمله الذى لم يفارق خياله . يمضى إلى آفاق الأمواج من كل الجوانب ، وأضواء الفنارات ، والبوغازات ، والمدن البعيدة . اختلطت الذكريات ــ لطول غيابه عن البحر ــ وتشوشت ، وذوت . لم يعلق فى ذاكرته إلاّ صور كالومضات ، لا يعرف أين : زقاق خلفى يلتف بالظلمة ، شارع عريض ، الأضواء على جانبيه ملونة ومبهرة . قارب صغير ينقله إلى مرساة خشبية ، فندق صغير يشغى ببحارة يتكلمون بلغات لا يفهمها . حلقات دخان تتصاعد فى دوائر ، تصطدم بسقف حجرة ، تتسع ، فتمتلئ الحجرة بما يشبه الضباب الشفيف . ضوء فنار يمسح السماء . بلدوزر هائل ، تتدلى منه حبال معدنية ملفوفة ، تنتهى بكلاّبة . ميدان يمشى الحمام فى ساحته ، ويطير ، أبواب مغلقة ، تتناهى من ورائها أصوات واضحة ، وغامضة . جثة متفسخة ، تطفو فى قلب البحر . الرعد يبرق خارج الكوة المستديرة ، وقطرات المطر تصطفق بالزجاج ..

عرف أن تحقيق حلمه بيده . لن يركب البحر إلا بالبلانس الذى يملكه . وضع القرش على القرش ، يشترى ــ ويبيع ــ ما يحمله بحارة البواخر الأجنبية من المعلبات

والسكر والدقيق والزبد والحلوى ، ويشترى من البحارة صوراً عارية ، يبيعها بأضعاف ما يدفعه ، ويفوّت بيع الصنف على القهوة لقاء عمولة ، ويغلق القهوة ــ فى بعض الليالى ــ على لاعبى القمار ..

قال المعلم أبو الحسن :

ــ عرفت أن ظهرك يؤلمك ..

قال مختار :

ــ سأباشر لقمة عيشى .. لا أقود البلانس ، ولا أصطاد ..

وواجه الرجل بعينين متأثرتين :

ــ إن لفظ البحر سمكة .. ماذا يجرى لها ؟..

وهو يهز رأسه :

ــ تموت ..

قال مختار :

ــ هذا أنا .. إذا ابتعدت عن البحر أموت !

رسم الرجل على شفتيه ابتسامة ود :

ــ ما دمت تريد ركوب البحر .. فأنا أرحب بك ضيفاً على أى بلانس لى ..

ـــ لا أريد الفسحة ..

ثم وهو يحدجه بنظرة جانبية :

ـــ بصراحة .. أحب رزق البحر ..

وبنبرة ملونة :

ـــ كله حلال ..

قال أبو الحسن :

ـــ مشيخة الصيادين لا تهمنى ..

واستعاد نبرة الود :

ـــ أنا أعتبر نفسى مجرد صياد .. مثلكم تماماً ..

وهو يعبر بيديه :

ـــ مضى زمن الشراع .. نحن الآن فى زمن البلانسات ذات الموتور ..

شحب الود فى صوت أبو الحسن :

ـــ لكننا ورثنا من آبائنا نظاماً لا نستطيع أن نبدله .. لابد من معلمين وصيادين وسماكين ..

وتلكأت الكلمات على شفتيه :

ـــ هذه هى أصول المهنة من أجيال ..

لم يتصور أنه يستغنى عن البلانس . ركّب فيه موتور ، وترك الأشرعة فى أماكنها . وكانت قد ظهرت فى مياه الأنفوشى سفن كبيرة بشراعين ، وبلانسات ضخمة برفاص ..

غالب مختار ارتباكه :

ـــ على العين والرأس .. لكننى أريد أن أكون حر نفسى ..

قال الرجل فى صوت أملس :

ـــ وما يمنعك ؟

ونزع القبعة ، وهرش رأسه بطرف أصبعه :

ـــ هل وجدت من اقتنع بالعمل معك ؟

قال مختار بلهجة مؤدبة ، حاسمة :

ـــ ربنا يوفق !..

فكر فى منصور لموتور البلانس ، يعطيه مرتباً أول كل شهر ، فلا تتبادله البلانسات . عرض على محمد الراكشى أن يعمل معه ، التماساً لبركة أبيه . اعتذر محمد بغضب أمين عزب لو أنه ترك العمل فى الدائرة الجمركية . التقى به فى اليوم الثالث لمعركته مع مرعى بيبى ..

ـــ ماذا حدث بينك وبين مرعى بيبى ؟

قال محمد الراكشى :

ـــ حاول أن يعتدى علىّ .. فدافعت عن نفسى ..

نطقت عينا الرجل بالألم :

ـــ كان أبوك رجلاً طيباً .. ماذا تريد أن تكون ؟..

اتجهت نظرته إلى الأرض :

ـــ أبى لم يخلّف لنا أى شئ .. وعلىّ أن أنفق على أخوتى ..

رفع حاجبيه فى دهشة :

ـــ ليس بالفتونة يا محمد ..

همس بالتهيب :

ـــ أذكر أنك طردت الرجل الغريب من قهوة الزردونى ، عندما حاول فرض البلطجة ..

أهمل الملاحظة :

ـــ ما شهادتك ؟

ـــ خرجت من الأولى الثانوية ..

وهو يمضى ناحية المسافرخانة :

ـــ ربما استطعت تدبير عمل لك فى الميناء ..

توسّط له فى وظيفة كتابية بمخازن الدائرة الجمركية . ابتعد عن البلانسات والصيد ، وإن ظل يتردد على الحلقة ، ويتنقل بين قهاوى مخيمخ والزواوى والبحر . ينصت إلى أحاديث الرجال عن ولاية أبيه ، فلا يناقشها ..

قفز السلالم ليقضى على تردده ..

لم يخف ثروت دهشته :

ــ مختار ..

ملأت البسمة وجهه :

ــ خاصمتنى بلا سبب .. قلت أصالحك ..

وهو يسبقه إلى الداخل :

ــ لا خصام .. لكننى مشغول فى تجارة تأخذ كل وقتى ..

استأذن ، ودخل المطبخ ..

طافت نظرته بالصالة الواسعة ، الساكنة ، تحيط بها حجرتان تطلان على زقاق العماوى ، وطرقة تفضى إلى المطبخ والحمام . الكنبة الاستامبولى الملاصقة للحائط فى موضعها . تتقاسم عيناه قراءة رسائل المدن البعيدة ، ورؤية قميص النوم الذى تهدّلت حمالته ، فظهر الجيد العارى ،

وتعرى الفخذ فى تربيعة الساقين . اطمئنانها إلى نوم سحر فى الحجرة المغلقة ..

وهو يرفع كوب الشاى إلى فمه :

ــ أريد أن تعود إلى البحر ..

هتف ثروت :

ــ من ؟.. أنا ؟!..

قال مختار :

ــ اشتريت بلانس تمنع ظروفى أن أكون ريّساً له ..

أدار نحوه ملامح مندهشة :

ــ أنا لا أفهم فى البلانسات .. طول عمرى فى المراكب الكبيرة ..

رمقه بنظرة معاتبة :

ــ نسيت أنى ركبت البحر معك ؟!..

لم يعد بوسعه ركوب البحر فى السفن الضخمة ، ولا التطلع إلى البلاد البعيدة ، لكن البلانس ينزل به البحر . يظل فى حضنه أياماً كأنها العمر . البواخر الضخمة لنقل الناس والبضائع والسفر إلى مدن لا يعرف أسماءها . وفى البواخر أوامر وشخط ونطر وصداقات يحبها ، أو لا يريدها .

البلانس للصيد والسفر الى السواحل القريبة . لكن ركوبه البحر هو الهدف . الحياة داخل الأمواج والآفاق المحيطة ، المترامية . هو المسيطر على الدفة والقلوع والشراع والتموين والصيادين . كلمته لا ترد ، ولا يشغله الفصل لإصابته ..

تدار الماكينة ، وتبسط الأشرعة ، فتمتلئ بالهواء . يمسك الدّفة بيده . ينطلق البلانس إلى داخل البحر . لن يرسو على الموانى البعيدة ، لكنه سينقله إلى حياة البحر ، إلى المياه المحيطة من كل الجوانب ، والأفق الذى بلا نهاية ، والشمس والرياح والنوات والتوقع ..

ـــ البلانس للصيد .. ولا أعرف الفرق بين البورى والمياس ..

وأردف بنظرة قاطعة :

ـــ عندما أتخذ قراراً لا أرجع عنه .. قرارى منذ أعوام هو البعد عن البحر ..

هل اتخذ قراره بقتل يسرية ، فلم يرجع عنه ؟!..

كان يطيل تأمل البواخر العملاقة الراسية على رصيف باب نمرة ستة . يهمس لنفسه بالسؤال : هل يركب ذات يوم

ـــ واحدة من هذه البواخر الضخمة ، تمضى به إلى بلاد الله خلق الله ، يرى ما لم يره من المدن والبشر ؟..

قرر أن يكل أمر البلانس إلى قاسم الغريانى . لم يكن يخفى إعجابه بقدرته على طى الشراع ، ونشره ، يتحكم فيه حين تهب ريح مفاجئة . يجيد طيه فى عز النوة . يتسلق الجراندى ، أكبر صوارى البلانس ، فى خفّة ، يستخدم يديه ، والريح تلطمه . يقيّده فى القلع ، ويلف الحبل حوله . يعرف كل أنواع الصيد : شباك الجر ، الجرافة الساحلية ، حبل السنار ، غزل السردين ، والمياس ، والبوص ، والبورى ، شباك الطرح . يجيد التصرف فى التيارات المائية العنيفة والرياح المفاجئة والدوامات . قاسم صياد ، وصديقه ، وهو يثق به . لمّح بالعرض ..

قال الغريانى :

ـــ ألا تخاف الوحش ؟

جاشت مشاعره :

ـــ أنت قتلته ؟..

وهز قبضته فى تأكيد :

ـــ الجميع يعرفون هذا ..

هز الغرياني رأسه :

ــ ما عدا المعلمين .. يرفضون التعامل معي ..

قال مختار في جيشان مشاعره :

ــ لكن الجد السخاوي أيد كلامك ..

ولكزه في جنبه :

ــ سأسمي البلانس قاسم .. وتكون أنت رئيسه ..

واجه الوحش بمفرده ، وقتله . هو وحده الذي أقدم على الفعل . لم ير أحد ما حدث ، فتهامسوا بعدم التصديق ..

قال عباس الخوالقة :

ــ لعله استعان بالجنّية التي يزعم أنه يواخيها ..

قال حمودة هلول :

ــ لكنه أصيب في وجهه وصدره .. وتحطم لنش حمادة بك ..

وهو يشيح بمبسم النرجيلة :

ــ لأنه لا يحسن قيادة اللنش ، فقد اخترع مسألة قتله للوحش !..

قال الغرياني :

ــ هل البلانس لمعلم في الحلقة ..

قال مختار :

ــ لا معلم ولا دياولو .. لن يسألك صاحب البلانس إلاّ عن الإيراد ..

ولانت ملامح وجهه :

ــ ربما طلع البحر معكم فى بعض الرحلات ..

ثم قال فى ابتسامة كبيرة :

ــ بصراحة .. أريد أن أشترى بلانس ..

وفى نبرة واثقة :

ــ عرفت أنى أستطيع سداد ثمنه فى ظرف عامين ..

ضرب قاسم الأرض بقدمه :

ــ ولماذا الغلب ؟.. ورش المراكب تصنع لك البلانس الذى تريده بسعر أقل ..

ذهب إلى " القزق " . طلب من الأسطى أبو المكارم النجار أن يصنع له بلانس جديداً بموتور . يعلو صاريه صوارى سفن الأنفوشى كلها ..

راقب العمود الرئيسى والأضلاع ، ثم التكسية بالألواح . الخشب مصقول ، والأبواب لامعة ، والمقابض النحاسية تضوى ببريق ، والغزل لم يلامس الماء ، وعين الحسود

مرسومة على جانبى البلانس ، والكلمات ضد الحاسدين مكتوبة بخط الثلث ..

هلل الأسطى أبو المكارم ذات صباح :

ــ بسم الله مجريها ومرساها ..

قرر أن ينفذ نصيحة الجد السخاوى . لا يأذن للنساء بالسير فوق البلانس قبل أن ينزل البحر . ربما كانت المرأة عاقراً ، فهى ــ إن قفزت فوق قاعدة البلانس الجديد ــ لابد أن تنجب طفلاً ، ولأن الله عادل ، فهو لابد أن يأخذ روحاً ، بدلاً من الروح الجديدة . يحل الموت قبل أن يهبط البلانس الماء ، أو وهو يقطع رحلته الأولى . حفظ من الجد السخاوى عبارة " البر جل جلاله " . ظل يكررها ــ كل فترة ــ سبع مرات ، فيتحقق له الأمان ، فى البر والبحر ..

يزدان البلانس بالرايات ، وقطع القماش الملونة . تدق الطبول ، وتتعالى الزغاريد ، وصيحات الأولاد . تجرى يد شبيرو الجزار بسكين على عنق عجل . ينبثق الدم . يغمس فيه يده ، ويخمّس على جوانب البلانس وهو يواصل انزلاقه داخل البحر . يقف على المقدمة . يواجه البحر فى نزول

البلانس إليه للمرة الأولى ، أو يتحامل على نفسه ، ويدير الدفة بنفسه ، يوجهها صوب الدنيا التى يحلم بالعودة إليها ..

تلفت حوله ، يتأمل السحب البيضاء ، المتناثرة ، والأسماك الصغيرة تتقافز على السطح الهادئ ، وتناثر ــ فى المدى ــ بلانسات وصوارى وأشرعة ، ومد الموج يلامس المكعبات الأسمنتية ، أسفل الكورنيش الحجرى ..

ضم قبضته ، وهزّهما . خبط الأرض بقدميه . علا صوته بكلمات لم يفهمها هو نفسه . غنّى :

واالله ان نصفنى زمانى لاشترى جارب

واملاه صــبايا واعمــل مجدّمه عايــج

واحرّش الموج من بحرى يجى هايــج

وايش يعمل المــوج للى مجدّمــه عايج

تعالى الانفجار . اخترق سكون الشاطئ الخالى . تناثرت قطع الأخشاب المشتعلة على المياه ، وعلى الشاطئ . سقطت كرة لهب على شادر البطيخ ، الملاصق للمحكمة الوطنية ، فاشتعلت فيه النيران . تدافعت الأمواج ــ فى تلاحق ــ نحو الشاطئ ، ساحبة معها بقايا البلانس المحطم..

ملامح ضائعـــة

الصياد يبتعد عن المنطقة التى تخلو من السمك ، والأرض المالحة يهجرها الفلاح . اعتادت سماع كلمات لم تكن تعرفها ، ولا سمعتها من قبل .. فهى امرأة متعوقة ، وهى عندها السقط . الجنين لا يستقر فى أحشائها ، وينزل قبل موعده ، وهى مصارينها ناشفة ، وهى امرأة جلد ، وهى مذكرة ، وهى كالبيت الوقف ، كالأرض البور ، كالنخلة الذكر ، كالشجرة التى بلا ثمار ، كالشيخ المقطوع نذره !..

أعادت السؤال ، حتى ملّه أطباء مستشفى الملكة نازلى . حتى الحكيمات والممرضات وجهت إليهن سؤالها القلق : لماذا يسقط الحمل فى كل مرة ؟.. لماذا لا يستمر ؟..

اعتادت دلائل الحمل : انقطاع الدورة الشهرية ، تضخم الأنف والشفتين والصدر ، الميل إلى أكل ما لم تتصور أنها

تأكله . تعرفت حتى إلى تخلّق الجنين ، منذ يبذر فيها سيد نطفته . الأشكال التى يتحول إليها ، فيسقط قبل أن يكتمل ..

ألفت المستشفى ذا الطابقين ، المطل ــ من واجهته ــ على الميناء الشرقية ، وينفتح بابه ــ من الجانب الأيسر ــ على الحديقة المستديرة ، ويطل ــ من خلفه ــ على سيدى البوصيرى . يفضى الباب الحديدى الواسع إلى حجرة الاستقبال ومكاتب الموظفين . الطرقة الطويلة تنتهى بالسلم . تتسلم البطاقة الزرقاء الصغيرة . تصعد إلى العنابر . صفت الأسرّة على جانبيها ، واختلطت التأوهات والنداءات وصراخ الأطفال ومعاطف الممرضات ورائحة الأدوية والبرمنجنات والصابون والقىء والجدران المتسخة بالنشع والصديد وبقع الدم . تضايقها نظرات الحكيمات والممرضات . تظهر التعرف والألفة . تقول ــ حين تقع عليها داخل المستشفى ــ : هذا أنت ..

قال الطبيب :

ــ حالتك نادرة .. توجد أجسام مضادة فى الدم تقلل مناعة الجسم ..

أضاف لنظرتها المتسائلة :

ــ لكل جسم مناعة .. قوة .. ومناعتك ضعيفة ..

ضربت على صدرها :

ــ أنا آكل جيداً ..

ــ هذه مسألة لا شأن لها بالطعام ..

ومد يده إلى مكتبه . خطّ على الدفتر الصغير أمامه ، كلمات . فصل الورقة عن الدفتر ، ودفعها إليها :

ــ هذه الأدوية ، ستحقق لك المناعة ..

* * *

لما أخبرها الطبيب أنها خالية من موانع الإنجاب ، هتفت :

ــ أنا أحمل .. لكن الجنين يسقط ..

مط شفتيه :

ــ ربما العيب فى زوجك ..

قالت بلهفة :

ــ دعك من زوجى .. ماذا أفعل لأحتفظ بالحمل ؟!..

* * *

قال الطبيب :

ــ هل أصيب زوجك بالزهرى ، أو بأى مرض جنسى؟..

أطرقت إلى الأرض :

ــ لم يكلمنى فى ذلك ..

ــ إسأليه .. لعل هذا هو السبب ..

هزت رأسها بالموافقة ، وإن غاب عن بالها التصور أنها تسأل سيد ما إذا كان قد أصيب بمرض جنسى . لن يفوّت السؤال . ربما لمّز إلى أن المرض أشد احتمالاً فيها ..

***

فاجأها الطبيب :

ــ لو أنك كنت تزوجت من غير زوجك ، وتزوج زوجك امرأة أخرى .. ربما أنجب كل منكما ..

سيد !..

النساء بالزوفة . يستطيع أن يقترن بمن يشاء . الماضى الملتصق بلحمها ، يقذف بزواجها من سواه خارج دائرة التوقع ..

هل تظهر ــ فى حياته ــ من تعده بما لم تحققه . توغر صدره عليها . تلزم البيت ، ويتركه إلى الكشك ، وإلى

جلسات القهاوى ، وعلى شاطئ البحر ، والشوارع ، وما يغيب عنها تصوره . يصعب عليها تصور يومه ، منذ تركه للبيت حتى العودة ..

***

استأذنت سيد ..

حضرت حفل زار فى بيت بقبو الملاح ، صحبتها إليه الكودية نظلة . تطوحت فى مكانها ، ورددت ما استطاعت تقليده من الأصوات الصارخة . لم تقف ، ولا أقدمت على حركات عنيفة حتى لا تتأثر بطنها ..

همست نظلة بخوفها من أن تكون أنسية مسكونة بالجن ، فهى لن تأذن لها بأن تلد من بنى آدم . حتى الزار قد يذهب بالجن ، لكن التأثيرات التى أحدثها ستظل داخل جسمها . إذا كان الجن مسلماً ، فإنه يفى بوعده ، وإذا كان يهودياً ، فإنه يفر من الوعد ..

***

حدثها سيد عن زوجة محيى قبطان . شالت بعد أيام من دخلتها . رمقها بجانب عينه ، يبحث فى عينيها عن المعنى الغائب ..

لم تعد حياتهما كما كانت . فى عينيه نظرة غريبة ، لم ترها فيهما من قبل . شيء غير واضح ، يلتمع فى عينيه ، يصعب عليها تحديده . وثمة حزن غامض وفتور يرين على كل تصرفاته ، لايتكلم إلاّ إذا طلب شيئاً ، ويرد على أسئلتها بكلمات مقتضبة . وربما ظل على صمته ، لا يتكلم إلاّ إذا ناوشته ، ولا يدخل البيت الاّ لينام . حتى الأكل يعتذر ــ فى الأغلب ــ عن تناوله . لم يعد يأذن لها بأن تدخل الحمام معه ، ولا تدلك ظهره . يدخل الحمام عقب عودته إلى البيت ، يغلقه عليه . تستمع ــ فى جلستها بالصالة ــ إلى صب الماء على جسمه ..

كان يشقيها الشرود الذى يسلم نفسه إليه عندما يجلس فى البيت ، شرود حزين يتأمل ما لا تراه ، ويحيا فى دنيا غير الدنيا . لم يعايرها بعدم الخلفة ، وإن غاب الود القديم والمؤانسة والمناغاة . يتذمر لأقل سبب ، وبلا سبب . يلاحظ ، ويعيب ، ويشكو ، ويشخط . يبحث عن منفذ للخناق :

قال فى صوت كالزعيق :

ــ لا تضعى الخبز مقلوباً على الطبلية ، حتى لا يحلّق الشيطان فوق البيت !..

ومنعها من رتق الخيط فى سرواله . نزعه من جسمه ، ودفع به إليها :

ــ رتق السروال وأنا أرتديه يجلب الفقر ..

وارتفع صوته بضيق :

ــ لا تكنسى البيت فى الليل .. قد تهدمين بيتاً لإخواننا دون قصد !..

ونبه عليها ألاّ يعلو صوتها ، حتى لا تزعج الأرواح الساكنة فى البيت . قد يبدر منها ما يؤذى ..

وصرخ :

ــ ياولية .. كفاية دق الهون حتى لا تؤذين رءوس الملائكة !..

وقال لرؤيتها تقتل عنكبوتاً بالشبشب أعلى الجدار :

ــ أنت بهذا تجلبين النحس !..

وهز أصبعه :

ــ لا تصفّرى .. هذا يجلب الشؤم !..

ــ لكنك دائم الصفير ..

بحلقت عيناه :

ــ أنا رجل .. صفير المرأة شؤم !..

ـــ هل فى الصفير رجل وامرأة ؟!

أشاح بيده :

ـــ هذا ما أعرفه ..

وهى تتهيأ للبكاء :

ـــ كل ما أفعله كان يستهويك ..

تحس بالتخاذل . تفاجئها الرغبة فى البكاء ، لا تقوى على كتمها . يغلبها النشيج ، ويهتز جسمها . تلين مشاعره ، يلاطفها ، يجرى بأصابعه على شعرها وخدها ورقبتها وظهرها . يجتذبها فى حضنه . هو يثق أنها هجرت حياتها القديمة تماماً ، لكن الطرقات الخافتة علت بغياب حلم الإنجاب . يثق من بذرته . التوقد ، والفعل ، والرجفة التى تلفهما تماماً ، فهل العيب فى الأرض المستهلكة ؟.. من لم ينشئ علاقة معها من رجال الحى ؟ غازلها ، أو شتمها ؟.. كيف يتناولون سيرته فى الحمام ، والحلقة ، وقهوة كشك ، وقهاوى الحى ؟..

لم يعد سيد القديم . الإنجاب شاغله الوحيد :

ـــ أنا بلا أهل .. أريد طفلاً يطيل عمرى بعد موتى ..

وهى تخمّس فى الهواء :

ـــ أطال الله عمرك ..

وشى صوته بتأثر :

ـــ أطاله أو قصره .. من ينجب لا يموت !..

وزفر فى ضيق :

ـــ أنا مقطوع من شجرة .. ومن حقى أن يصبح الفرع شجرة لها أغصان وأوراق ..

أظهرت التألم :

ـــ تعبت من كثرة الإجهاض والعمليات ..

رماها بنظرة مشتعلة :

ـــ كله دون فائدة ..

خرجت الكلمات من فمها مبحوحة ، متعثرة :

ـــ تعاطيت الأدوية .. ونفذت كلام الأطباء .. فماذا أفعل ؟..

نطقت نبرات صوته بالسخرية :

ـــ بطون النساء تمتلئ بهبة هواء .. وأنت ..

وسكت ..

هزمها الرغبة فى البكاء :

ـــ أنت تظلمنى ..

ملأت الدهشة ملامحه :

ــ أظلمك لأنى أطالب بحقى فى الأبوة ..

تغيرت ملامحها :

ــ حتى المومس تطمع فى الأمومة !..

وتهدج صوتها :

ــ أنت تريد طفلاً .. وأنا أيضاً .. ولست وحدى المسئولة عن هذه المشكلة ..

أشاح بوجهه بعيداً :

ــ الأرض المالحة لا تنبت ..

عقدت يديها فوق صدرها :

ــ والماء المالح لا يروى ..

غمغم :

ــ ماذا تقصدين ؟..

شوحت بيدها :

ــ فسّره كما تريد ..

فاجأته صفقة الباب ، أذهلته ..

هل هذه أنسية ؟!..

داخل الطمأنينة قلق فى قول زمزم : ربما الرجل دمه غير نقى . فالسبب لا يعود إليها ، ولكن : كيف تخبر سيد بهاجس المرأة ؟ وكيف ينقّى الإنسان دمه ؟..

نسى ــ فى تطلعه إلى الولد ــ أنها تحن إلى الإنجاب . يتألق الحلم بالصور الجميلة . أشهر الحمل أجمل سنى حياتها . تسرح فى الآتى . تتصور ملامحه . تنظر إلى صدرها . تتخيل امتصاص الطفل ــ أو الطفلة ، لايهم ! ــ حلمة الثدى ..

نادت على الطفل ..

نظر إلى الأطفال حوله . فى حوالى السادسة . له وجه دقيق الملامح . ينسدل حوله شعره الأصفر اللامع ، يتناقض مع العينين السوداوين . يرتدى بنطلوناً أزرق قصيراً ، وفانلة حمراء عليها صورة قلب ، بلا أكمام ، وبلا رقبة . فى قدميه حذاء كاوتش ، وجورب أبيض يمتد إلى نهاية الساقين ..

ــ تعال ..

نظر إلى البرتقالة فى يدها . تناول البرتقالة . رفع نظرته إلى عينيها ، ثم قذف البرتقالة ، وجرى ..

هل حذّره أهله ، ففعل ما فعل ؟..

قال سيد :

ــ لا تحمّلى الأمور أكثر مما تحتمل .. إذا كانت جارة الشقة العلوية تعرف ، فإن بقية الجيران فى حالهم ، أو مشغولون بأنفسهم !..

رفعت عينين مخضلتين بالدمع :

ــ سيد ..

أومأ برأسه يستحثها على الكلام :

ــ لو طال الانتظار .. هل تتغير ؟..

رمقها بنظرة متسائلة ..

وهى تمسح الدمع بظاهر كفها :

ــ ألن تتغير نفسك ؟..

ضغط شفته الشفلى فى تأثر . لزم صمتاً ، واكتفى بالنظر إلى قدميه ..

تساءلت فى حيرة : لماذا تخلى عنها سيدنا السلطان ؟.. كيف يرفض أن تنجب ، فتظل زوجاً لسيد ، ويظل سيد زوجاً لها . يستطيع المرسى أن يتشفع لها ، ويستطيع ياقوت العرش ، مثلما وهبها الشقة ، فيثبت الحمل فى بطنها ..

أغثنى ياسيدى ياقوت العرش .. خاطرك معى !..

لو أن الله أطعمها ، لن تنال الأمومة وحدها . ستتمكن من سيد ، فلا يصبح تطليقها سهلاً . ولا تظل العلاقة هواء . تكلمه ، تختلق كلاماً ، فيشيح بوجهه . تداعبه فينهرها . حتى إذا لامست أصابعها يده ، أجفل . اغتصبت ابتسامة ، ومالت تقبله ، فدفعها بيده ..

تهز رأسها للسؤال : هل تسكت عن تصرفاته ، وتسترضيه ، لأنها تريد الحياة معه ، أو لأنها تخاف الحياة بعيداً عنه ؟..

لاحظت أنها تكلم نفسها . لا أحد سوى الجدران والنوافذ المغلقة والصمت . يعلو صوتها . تسأل وتجيب ، تأخذ وتعطى ، تنفعل وتحرك رأسها وعنقها ويديها ، تشيح وتطوح و تفشل فى السيطرة على انفعالها ، وتعانى القلق والخوف ..

هل هذا هو الجنون ؟!..

الطيران بجناح الهمّة

الدنيا ليل ..

شفت الظلمة بلمبات الاستصباح المتناثرة ، والكلوبات المعلقة على أبواب الدكاكين ، وفى عربات اليد ، والأضواء المنبعثة من الشرفات والنوافذ التى فتحت مصاريعها للنسائم المحملة برائحة الملح والأعشاب . هدير البحر يترامى ، ونجاتى يمد عنقه ، يعلو بآخر صوته ، فى تنغيم ، ينادى على المطلوب ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ــ نحن الآن فى الجانب الصيفى بالقهوة ..

كان يرتدى قميصاً أزرق من البوبلين المخطط ، وبنطلوناً أبيض ، وحذاء يتقاسمه الأسود والأبيض ..

رفع أدهم أبو حمد عينيه فى تثاقل :

ــ وأين الجانب الشتوى ؟..

مال سيف النصر على الكرسى ، وشبك أصابع يديه على صدره :

ـــ الرصيف ..

كانوا يتابعون انطلاق الصواريخ فى الميناء الشرقية ، تتصاعد من السلسلة ، فتضوى السماء بالألوان المتطايرة والأشكال والتكوينات والألعاب النارية والأصوات المتفجرة . فى وسط البحر ، تزينت البلانسات بلمبات ملونة ، وأعلام ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ـــ كان ينقص هذه الاحتفالات وجود الأسطى مواهب..

قال فهمى الأشقر :

ـــ لعلك لم تستمع إليها وهى تغنى " زهر الربيع ترى .. أم سادة نجب " ؟..

وضم أصابعه على شفتيه :

ـــ صوتها فى هذه الأغنية أجمل من صوت أم كلثوم!..

قال أدهم أبو حمد :

ـــ رائحة البارود وصلت إلى هنا ..

قال الشيخ قرشى :

ـــ ثمانية أيام مضت ولاتزال حفلات عيد الجلوس ..

غمز ابراهيم سيف النصر بعينه :

ـــ ألم تحتفل بطريقتك ؟..

لاحظ سيف النصر أن الشيخ قرشى نسى القول فى أذان الفجر " الصلاة خير من النوم " . رفع الأذان كأنه للصلوات الأربع الأخرى . تحرج فى مصارحته بنسيانه ..

قال أحمد أبو دومة :

ــ لاحياء فى أمور الدين .. إذا لم تصارحه فسأكلمه أنا..

قال أدهم :

ــ السهو من طبيعة البشر ..

قال أبو دومة فى دهشة :

ــ هل فى الأذان سهو ؟!..

قال فهمى الأشقر :

ــ لاحظ رفعه لأذان فجر الغد .. إن كرر ما فعل لابد أن تكلمه ..

أردف بلهجة مشفقة :

ــ مصيبة لو أن الشيخ عبد الحفيظ أخذ باله ..

كان الشيخ يرفض التلحين والتغنى فى الأذان ، ربما ــ للمحافظة ــ على توقيع الإيقاعات والنغمات ، لا تتوضح الحروف والحركات والسكنات . وكان يكره الفصل بين

كلمتين بسكتة . عاب على الشيخ قرشى أنه يمد صوته أكثر مما ينبغى . يغفر الله للمؤذن مد الصوت ، لكن الإطالة تضع الأذان خارج العبادة ..

كان يرى فى المنبر عرش الله ، لا يرتقيه الاّ من اطمأن إلى طهارة نفسه .

عـــاب الشيخ على المهدى اللبان أنه يسرق من صلاته ، فهو لا يسبغ الوضوء ، ويخطف الركوع والسجود ، ولا تبدو عليه خشية ..

قال :

ــ الصلاة هى أول ما يحاسب عليه العبد ..

ولاحظ أن المصلين انشغلوا بأحاديث جانبية . تشابك الهمس ، فبدا لغطاً ..

علا صوته فى غضب :

ــ نحن فى جامع لا فى قهوة !..

وخالف رده ما توقعه إبراهيم سيف النصر :

ــ كيف يكون سؤال القبر لمن غرق فى البحر وأكله السمك ؟..

قال فى لهجة باترة :

ـ الميت يسأل بعد موته .. سواء دفن أو لم يدفن .. حتى لو أكله السمك ، لابد أن تسأله الملائكة ..

علا صوت أدهم أبو حمد :

ـ هل قرأتم أسماء الوزراء الجدد .. أتعجب : كيف مارس هؤلاء الناس الوطنية ذات يوم ؟!

ثم وهو يدفع بالجريدة إلى إبراهيم سيف النصر :

ـ كيف ارتضوا لأنفسهم أن يصبحوا وزراء فى حكومات مشبوهة ؟!..

وعلت الحمرة وجهه :

ـ هذا سيرك لاعبوه من المستوزرين !

قال زكى بشارة :

ـ حتى نجيب الهلالى الذى جعل شعار وزارته التطهير ، يتكلم عن آمال مصر بين يدى الملك عزه الذى يرام وكنفه الذى لا يضام ..

ثم وهو يحك ذقنه فى حيرة :

ـ أى ناس هؤلاء ؟!..

تنبه سيف النصر لوجود زكى بشارة :

ـ حمد الله على السلامة ..

مد زكى بشارة يده بالمصافحة :

ــ الله يسلمك ..

قال الشيخ قرشى :

ــ لك وحشة ..

قال زكى بشارة :

ــ كنت خارج الإسكندرية ..

تحدث عن شراء بيت فى كنجى مريوط . بلدة للصيد ، هواؤها جاف ، فهى مشتى ومصيف معاً ، ومنتجع ، وشهرة طواحين الهواء بها واسعة ..

مدت المرأة يدها بورقة يانصيب إلى أدهم أبو حمد :

ــ جرب مرة ..

أزاح يدها فى ضيق :

ــ أنا لا أحب البخت ..

ضحك فهمى الأشقر :

ــ يسمونه حظاً وليس بختاً يا أدهم أفندى ..

وربت ــ بود ــ كتفه :

ــ سأشترى الورقة على حظك !..

قال أدهم :

ــ أنت إذن أضعت ثمن الورقة ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ــ ثمنها لا شئ أمام ما ينفقه على اليانصيب ..

همس إبراهيم سيف النصر فى أذن حمدى رخا بما لاحظه . فهمى الأشقر له ولع ببائعة اليانصيب ، الوقفة المتأودة ، والعينين المكحولتين ، والشفتين الممتلئتين ، والأنف الأفطس ، وخصلة الشعر المخضب بالحناء على جبهتها ، وغنة الصوت الواضحة ..

استطرد وهو يكتم ضحكة :

ــ لعلها ترضيه بما لا يجده فى بيته !..

واتجه إلى شرود حمدى رخا :

ــ اللى واخد عقلك ..

كان خياله يجسد الصور التى تأتى فى التعبيرات . يضع لها ملامح وقسمات . يبتسم لتجسيد الصورة ، أو يحزن ، أو يعانى القرف . كانت فايزة تتكلم ، وتتكلم ، وتتكلم . يكتفى بالإنصات . يتظاهر بالإنصات . تجتذبه عوالم يتصورها . يتخيل ما بها . وكان يرافق خياله فى مشاوير لا تختار مقصدها . غاب المعنى ، فألقى التأمل فى

الشرود . لا يقصد وجهة بالذات ، وإنما يترك قدميه تمضيان إلى ما يجذب انتباهه ، فيطيل الوقفة . تشرد نظراته . تستقر على مكان غير مرئى فى المدى البعيد . ربما تبين أن جيشان الذهن أملى عليه خطوات المسافة ــ للمرة الثانية ، أو الثالثة ــ بين السلسلة وانحناءة الطريق إلى الأنفوشى . يقف على رصيف نمرة واحد ، يرقب البواخر الضخمة وناقلات البترول والحاويات والسفن الحربية . الجلسة المسترخية ــ تحت شمسية الشاطئ فى أبى قير ــ وامتدادات المياه بلا أفق . يمضى ــ على الكورنيش ــ إلى الشاطبى . يعد النوافذ على الجهة المقابلة للكورنيش ، بطريقة لا تعنى العد بالفعل ، يبطئ الخطوات فى لسان السلسلة . يرقب صيادى السنارة وباعة الترمس والذرة . يتأمل طيور البحر فى أسرابها المتداخلة . تسترخى نظرته أمام فاترينات وسط البلد . يفاصل بين الأفلام المعروضة فى الهمبرا وريتس وفريال وراديو . يلحظ اجتذاب الظلام لشروده . تبدو أحداث الفيلم ــ فى ذاكرته ــ منفصلة ، وغير مترابطة ، ومملة . يعاود السير فى الشوارع المحيطة . يحاول ــ فى وقفته أمام قهوة البلياردو ــ فهم قواعد اللعبة ، معنى ارتطام الكرات ،

وتلقف الثقب المستدير لها . يهز كتفيه ، ويواصل السير .
ربما مال من صفية زغلول إلى المستشفى الأميرى . يستلقى
تحت شجرة فى حدائق الشلالات . يخلو إلى ما يحيا فى
داخله . تغيب عنه الهمسات ونداءات باعة اللب والسودانى
وتنغيم الغجريات : أدق وأطاهر . ربما أفاق على ارتطام
كرة بجسمه ..

تتكرر هذه الجولة مرتين ، أو ثلاثاً ، كل شهر . تبطئ
خطواته بتلقى نسائم اعتدال الجو . إذا كان الجو حاراً ، أو
فى الشتاء ، يميل من الشارع الجانبى إلى شارع حسن باشا
عاصم ، حتى التقائه بإسماعيل صبرى . تبدو حلقات
الجالسين على الرصيف ــ فى نصف دائرة ــ حول المهدى
اللبان . ربما تدفعهم حرارة الشمس ، أوهبات الهواء الشتوية
، إلى الجلوس داخل القهوة المغلقة ..

يصل إلى قهوة المهدى عقب صلاة المغرب . لا يتكلم
عن الأماكن التى تردد عليها ، ولا ما صادفه فى طريقه .
يدخل محارة صمته . يتابع المناقشات بعينين يغشاهما
الشرود ..

السير فى نفق الحيرة

وافق على إجراء تحليل فى مستشفى الملكة نازلى ..

أعطاه الممرض أنبوباً زجاجياً ، وأغلق عليه دورة المياه :

ــ إذا انتهيت .. هات الأنبوب ..

نصح الطبيب بأدوية ومنشطات ..

عاود رفضه :

ــ أنا لا أشكو شيئاً .. صحتى بمب ..

قال لها الطبيب :

ــ نصيحتى أن تتجنبى الحمل فترة ..

ــ كيف ؟..

لم تعد تنصت إلى الكلمات بلهفة اعتادتها منذ فاجأها المخاض الأول فى الشهر الثالث . بدت أقرب إلى الاستسلام

، وربما البلادة . ثمة أمل يحيا داخلها ، ملامحه شاحبة ، ولا صوت له ، لكنه قائم ، يشاركها أنفاسها ..

فاجأها الطبيب :

ــ الإجهاض المتكرر أثر على صحتك .. ولابد من استعادتها ..

قال سيد :

ــ ولكن ..

قاطعه الطبيب :

ــ من الصعب أن تحملى وأنت فى هذه الحالة ..

واتجه إليه بابتسامة ود :

ــ هذه فرصة لاستعادة نشاطك ..

همس سيد فى عودتهما إلى البلقطرية :

ــ يبدو أن حياتك السابقة أثّرت على الوعاء ..

تحركت شفتاها . انفرجتا . ارتعشتا قليلاً ، ثم التصقتا ، وانفرجتا ثانية . ظلت صامتة ، وبكت . انهمرت الدموع من عينيها . هو لم يفاجأ بغير المتوقع . يعرف من حياتها كل شئ ، فلماذا وافق ؟ ولماذا يحاسبها الآن ؟. حتى فى لحظات ضغط اليأس على عنقه ، لم يحاول الإساءة إليها ، لم

يواجهها ، ولا تهكم عليها ، وإن كتمت ضيقها من نظرته اللائمة . يفاجئها بها ، كأنه يدينها على ما لا حيلة لها فيه . تحاول الكلام . مجرد أن تعطى معه وتأخذ . تصطدم الكلمات بصمته السادر . مساحات لانهاية لها من الصمت . يصد حتى محاولاتها لاستدعاء حكاياتهما القديمة : تردد الخائف على بيت شارع سيدى داوود ، والرغيفين الرجوع ، ولقاءاتهما فى دحديرة أبو العباس ، ومفاجأته لها يوم الإضراب ، والنزهة فى الشلالات ، والتمشى على الكورنيش ، وليلة زفافهما فى قهوة كشك . هل يفكر فى تطليقها ؟ هل يتزوج عليها ؟ وإلى أين ينتهى بها الحال لو أن الظروف ظلت على عنادها ؟..

لاحظت أنه لم يعد يعنيه أن يطيل نومه معها حتى تتحقق لها الرجفة . يقذف بما لديه ، فيقوم من فوقها . يرتدى جلبابه ، ويتمدد على جنبه إلى الناحية المقابلة ..

حانت منها التفاتة إلى مرآة التسريحة بجوارها ..

ماذا جرى ؟..

طفت الهموم على ملامحها . غاب الجمال القديم . علا الوجه شحوب ، وتورم جفناها ، وذبلت العينان ، فقدا

بريقهما ، وأحاطت بهما هالات سوداء . وتسللت التجاعيد إلى بشرتها ، وعلت الجبهة ، وأحاطت بجانبى الفم . وغارت الوجنتان ، واصطبغتا بالشحوب . حتى الشعر الناعم تقصفت أطرافه ، وتشعثت ، وتسلل الشعر الأبيض قبل الأوان ..

ــ الطبيب أكد أنك ..

وبدلت الكلمات :

ــ الدلالة نصحت بشراء حجر جهنم ..

زوى ما بين عينيه :

ــ ماذا ؟..

اصطنعت ابتسامة :

ــ هذا هو اسمه .. يأتى من بلاد برة .. قطعة منه تجعلك مثل الرهوان ..

قاطعها :

ــ وهل أنا فى حاجة إلى من يؤكد رجولتى ؟..

فى لهجة معتذرة :

ــ أنا لا أتحدث عن رجولة ولا أنوثة ..

علا صوته :

ـــ أريد ولداً يحمل إسمى ..

همست فى تألم :

ـــ قال الطبيب إن السبب هو ضعف حيواناتك المنوية..

قذف الهواء بقبضته :

ـــ فليقل الطبيب ما يشاء ..

غمغمت :

ـــ لا تشتمنى إذن !..

ارتعش صوته بالتوتر :

ـــ أنا أذكر الحقيقة ! ..

***

هل رجولته ناقصة ؟.. هل هى مجرد ماء بلا خصوبة؟..

زار الشيخ كراوية قارئ مسجد الشوربجى . عرض الأمر عليه منذ بداياته . حتى ما لا يصح قوله رواه . قدم منديل رأسها أثراً يستعين به . انشغل الشيخ بتأملاته وأوراقه ، وتقليب الأثر ، ومخاطبة أشخاص مجهولين . ثم ألقى أسئلة . أجاب عليها سيد ، وحبس أنفاسه ..

قال الشيخ :

ــ رحم المرأة مغلق ، فلا تستطيع الإنجاب ..

هتف سيد فى قلق :

ــ هل تنصح بعملية ؟..

تكرمشت جبهة الشيخ :

ــ من يجريها ؟..

قال سيد :

ــ الطبيب .. أى طبيب ..

وشى صوت الشيخ باستياء :

ــ للأطباء حدودهم .. هذه إرادة الله ..

غادر الجامع ، وفى يقينه ما قاله الشيخ : قرينة أنسية تحسدها على إنجابها . القرينة لاتستطيع الإنجاب ، فهى تهاجم الطفل حتى يموت . لابد ــ كما نصح الشيخ ــ أن يشترى السبعة عهود السليمانية ، العهود التى أخذها سيدنا سليمان على أم الصبيان ، بألاّ تمس الطفل الذى يحمل هذه العهود فى رقبته ..

مال إلى فرن التمرازية ..

تكررت زياراته باشتغال صابر الشبلنجى فيه ، صداقتهما بدأت فى قهوة كشك ، واستمرت . صابر يزور

سيد فى الكشك ، وسيد يزور صابر فى الإسطبل ، ثم فى الفرن . اغتصب ابتسامة لرؤية صابر ينفض عنه غبار الردة والدقيق ، علقت بشعره ، ورموش عينيه ، وداخل أنفه وأذنيه ، وعلى ملابسه ..

قال صابر متهللاً :

ــ ياروائح السيالة .. أنت ثانى من ألتقى به اليوم ..

رنا إليه بنظرة متسائلة :

ــ من الآخر ؟..

وهو يعبر بأصابعه :

ــ الأسطى فتحى الخياط ..

لمحه فى زحام شارع الميدان . يزك بساقه المهيضة ، وعصاه ..

هتف صابر بعفوية :

ــ أسطى فتحى ..

يتساند على العكاز ليعوض ساقه المهيضة ، وإن ظل يظلع فى مشيته . طفولة وجهه تخفى حقيقة سنه . أبرز ما فيه جبهة عريضة ، وعينان واسعتان حادتان ، وأنف أقنى . على شفتيه بسمة ثابتة ، تخفى ما يدور فى داخله من مشاعر

. يرتدى جاكتة خفيفة ، يطل من جيبها العلوى طرف علبة سجاير ، فوق جلباب أبيض من البوبلين ، ويحرص على إمالة طربوشه ناحية اليمين .

وبّخ صابر نفسه فى اللحظة التالية . توقّع أن يذكّره الرجل بفعلته مع جمالات ، لكن كلمات الأسطى فتحى اقتصرت على تبادل التحية . لم يأت بسيرة المرأة ..

ــ دكانى الآن فى الإبراهيمية ..

ثم وهو يحيى بهزة رأس :

ــ دعنا نراك !

هم بسؤاله : أين ذهبت جمالات ؟.. هل هى تحيا معه ، أو تحيا بمفردها ، أو أنها تزوجت من لا يعرفه . وهل تركا بحرى بغضب حنفى قابيل ؟..

أراد أن يتكلم ، لكن الكلمات عصته ، وكان الأسطى فتحى يمضى ــ بخطواته القافزة ــ ناحية شارع الميدان ..

* * *

مضى سيد فى اتجاه الموازينى ..

لمح أمين عزب فى ناصية التقاء التمرازية برأس التين..

لحقه ..

مد أمين عزب يده :

ـــ كيف حالك يا سيد ؟..

وهو يغالب ارتباكه :

ـــ الحمد لله ..

وفرك كفاً بأخرى :

ـــ أريدك يا مولانا فى مسألة مهمة ..

اتسعت ابتسامته :

ـــ زمان .. كنت تستطيع رؤيتى كل وقت ..

دخل زاوية خطاب ـــ متردداً ـــ قبل أذان العصر ..

حكى ، وإن لم يشر إلى ما قالته أنسية ..

قال وهو يحيط أصبعه بخصلة الشعر المتهدلة :

ـــ اللى خلف ما ماتش ، واللى ما خلفش ماتولدش ..

وتدلت يداه المضمومتان أمامه :

ـــ أنا حتى الآن لم أحيا ، لأنى لم أنجب ..

وتنهد :

ـــ من يزور قبرى بعد موتى ؟!..

قال أمين عزب كلاما كثيراً ، فهم منه أنه يجب أن يلتزم بالصبر ، وأن لكل شئ أواناً ..

غادر الزاوية قبل الصلاة ..

ارتمى فى ظلام المسافرخانة .

تأخر فى العودة إلى البيت ، فنامت أنسية . استيقظت على صوت حركته فى الصالة . قامت لتعد له العشاء . كان قد ارتمى على الكنبة مهدود الحيل . شوح بزجاجة غامقة اللون فى يده . أدركت أنه مخمور . وضعت العشاء على الترابيزة أوسط الصالة ، ومضت ــ صامتة ــ إلى الداخل..

* * *

كان الشيخ عبد الحفيظ ــ إذا دخل عليه أحد غرفته فى الجامع ــ دارى المصحف الذى يقرأ منه بطرف ردائه ، فلا يعلن أنه يتعبد . كان يستقبل فى حجرته من يريد لقاءه ، ويرد على الناس ــ فى الطريق ــ سلامهم وأسئلتهم ، وان ظلت نظراته تمسح الأرض . يخشى أن تزنى عيناه ، مثلها مثل الجوارح ، إن جاوزت النظرة الخاطفة للتبين . الملامح الجادة تخفى قلباً طيباً ، وروحاً صوفية عذبة ..

انحنى على يد الشيخ عبد الحفيظ يحاول تقبيلها ، فشد الشيخ يده ..

قال الشيخ :

ـ مادام لا يوجد عيب فى زوجتك أو فيك .. فهذه إرادة الله .. وعليك أن ترضى بها ..

واتجه إليه بنظرة مشفقة :

ـ قل اللهم آجرنى فيما حرمتنى منه ، واخلفنى فيه خيراً كثيراً ..

وشى ارتجاف رموشه بالتأثر :

ـ تعنى أنى لن أنجب ؟..

قال الشيخ فى نظرته المشفقة :

ـ هذا كلام فى علم الله .. ونحن لا نملك إلا الرضوخ لإرادته ..

وهز أصبعه :

ـ لا تجعل من حاجتك بلاء .. واذكر أن آدم لما تعلق قلبه بالجنة ، جعلتها القدرة محنة عليه ، حتى زالت الجنة !..

وخالط صوته حزن :

ـــ أنت مشغول بالمفقود .. ونسيت أن تشكر الله على الموجود .. زوجة طيبة ..

هل هو مجرد كلام ، أو أن الرجل لايعرف ماذا كانت تعمل أنسية ؟.. وهل مسحت مكاشفة السلطان ما يعرفه الناس عن حياتها القديمة ؟..

التمعت عيناه بالقلق :

ـــ ما أريده طفل مثل بقية الآباء ..

قال الشيخ :

ـــ ما يشاء الله سيكون !..

لحقه صوت الشيخ وهو يخطو إلى الباب الخارجى ..

ـــ اذكر " المصور جل جلاله " عشر مرات .. عندما تأوى إلى فراشك ، وقبل الوطء ..

ونطق صوته بطيبة واضحة :

ـــ من يفعل ذلك قد يرزقه الله ولداً صالحاً ..

* * *

قالت الطبيبة :

ـــ نصيحتى أن تتجنبى الحمل سنتين أو ثلاثاً ..

وقرصتها من خدها برفق :

ـــ لابد أن تستعيدى صحتك أولاً !..

راودها الخاطر ، فنفذته ..

أهملت التسوق فى شارع الميدان ، ومالت إلى دكان مانيفاتورة كمال مصباح . سِرّه باتع مع سيدى ياقوت العرش ، فهل يعينها بسِرّه على مواجهة ظروفها ؟ هل يحنن قلب سيد ، فيصبر عليها ، ولا ينفذ ما تلتمع به عيناه ؟..

الرجل يقف وراء البنك الخشبى فى نصف مربع . بجواره عمال يرصّون الأقمشة ، ويعرضونها ، ويفاصلون ، ويبيعون ، ويتقاضى الثمن . الأرفف صفت عليها أنواع الأقمشة إلى السقف ..

لمحها من انفراجة طولية بين الواقفين ..

هتف بالتذكر :

ـــ أهلاً يا ست !

خوف المفارقــة

فوجئ المصلون حين رأوا شيخا آخر يصعد المنبر ، بدلاً من الشيخ عبد الحفيظ . قيل إنه أصيب بوعكة مفاجئة ، فتخلف عن الحضور . فلما صعد منبر جامع القائد إبراهيم ، عرف المصلون أنه نقل إليه ..

تباينت الشائعات حول أسباب نقله ..

قيل إنه يقول كلاما لم يذكره القرآن ولا أحاديث الرسول . إنما هو يقول ما يفد إلى خاطره ، ويعلن تفسيرات غريبة . وقيل إن وزارة الأوقاف عابت عليه شهوة الخطبة فى صلاة الجمعة ، فهو يطيل ويطيل ، لا يعنيه إن أدرك الناس الملل ، أو تضايقوا . يأخذه الاستطراد ، فينتقل من حديث إلى آخر ، وربما أعاد كلاماً ذكره فى خطب سابقة . وقيل إن أعوان الملك أشاروا عليه بشراء الشيخ عبد الحفيظ . تلقى الشيخ رسالة تبلغه اعتزام الملك أداء صلاة الجمعة المقبلة فى على تمراز . آخر زياراته للجامع فى ٧ سبتمبر

١٩٤٥ . أتى ــ فى الأيام التالية ــ عمال ومشرفون ، أعادوا تأثيث الجامع ، واستبدلوا بالحصر سجاجيد من الصوف . طاف بأرجاء الجامع رجال يرتدون الثياب الميرى ، وثياب الأفندية . أغلقوا معظم الحجرات والأبواب . حتى الباب الخلفى المطل على محطة الكهرباء ، أغلقوه ، واكتفوا بالباب الرئيسى . وقف عليه عساكر ، لم يغادروه إلى صباح يوم الزيارة . أتى الحرس الملكى ، ضباط وجنود ، أحاطوا بالجامع ، وانتشروا فى صحنه ، وأمام الحجرات المغلقة ، وفوق السطح . زيادة فى الحيطة ، صعد بعضهم إلى أسطح البيوت المجاورة ، وسدوا الحوارى المطلة على الميدان ، فيما عدا الاتجاه إلى شارع فرنسا وأبو العباس ورأس التين . والتف تلاميذ المدارس حول الساحة المقابلة للجامع ، لتحية الملك ..

قيل إن الشيخ عبد الحفيظ ابتعد فى خطبته ــ للمرة الأولى ــ عن السياسة . ذكّر الحضور بالآخرة وبالحساب والعقاب ، ودعا لأولى الأمر أن يهديهم الله سبيل الرشاد ..

روى أن الملك خلع على الشيخ عبد الحفيظ بردة من الجوخ ، ومنحه كيساً به نقود ، ووعده بزيارة تالية .. لكن

التنقلات التى أجرتها وزارة الأوقاف بين الأئمة ، جعلته إماماً لجامع القائد إبراهيم بمحطة الرمل ..

علا صوت الشيخ عبد الحفيظ بالغضب ، حين همس الشيخ دسوقى رزق مفتش إدارة الوعظ بالملاحظة :

ــ هل تخلع الجبة فى الجامع ؟..

قال :

ــ ومن يطيق ارتداء الجبة فى حر أغسطس ؟..

وحول وجهه إلى الناحية الأخرى :

ــ إذا حان وقت الصلاة ارتديتها ..

لم يكن يغادر البيت إلاّ إذا اطمأن إلى ما يرتديه : القفطان الشاهى ، المزهر ، والجبة الجوخ ، والحزام الأخضر ، والعمامة المنقوشة ، والحذاء الأجلسيه ذى الرقبة . وتجرى أصابعه على حبات المسبحة العاجية الحبات ..

قال المفتش :

ــ يا شيخ عبد الحفيظ .. من تقصد برؤساء الدول الإسلامية الذين يجب أن يراعوا فى سلوكهم تقاليد الإسلام ويتمسكوا بقواعده ؟..

فى صوت متلكئ :

ـــ أقصد من ذكرت ..

نطقت الدهشة فى وجه المفتش :

ـــ مولانا ملك دولة اسلامية ..

قال الشيخ عبد الحفيظ :

ـــ وهل ترى أن الملك لا يراعى تقاليد الإسلام ؟..

وهو يدفع براحته خطراً غير مرئى :

ـــ حاشا لله ..

كور الشيخ عبد الحفيظ مسبحته ، ودسها فى جيبه ، ثم واجه دسوقى رزق بنظرة مستريبة :

ـــ ما معنى سؤالك إذن ؟..

فاجأه المفتش بما أذهله :

ـــ هل صحيح أنك لا تعطى وقتك للإمامة ؟..

اهتز جسمه بالانفعال :

ـــ ماذا تقصد ؟..

وهو يطوى ساقه تحت فخذه :

ـــ جاءتنا معلومات أن التجارة تبعدك عن الجامع ..

توقع اتهامات ، لكنه لم يتوقع أن ينقلها الشيخ دسوقى رزق . هو زميل دراسة فى المعهد الثانوى ، وفى كلية أصول الدين . وأقاما ــ لفترة ــ فى بيت المسافرخانة ..

قيل إن الشيخ يشارك فى شادر البطيخ بجوار المحكمة الكلية ، وفى عمليات بيع بهائم ودواجن ، يتاجر بها أقارب له فى المحمودية ..

قال دسوقى رزق :

ــ ليتك تعرض على موضوع خطبة الجمعة ..

أعاد القول :

ــ أعرض الخطبة عليك ؟!..

فى نبرة تهوين :

ــ الفكرة العامة ..

ورسم على شفتيه ابتسامة :

ــ هذه مسألة وظيفية ..

ألغى الإمام الجديد درس ما بعد صلاة المغرب . الجامع للصلاة وحدها . من يريد الفقه ، فعليه أن يلجأ إلى المكتبة . الوعظ فى خطبة الجمعة لا سواها . وقال من فوق المنبر إن احترام الحاكم واجب ، حتى لو كان جائراً . وقال

: إن الله هو الذى ولى على الناس الحاكم ، والخروج عليه عصيان ، وتمرد على حكمه ..

غاب الإمام عن الجامع ، إلا فى بعض أوقات الصلاة ، وإلقاء خطبة الجمعة ..

قيل إنه كان إماماً للبوصيرى ، قبل أن ينتقل إلى ديوان وزارة الأوقاف . رأى تحويل الترام إلى الناحية المقابلة ، وفصله بالحديقة الصغيرة عن الجامع . انزعج الملك فاروق ــ عند زيارته للجامع ــ من قرقعة الترام فى تراميها إلى غرفة صاحب الضريح . أمر بإبعاد الترام ، وأظهر عدم الرضى ، فلم يمنح الإمام كسوة . نقل الإمام ــ فى اليوم التالى ــ إلى ديوان الوزارة ..

تناقص المترددون على سيدى على تمراز ، فلم يمتلئ بهم صحن الجامع ، وظل الميدان خالياً . وقيل إن أمين عزب رجع عما اعتزمه بإهداء مكتبته الخاصة إلى سيدى على تمراز . حافلة بعلوم التفسير والفقه والحديث والتصوف والتاريخ الإسلامى . نقلها فى عربة كارو إلى زاوية خطاب . وقاطع أحد المصلين خطبة الإمام الجديد :

ــ لم يعد الجامع فى حاجة إلى إمام ..

ساد هرج واضطراب . هوش المصلّون على الإمام ، وصاحوا ، وزيّطوا ، وهتف عجوز فى الصف الأول :

ــ لا يخطب فينا إلاّ الشيخ عبد الحفيظ !..

تكاثرت أعداد المصلين فى القائد إبراهيم ، حتى أعلنت القنصلية البريطانية القريبة من الجامع ، قلقها . خطب الشيخ تقتصر على السياسة ، وردود الأفعال تلقائية ، ويصعب علاجها ..

وقائع ظهور قناديل البحر

- ١ -

سكن الموج ، والرمل ، والنخيل المتناثر على الشاطئ . صيحات النورس تعمق من الصمت السادر . مد الموج متكاسل ، حصيرة . يقترب من الشاطئ أشباراً ـــ فى رتابة ـــ ثم ينحسر . الجو حار ، وموسم صيد المياس فى ذروته..

كان يتمشى على الشاطئ . قدماه تغوصان فى الرمال ، تنثران الماء حولهما . وعلى امتداد الشاطئ تتناثرت أعشاب البحر ، والطحالب ، والحصى اللامع المسنون . وثمة ـــ فى السماء ـــ ندف متفرقة من السحاب الأبيض تتجه الى الأفق ، وأسراب النورس تغادر مكامنها بين حنايا الصخور المتلاصقة على الشاطئ ، تطلق أصواتها العالية ، تبين لصيادى السنارة والجرافة والطراحة عن وجود الأسماك ، تنقنق ، تلعلط الأسماك فى المناقير . تعلو بها النوارس ، ثم تلقيها . تنزل ثانية فتأكلها ..

لمح جسماً يسبح فى الماء ، منتفخاً ، ورخواً ، وشفافاً ، كأنه لمبة مضاءة . شاطه بقدمه ، فأحس فى القدم ألماً حاداً . ظهرت ــ بعد لحظات ــ فقاعات موضع اللسعة ، كأنها انسكاب زيت مغلى . قاوم هرشها ، ثم جرت أصابعه ، يحكها ، فنزف الدم ..

– ٢ –

قال عادل عبد الوهاب مرزوق لطبيب العيادة الخارجية بمستشفى رأس التين :

ــ لامس ساقى فكأنها لسعة كرباج !

أضاف ، وهو يحاول كتم ألمه :

ــ شاهدته وهو يلسعنى .. أطرافه طويلة مؤذية ..

قال الطبيب بثقة :

ــ قنديل البحر ..

ثم وهو يقلب فى الصيدلية الصغيرة ، المثبتة على الجدار :

ــ إنه يأتى وينتشر مع ارتفاع درجة الحرارة ..

ومسح بالمرهم على موضع اللسعة :

ـــ القنديل لا يهاجم الانسان إلا إذا لمسه ..

قال عادل فى صوت مرتعش :

ـــ لم أكن أعرفه ..

– ٢ –

قال الحاج أحمد الزردونى لعبد الوهاب مرزوق ، وهو يهز رأسه :

ـــ لا دواء لابنك عند الطبيب . خذه إلى البحر ، وضع على موضع اللسعة قطرات من الخل ..

ظل عادل يحس بالألم أربعة أيام ، دون أن يبدو على جسمه شئ . ثم ظهرت بقع زرقاء ، مصحوبة باحمرار فى خطوط منتشرة ، حول القدم والركبة ..

صحت حارة الشارونى ــ ذات صباح ــ على صراخ فى شقة أم الطاهر . وضعت راحتها على فخذها ، وأطلقت صرخات متشنجة ، وهى تنظر إلى قنديل البحر الذى لم يكن فارق السرير ..

علت ــ فى الساعات ، فالأيام ، التالية ــ صرخات الألم من شوارع الأنفوشى وحواريه . يتوقع الناس أن تكون لقرصة قنديل . نسوا الأسباب الأخرى ، كالصوات عند الوفاة ، أو خلف الجنازات ، أو الخناقات بين الجيران . القنديل توقعات اليوم من بدايته : أحاديث القهاوى ، وخطب الجمعة ، والدروس بين صلاتى المغرب والعشاء ، وتحذيرات الاقتراب من الشاطئ ، وحرص الصيادين على الذهاب إلى المناطق البعيدة ..

تناثرت على سطح المياه ، فى امتداد الأنفوشى ، آلاف الأجسام الجميلة ، المنتفخة ، تبرق كاللمبات ، أرجوانية

مشوبة بالأزرق . من يصطدم بها ، تفرز على رجله سائلاً حارقاً ..

قيل إن خطر القنديل لا ينتهى عند لسع من يلمسونه . الأسماك تهرب حين تشعر بالمادة الكاوية التى يفرزها . إذا استمر قدومه وانتشاره ، فإن الأسماك ستغيب عن الشواطئ ، ويدوخ الصيادون ..

- ٥ -

أمر الحاج عباس الخوالقة رجاله . نصبوا حاجزاً من الشباك داخل المياه ، على امتداد الشاطئ . ثبتوها بأثقال ، هلب وعوامات .. لكن الشباك لم تفلح فى صيد القناديل . كان المطلوب شباك ذات أطراف طويلة ، تحيط بالقناديل ، فلا تتيح الاقتراب من جسم الصياد أو ملامسته . ربما كانت سامة ، فيموت المرء فى دقائق ..

توقفت الأيدى عن العمل ، حين علا صوت الجد السخاوى الغاضب :

ـ هل تملكون تكاليف إقامة الحاجز من القلعة الى سراى رأس التين ..

اقترح عبد الوهاب رزق أن يرش الشاطئ بالمبيدات ضد القناديل ..

صاح الجد السخاوى :

ـ ستقضى عليها .. وعلى الأسماك أيضاً !

ثم تسللت القناديل تحت الشباك ، ومن بينها ، ولسعت ناساً آخرين ..

- ٦ -

تعددت محاولات العلاج من لسعات القناديل : الماء ، والخل ، والرمال . وكتب طبيب المستوصف بشارع الجمرك القديم ، دواء تركيب ، صرفه أهالى المصابين من صيدلية الإسعاف بالمنشية . لما زادت الاصابات ، أعد الحاج محمد صبرة تركيبة خاصة ، أكد جدواها : خليط من الكحول والخل والبول البشرى . ونصح الطبيب الأرمنى فى عمارة أمين عزب ، بغسل أماكن الألم بالخل ، فيزول حالاً ..

انشغل الناس برفع القناديل من الشواطئ ، تختفى وتعود ، وتختفى وتعود ، وتعود . ولأنها تأتى من خارج المياه ، طلب الحاج قنديل تحديد أماكن التجمعات التى تفد منها ..

نفى الصيادون أن يكون قدوم القناديل مع الشباك ، فيلقون بها على الشاطئ .. نحن أبناء الشاطئ ، فهل نؤذى أنفسنا ؟!

طافت السيارات فى الميادين والشوارع ، تدعو الناس إلى عدم النزول فى البحر ، أو الصيد فيه . وضع العساكر طابوراً طويلاً أمام رصيف الكورنيش ، يرفضون الإذن حتى لمن يطلب البحث عن قريب فى مساكن السواحل ، أو ورش المراكب ، بالنفاذ من الحائط الذى أحكموه بأجسامهم ..

قال أمين عزب :

ـــ زادت قناديل البحر لأنكم تصرون على صيد الترسة..

قال عباس الخوالقة :

ـــ وما شأن الترسة بالقناديل ؟

قال أمين عزب :

ـــ الترسة هى العدو الأول للقناديل .. لكننا نصطادها..

قال الخوالقة فى عجب :

ـــ تنصحنا بعدم صيد الترسة ؟!

قال أمين عزب :

ـــ أو تتحملوا أذى قناديل البحر !

قال الخوالقة :

ـــ هل رأيت زحام النسوة ، وبأيديهن الأكواب لشرب دم الترسة ؟

قال أمين عزب :

ـــ تخريف ! زوال العقم بإرادة الله ، ثم بعلاج الأطباء .. وليس بشرب دم الترسة ..

قال الخوالقة :

ـــ من يشرب دم الترسة يصبح فى قوة الحصان ..

قال الشيخ عوض مفتاح :

ـــ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ..

همس الخوالقة بالدهشة :

ـــ تفتى ببطلان شرب دم الترسة ؟..

قال خميس شعبان :

ـــ دم الترسة يشفى من أمراض كثيرة ..

أسرع كر الشيخ عوض مفتاح بحبات المسبحة :

ـــ ألست مسلماً ؟..

قال خميس شعبان :

ـــ بالطبع يامولانا ..

قال الشيخ عوض :

ـــ فعليك أن تؤمن بما أحله الإسلام ، وما حرمه ..

اتسعت عينا عم سلامة :

ـــ فهل أصبح كل الذين شربوا دم الترسة من الكفرة ..

قال الشيخ عوض :

ـــ إذا لم تكن تعلم ، فلا تثريب عليك .. وهل يعلم أحدكم أن لحم الحوت حرام ؟!..

ثم وهو يبعد ما بين يديه فى تأكيد :

ـــ لا يحل للمسلمين أن يأكلوا أو يبيعوا من السمك ما ليس له قشر !..

قال محمد صبرة :

ـــ على المعلمين أن يمنعوا ذبح الترسة فى الحلقة ..

قال عباس الخوالقة :

ـــ وماذا عن خارج الحلقة ؟..

قال محمد صبرة :

ـــ أعرف أن الحلقة هى المكان الوحيد لذبح الترسة ..

استطرد عم سلامة :

ـــ والصيف هو موسم التكاثر ..

- ٨ -

وزع الشيخ عبد الحفيظ على المصلين فى على تمراز مصاحف ، يتلون منها عقب صلاة العشاء . زادت أعدادهم ، فضاق بهم صحن الجامع ، يتلاغطون بالقراءات المرتلة ، العالية ، والهامسة ، والمتباطئة ، والمتلعثمة . لا يترك

أحدهم المصحف الا بعد أن يتم جزءاً من القرآن ، ثلاثين يوماً متصلة ، أتموا فيها الأجزاء كلها ..

- ٩ -

عجزت كل المحاولات عن رفع القناديل من امتداد الشاطئ ..

قال الجد السخاوى :

ــ لا تتركوا الشاطئ مهجوراً أو هادئاً .. اشغلوه بالحركة .. عندما يشعر القنديل بالحياة من حوله ، فإنه يفر الى بعيد ..

ارتفعت الطبول والدفوف ، وجرت الحركة فى امتداد الشاطئ . بدا مميزاً هتاف المتظاهرين فى ميدان محمد على باشا . اختلط بهتافات المتظاهرين فى الميادين والشوارع الأخرى . وزاد المشجعون فى استاد البلدية من هتافاتهم . حتى مشيعو الجنازات الى العامود والمنارة ، علت تكبيراتهم . تعالى الأذان فى غير موعده من مآذن الجوامع والمساجد والزوايا ، ودقت أجراس الكنيسة المرقسية ، وأطلقت

المراكب فى الميناء الغربية صفافيرها ، وارتفعت تهليلات حلقات الذكر ، ودعوات رجال الطريق . وصخبت النداءات فى زحام شارع الميدان . علت الصيحات من النوافذ والشرفات ، وفى الدكاكين والقهاوى ، ومن فوق الأسطح ، وترامى نباح كلاب ومواء قطط ، وأجفلت طيور النورس ، فأطلقت صيحاتها على امتداد الشاطئ ، وتقافزت الأسماك فوق المياه ..

ـ ١٠ ـ

لا أحد يدرى من أين ، ولا متى انطلقت الشائعة ..

قاسم الغريانى هو أول من همس بها إلى حمودة هلول فى قهوة الزردونى . علا صوت هلول بالخوف . عرف الجالسون ما حدث . ردوه إلى آخرين ، وهم يسرعون الخطا إلى البيوت . قيل إن مئات الألوف من قناديل البحر طفت فوق المياه على امتداد الساحل بأبو قير ، وإن التكاثر يتسع ، فلابد أن تجاوز القناديل البحر والشاطئ ..

صعد جابر برغوت إلى مئذنة سيدى على تمراز .

دعا:

" اللهم ، وقد دعاك هذا النفر من عبادك ، الساعون إلى ثوابك ، المجتمعون ببابك ، فزعاً من عقابك ، وطمعاً فى ثوابك ، وقِبَلَهم من الذنوب ما قد أحاط به علمك ، وأحصاه حفظتك ، فعُد عليهم فى موقفهم هذا برحمة توجب لهم جنتك ، ونجيرهم بها من عذابك . آمين ، يا أرحم الراحمين ! "

بحر الأنس

قال أبو الحسن الشاذلى :

" اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم ، فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لانعلم بما لا نعلم ؟.. فمتى فتح لك أيها المريد باب الفهم عنه فى المنع ، وعلمت مافيه من الشر والخير ، وحسن النظر لك ، عاد المنع فى حقك هو عين العطاء "

***

قال أبو العباس المرسى :

" أهل المحبة والشوق على قسمين : قوم اشتاقت نفوسهم على الغيبة ، فلا سكون لهم إلاّ باللقاء ، وقوم اشتاقت أرواحهم على الحضور والمعاينة والشهود ، فلا سكون لهم إلاّ بالغوص فى بحر الأسرار ، وتنزل المعانى على قلوبهم "

أزعجت عباس الخوالقة شائعة تناقلتها الأفواه فى الحلقة ، ان الحكومة ستمنع صيد الترسة . هى عدو القناديل ، ولابد أن تحيا ، وتتكاثر ، لتواجه خطر القناديل ..

قال لمحمود فى لهجة تحذير :

ــ هذه مسئوليتك ..

منذ اختطف الموت مصطفى ، ترك لمحمود التعامل مع مصلحة المصايد وخفر السواحل ، وصيادى البلانسات ، والسماكين ، وشروات الحلقة ، وإيجار شقق العمارتين فى الحجارى والكورنيش . لا يسأله عن تصرفاته . يأخذ ما يعطيه له محمود . يدسه ــ بتلقائية ــ فى جيب السيالة ، أو الجلباب ..

قال جابر برغوت بنبرة متوعدة :

ــ هذا نذير ..

وداخل صوته المتسائل غضب :

ــ ألابد ــ لكى تصدقوا ــ من ظهور الدابة والمسيخ الدجال ؟!..

راعه نور لامع كالومضة ، عبر الأنفوشى من خلف مساكن السواحل إلى سراى رأس التين ، واختفى . خطف

نظره ، فغابت ملامحه ، وما إذا كان شهاباً أو معجزة إلهية يقتصر فعلها على أولياء الله الصالحين ..

لو أنه أطال النظر ، ربما اكتملت الإشراقات والإشارات النورانية ..

لاحظ أنه يطيل ــ فى الفترة الأخيرة ــ مراقبة حاله مع الله ، ويترصد خطوات نفسه . أنس إلى الخلوة . استوحش ممن ضدها . وقف فى محل المناجاة . تعلم أسرار الحضرة : المفاتحة ، والمواجهة ، والمجالسة ، والمحادثة ، والمشاهدة ، والملاطفة ، وصفاء التسبيح . قطع المسافات ، وقاسى الشدائد والأحوال ، واستقام فى مواصلة السرائر ، واستبصر بشموس المعارف ، وتمكّن من البساط من حيث القرب ، حتى تكشّفت له الأنوار ، وأدرك المقامات ، وملأ نور المعرفة زوايا نفسه . تمنى أن يحيى طرق الأنفاس الصادقة بعد درسها ..

مضت أزمان وهو فى حال التطهر عن محبة المخلوقين . أزمع أن يترك التقدم بين يدى الله ، فكل شئ موقوت بأمره وشرعته . وكان يلزم معظم وقته مقام سيدى الأنفوشى فى جامع على تمراز . يتولى بنفسه تبخير المقام ،

ويوقد الشموع ، يؤنس نفسه بالذكر ، وتحصيل الأوراد ، ويقرأ من حزب الشاذلى . يدرك أن من صدق فى الولاء ، وفى التوجه ، وسلامة القصد ، لا يحتشم من مقاساة العناء ، وتحمل الأذى . وكان يردد " السلام جل جلاله " ليسلم من شياطين الإنس والجن ، ووسوستهم ، وكيدهم ..

فاض الوارد الإلهى عليه ، غيّبه عن نفسه ، واقتطعه من مشاعره . احتد بصره وبصيرته ، وأصاخ السمع إلى الهاتف بداخله . استروح ما لاح له من مكاشفات الأقطاب ، وسمع وقع أقدام النمل . أحس بتعاظم فى داخله ، فهو أكبر من الفراغ المحيط . زادت الأمكنة اتساعاً . امتلأت بالتكوينات المتراقصة والألوان والظلال . أشرقت الآفاق بضياء لم تألفه عيناه ، وسرت أشعة الشمس ساطعة ، باردة ، بأشواق الروح فى بدنه . تشكلت حركات واختلاجات وتمايلات وارتعاشات . ارتفعت الأشكال الشفافة إلى الفضاء العلوى . تراقصت الحوريات فى الجنة . انبعث من داخل النفس أصوات نورانية لم يستمع إليها من قبل ، ولا يعرف كيف أتته . تعالت الهمهمات والقراءات والتلاوات والأدعية والابتهالات والتسابيح والأهازيج والزغاريد ، ترددت

الأصداء . اختلطت أهازيج السحر بأصوات الملبّين حول الكعبة . تصاعد الذكر . شحبت ــ فى ارتفاعه ــ كل الأصوات المتلاغطة ، وعلت دقات الدفوف ونغمات الموسيقا وأصوات المنشدين والمغنين ، وترنمات الأوراد الصوفية ، وتضوعت روائح الورد والمسك والنرجس والكافور والطيب والعنبر ..

تاه فى عظمة الله . تحير فى قدرته . خشع له بدوام الانكسار . شغل قلبه بتسبيحه ، عود نفسه الاشتغال بذكره ، ألزمها حجة الرحمن . شرب فى كأس حبه . غرق فى بحر أنسه ، وتلذذ بمناجاته . لا يتدبّر ، ولا يختار ، ولا يريد ، ولا يتفكر ، ولا ينظر ، ولا ينطق ، ولا ينبسط ، ولا يمشى ، ولا يتحرك ، إلاّ بالله العلى العظيم . تبدو له بوارق أمل فى ضبابية الأشياء ، فالمدد لا ينضب ، والخصوبة لا تنتهى ..

ركن إلى راحة ضميره . تيقن أنه قد قام بكل ما أوحى به إليه ، وأمره ، أولياء الله الصالحين ..

ظل على نذره للرحمن بالصمت مع الخلق ، وترك المخاطبة معهم . هجر هوى نفسه ، وجانب ما يشغله ،

ويحجبه عن الله . لم يحفل بدعوى الناس ، ولا لما أصابه من بلاء ، وظل الصبر هو الغالب من أحواله ، واستغرق الإيمان بالله جميع أوقاته ..

قال للغضب فى عينى أمين عزب :

ـــ أنا مجرد ناقل رسالة ..

زعق أمين عزب :

ـــ من أرسلها ؟.. وإلى من ؟..

واجهه بعينين محدقتين :

ـــ أمرنى بحملها سيدى الأنفوشى إلى كل من رأيته ولو مرة فى حياتى ..

انتزع ابتسامة مريرة :

ـــ هى ولاية إذن ؟!..

دون أن يجاوز هدوءه :

ـــ أنقل الرسالة .. ثم أعود إلى الخدمة فى جامع سيدى ياقوت العرش ..

لم يحاول فى نفسه أن يجاوز ما هو عليه : خادم سيدى ياقوت العرش . وضع على كتفيه عبء التكليف ، ومضى . يبحث عن ولى الله الأنفوشى فى الجوامع والمساجد والزوايا

وأضرحة الأولياء . يتلقى الأوامر وما ينبغى عليه فعله . ينفذ ما طلبه ياقوت العرش . لا يضيف ولا يحذف ولا يتصرف بالهمة ، حتى يؤدى الأمانة بالتمام ، فيعود إلى مألوف أيامه . لم يدّع لنفسه العصمة ، ولا الاطلاع على حقائق الأمور وأسرار الشرع ، والاستغناء عن النظر والاجتهاد بالظن . تيقن أنه ليس من أهل الأسرار والإشارات . لا شأن له بولاية ، ولا مطمح ، ولا تطلع إلى حياة غير الحياة التى اعتادها . إن هو إلاّ محب للتصوف وأربابه ، لم يذق ما ذاقوه ، ولا عرف ما عرفوه . يقف على ساحل السلامة ، بينما غاص أولياء الله فى البحر دون أن يخشوا الغرق . للقطب خمس عشرة كرامة ، يصعب عليه أن يرقبها . الظل الوارف غاية السائرين ــ مثل الراكشى ــ فى طريق الاجتهاد ، لايصرفه انشغال بدنيا ولا بآخرة . أحوال أولياء الله مع الله ، كما حال الناس قبل الخلق وإنزال الشرائع..

تفجر فى داخله من الطاقات ما لا يقوى على كتمه . خربت الأرواح ، فزايلتها الحقائق . لم يحصل الخلق على الموعظة فى الوباء الذى بددته بركات الأولياء ، ولا فى

الحريق الذى أكل بيوتهم وأموالهم ، ولا فى قناديل البحر التى اقتحم بها الخوف كل البيوت . تلبست عليهم حقائق الأشياء ، فظنوا القبيح جميلاً . سلكوا سبل الغى ، وتنكبوا سنة الرشد ، واشتغلوا بما يلهى عن الحق ..

طويت الصحف ، وجفت الينابيع ، وشحبت الألوان ، وذوت ، وانطفأت الإشراقات ، وانطمست رائحة العطور . اضمحلت الديانة ، واستولت الغفلة ، ومحا الله الإيمان من القلوب ، وعمت الفتنة ، وفشت الضلالة ، وقل العلم ، وشاعت الجهالة ، وفشا الفسوق والعصيان ، وقطعت الأرحام ، وبيع الحكم ، وعطلت الحدود ، وعز الحق ، وكثر أهل الفساد ، فغلبوا ، وقل أهل الصلاح ، ففقدوا ، وأهينت النفوس المكرمة ، وهلك الفقراء من الناس ، وتعطلت الحدود فى كل جوانبها ، وعظم الكرب ، واشتد البلاء ، وعظمت المحن ، وشاع ما هو من أشراط الساعة . بدّل الخلق نعمة الله كفراً ، ولم يقابلوا إحسانه لهم بالشكر . الناس فى بحار القدرة ، تتلاطم الأمواج حول سفينتهم ، لا ينجو إلاّ من يشاء الله بنجاته ..

صغرت الدنيا فى عينيه ، وأثقله الفزع من العقاب . لم يعد يؤدى صلاة الجماعة فى مساجد الحى ، وإن لم يدّع إسقاط التكليف ، ولا الراحة من أعبائه ، ولا حاول مجاوزة السكون والرضا بحكم الذات الإلهية . الجماعة وحشة لا أنس ، والبدع والمنكرات تتكاثر ، فهى بلا حصر ..

هل دنا فناء الدنيا ، وزوالها ، وأذنت بالوداع ؟..

لجأ ــ بالدعاء ــ إلى الأخيار من رجال الغيب . سبعة أو ثلاثمائة ، لا يعنيه العدد . ما يعنيه مواضعهم بعد العمد ، وقبل النجباء ، لكنهم فى سياحة دائمة بلا مسكن ولا مستقر ، وإن أكدت الروايات أن إقامتهم فى مصر . أكثر من الدعاء ليهتدى إلى البدلاء السبعة . يشرق على سره أنوار صحبتهم ، ويقع عليه شعاعها . يلامسه ، فينقله من حال إلى حال . قيل إن البدلاء سبعة ، وقيل إنهم أربعون ، يعرفون سائر الأولياء ، ولا يعرفهم من الأولياء أحد . إذا نقص واحد من الأربعين أُبْدِل مكانه من الأولياء . حتى النجباء القائمين بإصلاح أحوال الناس وحمل أثقالهم . لم يلتق بالمشاهدة ، ولا بالإلهام ، بواحد من الأربعين . قيل إنهم يتصرفون فى حظوظ غيرهم ، وإن كانت حظوظهم بلا مزية . تطلع إلى

الأوتاد ، الرجال الأربعة من رجال الغرب ، فى مقام التمكين ، منازلهم على منازل جهات العالم الأربعة ، ثبتت أركانهم ، وبهم قوام العالم كالأوتاد للخيمة ، مع كل وتد خيمة ، فهم أفضل من البدلاء متبدّلى الأحوال والمقامات ، وأخص من البدلاء وأرفع درجة . ثبتت أركانهم ..

ثمة لائحة برقت له من حيث لا يدرى ، ثم انطفأت . صبر على الوجيعة ، وسلم النفس إلى مولاها ، يظهر خصوصيته فى أقوال وتصرفات . ينزل فى ضيافة الحق : الخلوة مجلسه ، والأنس شهوده ، والجوع طعامه ، والمبة شرابه ..

طال توقعه لما صدق المجاهدة فى انتظاره ، من ولى الله الأنفوشى ، أو سواه من أولياء الله الصالحين ..

انتقال إلى الأسمى

رفع المخطاف من الماء ..

كان الموج الهادئ يتدافع فى موجات قصيرة ، بطيئة ، نحو الشاطئ ، تتداخل بالمياه ، وتنحسر . يبهت التألق ، وتخلف مساحات غير مستوية من الرمل المزبد . وكان الموج يرتطم بجانب الفلوكة فيتناثر الرذاذ . يعلو ، ويتسع مداه . تتشكل غلالة شفيفة . وترامت أصوات قريبة لنوارس..

الصخرة ، الجزيرة ، الحلم ، ملأت عليه صحوه ومنامه . ما قاله الجد السخاوى عفو الخاطر ، وأثاره الرجال فى جلسات الزردونى ، تعاظم فى داخله . ناقشه بينه وبين نفسه . تشكلت صور وتكوينات وألوان وظلال . بدت هدفاً يستحق بلوغه المجازفة ..

انتقل الحديث على أفواه الرجال ــ إلى حمام الأنفوشى . نفاه عم محجوب . علا الصخب بالتعليقات . هدأ الصخب

فى أذنيه بعد أن غادر الحمام ، وإن ظل داخله . ينداح ويتشكل ويهب ملامح ..

قال الجد السخاوى :

ــ الجزيرة تحيط بها طلاسم تحمى كنوزها .. يكفى الإنسان ما ينوى فعله لتفعل هذه الطلاسم أفعالها ..

قال بيومى جلال :

ــ ألا أردد قراءات أو أدعية ؟..

قال الجد السخاوى :

ــ لا شئ .. إلاّ أن تسقط من بالك كل ما تسعى إليه ..

ووشى صوته بطيبة :

ــ الناس يذهبون إلى الجزيرة ، ويجلسون فوقها ، فلا يواجهون الخطر ..

ثم وهو يزيح بقايا زعانف علقت بظهر يده :

ــ إذا أفلحت فى إسقاط التدبير من رأسك .. لن ينالك أذى ..

تمنى الزواج ــ وهو طفل ــ من جنية بحر ..

علا صوت أمه :

ــ لا تذهب بعيداً .. فقد تخطفك جنية البحر ..

سأل :

ــ هل تقتلنى ؟..

قالت للفزع فى عينيه :

ــ لا .. لكنها قد تغوص بك لتحيا فى مدينتها تحت البحر ..

فكر لحظات :

ــ أتمنى أن تخطفنى جنية البحر ..

دفعت الأم أمامها بأصابعها الخمسة :

ــ الشر برّة وبعيد .. أمك تريدك ..

الكوة الصغيرة ، المغلقة ، خلف الصخرة ، تضع فيها عرائس البحر من كنوزها . ما يدخرنه للبشر إذا أردن إغوائهم للغوص فى البحر . تهمل العرائس حراسة الكوة . ساعة محددة ، صعب على الغريانى تحديدها . يرقصن فوق المياه ، وفى التماعات أشعة الشمس ، يعلو معها نثار الأسماك ويهبط .. لكن سطوة المعلمين ، وسلف الشتاء ، والتسديد فى الصيف ، وكثرة المناطق الممنوعة .. ذلك كله ــ وغيره ــ يستحق المجازفة . يجدف بالفلوكة ، يطمئن إلى خلو المكان . غياب الأصوات والطرطشات وتحرك الموج .

يرصد الكوة قبل أن يقترب منها . يقترب منها فى لحظات ، ويعود فى اللحظات التالية ، يحصل من داخل الصخرة ــ دون أن يتعرض لأذى العرائس أو الجنيات ــ على كنوز وأموال ونفائس وجواهر . يحيا بها إلى آخر العمر ..

همس للجد السخاوى بما يشغله ، فقال فى تأكيد :

ــ البحر ملك لعرائسه ..

وشردت نظراته :

ــ فى قاع البحر أسرار يصعب على البشر رؤيتها أو فهمها .. فهى تتصل بالقدرة العلوية ..

قال محيى قبطان :

ــ حتى إذا استطعت الحصول على ماتريد ، فلن تستطيع بلوغ الشاطئ ..

وهمس بالتأثر :

ــ البحر يعطى ويأخذ .. يعطى الرزق ويأخذ ــ إن أخذ ــ الحياة نفسها ..

وعلا صوته فى تحذير :

ــ حتى إذا عدت إلى بيتك بما يعينك على الحياة ، فلن تستطيع الاقتراب من البحر ثانية

وواجهه :

ـــ هل تقوى على الابتعاد عن البحر ؟! ..

هذه الأخشاب الصغيرة ، المتناثرة ، كثيراً ماتطفو على الشاطئ . بقايا مراكب ، أهمل ركابها النصيحة ، واقتربوا من الجزيرة بنية الصعود إليها . فاجأتهم الأمواج العالية ، فابتلعتهم ، وحطمت ما كانوا يركبونه من فلوكات ودناجل . وثمة من تضطرب الأمواج حوله ، وتثور . تصبح جبالاً صغيرة ، تتقدح منها النيران . تحرق القارب بمن فيه ، حتى تأتى عليه تماماً . قد تقترب من القارب أسراب كأنها النورس ، ما تلبث أن تثقب القارب كأسماك المنشار ، حتى يتفكك ويغرق ، أو تظلم السماء لهبوط طائر هائل الحجم ، ينقض على القارب بمخالبه ، ويرتفع به ، ثم يبصقه ، فتتلقفه المياه الشديدة الحرارة ، كأنها إناء كبير يغلى . ربما اجتذبته الصخرة الزلقة إلى هوة يسقط فيها ، لا يجد ما يأكله أو يشربه ، حتى يموت . وربما هب إعصار ، يرفع الأمواج ، وتثور الرياح والعواصف ، وتهب النوات على البحر والشاطئ . تؤدى جنّيات البحر رقصات ، ترافقها أصوات تغنّى بما لا يقوى على احتمال صخبه . تنهشه ـــ إذا حاول

الفرار ـــ من مؤخرته ، يهوى به الألم فى قاع البحر ، أو يعوم وهو ينزف ، فلا يصل إلى الشاطئ . فى الليل ، تخرج مخلوقات سوداء ، تصعد إلى المركب ، وتصحب ـــ قبل أن يأتى الصباح ـــ كل من فيه ، إلى حيث لا يعرف أحد . وربما لحقه الموت قبل أن يصعد إلى باب الجزيرة . الأعشاب الخضراء تتشكل فى ثعابين وحيات تتقافز عليه ، وتدخل عينيه وأنفه وفمه وأذنيه ، لا تتركه حتى يغيب عن نفسه ، وعن الحياة كلها . الحيات الهائلة الحجم ، تظل فى مواضعها ، تطيل النظر إلى الإنسان الذى تواجهه حتى يفقد الوعى ، ويسقط فى مياه البحر ، فتصعد إليه أسماك متوحشة ، تنهشه ، وتلتهمه . الأعشاش الساكنة فى الواجهة ، تنطلق منها غربان سود ، تخترق حدقة العين ، وتبتلع مابها . وتنطلق من الثقوب طيور تضرب الإنسان بأجنحتها . كل ضربة تخلف ناراً فى الموضع الذى تلامسه . لا تهدأ حتى تنتشر النار فى الجسم ، وتأتى عليه . الأسنان الحادة المتناثرة فى الصخرة ، تمزق لحمه ، تقطعه . يفقد توازنه ، فيسقط فى الأمواج الدائمة الفوران حول الصخرة . يعجز عن الصعود على الطحالب الزلقة ..

قال الجد السخاوى :

ـ لا خوف على من يكتفى بالكوة و يظل بعيداً عن الباب ..

همس بيومى جلال :

ـ الباب ؟..

قال الجد السخاوى :

ـ للصخرة باب .. ووراؤها أضعاف ما فى الكوة من كنوز ..

قال خميس شعبان :

ـ اتجه إلى الجزيرة دون أن تضع فى بالك أنك تتجه إليها .. العرائس يعلمن بما يشغل النفس .. يأمرن الأمواج فتثور ، ربما اجتذبتك دوامة لا تفلح فى التخلص منها ..

همس بيومى بالتهيب :

ـ سمعنا عن غياب من تزوجوا عرائس البحر ..

وداخل صوته توتر :

ـ هل سمعت عن أحد مات عند الصخرة ؟ ..

قال حمودة هلول :

ـ لأن الجميع يعرفون خطورة الاقتراب منها ..

قال خميس شعبان :

ـــ هناك روايات عن رجال فكّوا الطلسم ، وأفلحوا فى النفاذ إلى باب الجزيرة ..

وشوح بيده:

ـــ ولكن هؤلاء الرجال ليسوا فى زمننا ..

همس بالتوتر :

ـــ لا أحد من العائلات التى نعرفها ؟..

قال خميس شعبان :

ـــ هم من بحرى .. ثلاثة أو أربعة .. يذكر الجد السخاوى أنه عاصر واحداً منهم .. المعلم سباعى سويلم مات فى شباب الجد السخاوى ..

فكر لحظات ، ثم قال :

ـــ سأكون رجل هذا الزمن !..

لا شأن له بكل ما تفضى اليه الصخرة من عوالم جميلة : الأسماك المضيئة ، الأعشاب الخضراء تتشكل فى سندس . البرتقال المسحور بذره من الياقوت ، النوارس تحمل فى مناقيرها حبات لؤلؤ..

ارتخت قبضتاه على المجدافين . أطال تأمل ما حوله..

تناثرت على الشاطئ مزق أوراق وملابس ، وفردة شبشب ، وقطع خشبية ، وعلب سجائر فارغة ، وبقايا لعب أطفال . التمع زبد الماء تحت انسكابات أشعة الشمس ، والصخور فى القاع مغطاة بالأعشاب الخضراء ، والأسماك الصغيرة تتقافز على السطح الرائق . وثمة نسائم هادئة تلامس جريد النخيل فى الجانب المقابل من الطريق ، فتصدر صوتاً كالوسوسة ..

تناهى الأذان من أبو العباس بما لم يستمع إلى عذوبته . تجلت ــ فى السماء ــ أشكال كأنها السحر . ترامت ــ فوق الأمواج ــ أصوات غناء غامضة . غابت الكلمات ، وإن بدا اللحن سماوياً . اصطبغت المياه بألوان قوس قزح . حلقت طيور بيضاء ، ابتعدت عن الشاطئ ، وعادت إليه . اختفت الظلال بتقاطع الألوان ، وتشابكها . تضوعت رائحة مازجت بين الياسمين والقرنفل والعنبر . انثالت على الذهن رقصات عرائس البحر ، وملاطفات حور العين ، وسحر جوارى الحكايات القديمة ..

اعتدل فى جلسته . أمسكت قبضتاه بالمجدافين ، وبدأ يحركهما ، يدفع بهما الماء ، يحاول الوصول إلى التقاء زرقة السماء بزرقة البحر ..

حين التفت ــ بعفوية ــ إلى الوراء ، بدا الجانب المقابل للشاطئ صفاً طويلاً من البيوت المتلاصقة . شحبت ، وذوت . تحولت إلى خط رمادى ، متماوج ..

الوقوف على باب الولاية

قال أبو الحسن الشاذلى :

" كنت أنا وصاحب لى نعبد الله فى مغارة ، ونقول : فى هذا الشهر يفتح الله علينا .. فى هذه الجمعة يفتح الله علينا .. فوقف على باب المغارة رجل عليه سمات الخير ، فقال : السلام عليكم . فرددنا عليه السلام ، وقلنا له : كيف أنت ؟.. فنهض علينا ، وقال : كيف يكون حال من يقول : فى هذا الشهر يفتح الله .. فى هذه الجمعة يفتح الله .. لا فتح ولا فلاح .. هلا عبدنا الله كما أمرنا ؟.. ثم غاب عنا ، ففهمنا من أين أخذنا ، فرجعنا على أنفسنا باللوم ، ففتح الله علينا "

قال ابن عطاء الله :

" لايكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح فى الدعاء موجباً ليأسك ، فهو يأمن لك الإجابة فيما يختاره لك لا فيما تختاره لنفسك ، وفى الوقت الذى يريد ، لا فى الوقت الذى

تريد . لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك ، فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعاً ، من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه ، فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره افعاً ؟. ربما أعطاك فمنعك ، وربما منعك فأعطاك " .

بدا له الجامع فى غير الصورة التى تركه عليها . كأنه قد مضى على مغادرته الجامع أعوام طويلة . الباب الخشبى الضخم ذو الضلفتين ، بدا أصغر مما اعتادته عيناه ، والصحن أضيق مما تركه عليه ..

منع قلبه من الأمور الدنيوية ، وجميع ما سوى الله . قطع علائقه ، وفارق ما ألفه من العادات ، واكتفى بالله مطلقاً . ظل على وحشته عن الخلق ، ورغبته فى الفرار منهم . أصم أذنيه عن سماع كلماتهم . سد أنفه عن شم رائحتهم . أغمض عينيه عن رؤيتهم . داوم على ملازمة القرب ، ومنع قدميه من السير فى غير الطريق التى حددها له سيدى ياقوت العرش ..

ضاقت به السبل . ركبه شعور بالعزلة والوحدة وفقدان الحيلة ، وأدركه اليأس والقنوط من أن يرى فرجاً . لم يعد

أمامه إلاّ أن يأمل فى ظهور ولى الله الأنفوشى . يبلغه بما كان ، وما يجب عليه اتخاذه ، تعلو هواتف الحقيقة ، ترفع الهمة عن الأكوان ، وترقى به مقامات الفناء فى الأفعال ، والفناء فى الصفات ، والفناء فى النفس . يستشرف الفتح الذى هو جزاء السائرين ، ويهيئ له أولياء الله التنعم فى جنات المعرفة ..

لو أنه تعلم اللغة الخفية ، وأدرك السر ، وتكشف له ما يصعب فهمه ؟..

الإشارات والأسرار والرموز ، لن يفهمها إلاّ بالتلقى عن أولياء الله . أودعت الإرادة الإلهية فيهم أنفس الأسرار ، وهم معصومون من الخطأ. قلوب الأولياء مرايا ، يرون فيها ماغاب عن سواهم . تشرق الأنوار الإلهية على قلوب الأولياء ، تنعكس فى أورادهم وأحزابهم وأقوالهم . لهم الولاية الكبرى ، والمكاشفة العظمى . يدركون العلوم والمعارف من الظن واليقين والشك وملامسة الحقيقة ..

أجهده البحث عن سيدى الأنفوشى ، فى داخل قلعة قايتباى ، وفى مدرسة البوصيرى ، وجامع سيدى على تمراز . استبطأ وجود الإقبال . لم يبلغه سيدى الأنفوشى بما

نذر المتبقى من حياته لأجله . لم يلتقط الإشارة ولا الوميض . أهمل وجوب اقتصار تلقى الأوامر على القطب ياقوت العرش . كلماته هى الجسر بين ما تطلبه الإرادة السماوية وبين الناس . اتجه بدعواته ، وأمله ، إلى الأوتاد الصالحين ، ثلاثون وتداً ، لا يراهم ، ولا يراهم أحد ، وإن كان بيدهم أمور المسلمين ، لكن الأيام ظلت على وتيرتها الواحدة ، وإن لم يتخل عنه إصراره فى أن يلتقى بسيدى الأنفوشى ، يفصح له عن مقام نوره ، فى مكان لا يعرفه . يثق أن اللقاء حتم . ينصت لتوجيهات ولى الله ، يهبه القدرة على المواصلة ، تتكسر له قوانين الوجود ..

هذا زمان أشهب لايراه إلاّ البصير . القول الفصل فى عزم أولياء الله الصالحين وإرادتهم . أولياء الله هم أئمة العارفين ، وخلاصة الصالحين ، وقدوة الواصلين ، والمقربون من الحضرة الإلهية . فروا بقلوبهم وعزائمهم من دنيا الحلق الزائلة . طلبوا الفناء عن أنفسهم ، والفطام عن شهوات الحياة ، والزهد فى ملذاتها ، والابتعاد عن مظاهرها ، والصيام عن حرماتها ، والإخلاص فى مشاهدة الحق ، حتى اتسعت لهم ميادين الأسرار ، وأشرقت أنوار الحضرة .

لم يرهم إبليس فى الدنيا ، ولا حاسبهم منكر ونكير ، ولا فتح لهم رضوان أبواب الجنة . هم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ..

غاب الزمان والمكان والمرئيات والتوقعات . لم يعد إلاّ الحق الموجود الثابت . الأقطاب باب الله الأعظم ، واليد التى تأخذ بأيدى الداخلين إلى الحضرة . سفن النجاة ، والأنوار الهادية . يفرح بهم أهل السماء ، وأهل الأرض ، والطير ، والأسماك فى البحر . حصلوا على مفاتيح العلوم يهتدون بها إلى الطريق السالكة . يفيدون من خزائن العلم ، وخفايا الحكمة ، فيستنقذون الناس من الضلالات ، ويقضون بما يرون أنه الصواب . الظفر مقرون ببنودهم ، والنصر معقود بألويتهم ..

راعه أن الناس لايزالوا واقفين مع ظواهر الأشياء . اغتروا بعاجل الدنيا ، ولم يعنوا بما تخفيه الآفاق . ولا عرفوا قدر أنوار الملكوت ، أو شعروا بها . طووا بساط العبادة ، لا يقربوه ، واستطابوا الدعة ، فخصهم الله بخذلانه ، وصرف قلوبهم عن ابتغاء رضوانه . أسندوا ظهورهم إلى أموالهم ، فخذلتهم ، واحترقت ..

الدنيا هرج ومرج ، والسبل مقطوعة ، والمسالك مسدودة ، والمهالك كثيرة ، والفتن لا نهاية لها ، تنتهى لتبدأ ، تتواصل وتتشابك وتمتد . اختنقت أهازيج السحر . تعثّرت الكلمات على شفتيه فلم ينطق بها . تصاعدت الأشكال الهلامية إلى فوق ، إلى حيث لا يراها أحد ، وتغيب . ارتفعت الريح السوداء ، كنست أمامها مروج العنبر ، وآكام القرنفل ، وميادين الصندل ، وتضوع المسك الأذفر والكافور ، وتغريد الطير ، وإشراق الحور العين ، والأنوار المتدفقة من بحار الجبروت والإمداد الربانى والعظمة والرفعة والجلال والبهاء . خلت الصوارى من الأشرعة ، طيّرها الريح إلى مدى الأفق . بدت مئذنة على تمراز مائلة ، توشك على السقوط . صرخ ، وجرى فى اتجاه شارع فرنسا ..

أسرف فى التحذير من الفتنة ، والتخويف من المحنة الوشيكة ، والأهوال الشديدة ، الأليمة ، والأمور الصعبة ، والكرب ، والبوار ، والكشف عما هو مستور . عمى الخلق عن شهود الحقيقة . ماتت قلوبهم كما تموت الأبدان . ركنوا إلى اختيار الدعة ، وآثروا طلب الدنيا على الزهد فيها ،

وجاهروا بالمعاصى ، وقارفوا الجحد ، وأصروا على الغىّ ، وتطوحوا فى متاهات التفرقة ، وتعودوا الإعراض عن الإيمان ، واحتالوا فى موجبات التخلف . استولى الباطل على الحق ، واستولى الحرام على أموال الناس ، وضلوا عن دينهم ، فلم يعودوا يأبهون بتواتر الفتن ، وتقارب الأمور ، وإحياء البدع ، وإضاعة حقوق الله ، وإماتة سنة الرسول ، وإهمال المجردات المقدسة ، والملائكة المكرمة ، وإهدار الدماء والفروج والأموال . تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . استباحوا الحرام والفواحش والظلم ، وحرّموا على أنفسهم كل ما افترضه الله من الفرائض ، وبدا عوار الدنيا واضحاً ، فازدادت إدباراً ، وازداد الناس شحاً ، وانطوى بساط الشرع بالكلية ..

كلما تصور انقضاء الفتن ، عادت كأشد ما تكون . لاحت نذر مخيفة . انطمس نور الحقائق ، واشتد حجابها ، وذهب المعروف ، وفشا المنكر ، وقبض العلم ، وتقارب الزمان ، وظهرت الفتن ، وكثر الهرج ، وعظم الكرب ، وعم الرعب ، واشتدت المشقات والأنكاد ، وسقط الناس فى وهدة ضيق التدبير ، ومحنة الغفلة ، والغيبة من شهود

التقدير . طلعت الشمس من المغرب حالكة السواد ، وبدت الدنيا مثل الفضاء قبل ظهور الشمس ، تملأه الظلمة ..

ثمة فارق بين أنوار النجوم الضعيفة ، وأنوار القمر التى تخفف ظلمة الليل ، وأنوار الشمس الساطعة . أنوار الأولياء دائمة لدوام ظهور نور رسول الله فيهم . أوقاتهم ليس لها طرفان ، وبحورهم بلا ضفاف ، فهم ورثة العلم الذى للرسول دون الخلق . أولياء الله ماتت أهويتهم ، وخلصت أرواحهم ، وتجردوا من الريب ، وسلموا من العيوب ، وتجاوزوا مراتب الحجج والبراهين ، واستقامت بواطنهم وظواهرهم لله ، ووصلوا إلى مرتبة الكشف الإلهى ، واختصت أرواحهم بشهود عظمته تعالى ، وبالحقائق والأحوال والمقامات ، وتخمَّر فى بواطنهم صريح العلم ، وانكشفت لهم الآخرة ، وتبينوا الحشر والصراط والميزان وتطاير الكتب وأحوال الجنة والنار ..

الله وحده يعلم خواص عباده ، ويسترهم عن الأجانب . لا يعرفهم إلاّ أهل الحقيقة . أولياء الله ــ لهم المقام الأكمل ــ أفضت مجاهداتهم الشرعية إلى المقامات المحمودة فى دار الآخرة . اجتباهم الله ، فأكمل لهم النعمة . يملكون رجاحة

الذهن ، وصحة النظر ، وصدق الرؤية ، وهو ما لا يثق أنه يملكه ، أو يثق أنه لا يملكه . وهبهم الله شراب العشق والمحبة ، وعرفهم علوم الباطن ، وفقهم علوم الظاهر ، ويسر لهم معارف وأسرار ومنازل وأحوال وأذكار وأوراد وأقوال وكرامات ، فتحقق لهم المحو والفناء ، حالة لا يعرفها إلاّ أرباب المجاهدات والرياضات والذوق والمشاهدة من صرعى العشق الإلهى ، وهيأ لهم الكرامة ، وميزهم بالقدرة على استجلاء غوامض المعانى والأحوال ، فبلغوا مقام المعرفة ، وانتهوا إلى مقام الوصول . يشاهدون فى اليقظة الملائكة وأرواح الأنبياء ، ويسمعون كلمات عنهم ، ويكتسبون منها الفوائد ، تهيأت أسرارهم لحمل أعباء العرفة ، ومسئولية التبليغ ، وقدرة المتابعة ، فهم يصدرون آراءهم عن تدبر . ويجاهدون فى الله حق جهاده ، ويحيون السنن التى أميتت ، وينفخون الروح فى الجذوة الخامدة ، ويستدفعون الشر ، ويستجلبون الخير. الحق أعينهم التى يبصرون بها ، آذانهم التى يسمعون بها ، ألسنتهم التى ينطقون بها ، أيديهم التى يبطشون بها . يتقاصر نور الشمس فى المقابل من أنوارهم . يطهرون البلاد من الأدناس ،

ويسترون ــ بعدلهم وبركتهم ــ قلوب المؤمنين . يفتح الله على أيديهم حصون الضلالة ، والقلوب المغلقة ، ويطهرون وجه الأرض من الطغاة ، والبغاة ، والساعين فى الأرض بالفساد . تنعدم الغارات ، ويحل الأمن والأمان ، ويكثر الخير ، وتعمر الأرض ، وتعظم البلاد ، وتشرق الصحبة ، والأسرار الصافية ..

متى يغيثه الأقطاب العظام ، زينة الأرض . زينة الجنة . ورثة الأنبياء ، القائمون بالقسط ، المعتصمون بكتاب الله ، المجتهدون فى متابعة الرسول . يمدّونه بزيادة زيت المدد . يظل مصباح القلب متقداً إلى غير نهاية ، لا تطفئه النوات ، ولا العواصف . يهبونه الكلمات التى طال تشوقه لها ، فتنقطع همته عن المتعلقات ، ويفتحون عليه باباً من المعانى ؟..

متى يأتون ، أو يأتى الدجال ، وينزل عيسى ، فيقتل الدجال ، ويخرج يأجوج ومأجوج ، ودابة الأرض ، ويذوب قلب المؤمن كما يذوب الملح فى الماء ، وتطلع الشمس من المغرب ، ويقبض الله الأرض ، ويطوى السموات كطى السجل للكتب ؟..

* * *

لمح بقعة مضيئة ، كأنها نجم ، ظهرت فى أفق الميناء الشرقية ، ثم اختفت . أثارت خلفها ذيلاً من الألوان . هتف :

ــ هذا إنذار من السماء !

الشمس فى أفق المغيب

دخل قهوة البحر ، وأغلق الباب وراءه ..

قصد الكرسى المجاور للنصبة . وضع " الغلق " أمامه ، وطلب كوباً من الشاى ..

تبادل الرجال نظرات الدهشة ، وبدوا غير مصدقين ..

كانوا يلتقون به فى وداع البلانسات المسافرة ، وفى الشاطئ ، وفى شوارع بحرى ، وفى المساجد والزوايا وحلقات الذكر والدكاكين .. لكنهم لم يعودوا يرونه فى القهاوى ، ولا يجلس مع الرجال ، بعيداً عن البلانس ..

قال له محيى قبطان يوماً :

ـ أريد أن أرى نقودك !..

أطلق الجد السخاوى ضحكة مبتورة :

ـ نقودى أولى بها كفنى ، وإلاّ دفنت عرياناً !

أصبح فمه بلا أسنان . تبدو الكلمات مدغمة ، ويأكل على لثته ، أو يمضغ الطعام فى جانب فمه ، أشبه بالكلب

عندما يضع بين أضراسه قطعة لحم . وكان يحرص أن يكون الطعام طريا ..

رويت حكايات عن صداقته لأهل الباطن ، فهم ــ منذ وفاة زوجته ــ يلبون ما يطلبه ، فلا يحتاج من الناس شيئاً ..

انسحبت نظرات الدهشة ، وعادوا إلى المناقشات والنرد والكوتشينة ..

بدا وحيداً فى جلسته ، يرشف من كوب الشاى . ترك نفسه للشمس تماماً . عرى صدره ذا الشعيرات البيضاء القليلة . وظل رأسه بلا غطاء فى مواجهة شمس الصيف الملتهبة ..

ألف العزلة فى أيامه الأخيرة . لا يشغله إن أخذ الآخرون وأعطوا ، أو لم ينصتوا إليه ..

قال فى نبرة هادئة :

– أنا ماشى ..

هدأت الأصوات ، واتجهت الأعين إليه . حتى عبد البصير ، عامل النصبة ، توقفت الماشة فى يده قبل أن يضع الحجر فى الجوزة ..

قال موضحاً :

ــ أتأهب لسفر طويل ..

وأسبل جفنيه على عينيه :

– سأنام فى قبرى بعد ستة أيام ..

عبر الصمت الذى حل فجأة :

ــ ربما استطعت أن أحمل منكم كلمات إلى الغائبين ..

بدت لهجته أسيانة بما لم يعهده الرجال . كأنه يرى النهاية فى مدى الأفق . ولتساقط أسنانه ، كان ينطق السين ثاء ..

انطلقت من حمودة هلول ضحكة ، حاول كتمها ، فأخفق . قال :

ــ قل لأبى إنى أحسده على الآخرة !

أنّبه قاسم الغريانى بنظرة مشفقة ، ومال على الجد السخاوى :

ــ هل تشكو مرضاً ؟..

صدّق الجد السخاوى طلوعه للوحش داخل البحر ، وقتله . أصر أن يظل السكوندو فى رحلات البلانس ، واختاره ــ بدلاً منه ــ فى قيادة البلانس ، حين خذلته عافيته..

هز الرجل رأسه بثقة :

– صحتى جيدة والحمد لله ..

قال الغريانى :

– فلماذا تخشى الموت ؟..

هز رأسه :

– أنا لا أخشاه .. وإنما أتوقعه ..

وتهدج صوته :

– أعرف أنى سأموت خلال أيام ..

قال الغريانى :

– وكيف عرفت ؟..

أغمض عينيه :

– أعرف !..

وضع الغريانى وجهه بين يديه :

ــ المسألة أنك تريد العودة إلى البحر ..

أضاف فى مرح متكلف :

ــ أنت الريس وأنا السكوندو فى الرحلة القادمة ..

لاحظ أن الدوخة كانت تدهم رأسه ، وقدميه لم تعودا تساعدانه على الوقوف ، أو المشى . إذا مشى ، يجر خطاه .

يعلو صوت احتكاك مداسه بالأرض . يبطئ من خطواته ، لا يقعد أو ينهض إلاّ إذا امتدت إليه يد تعينه ، والرعشة تضايق حركة يديه . حتى عينيه ، غامت الرؤية أمامهما فلا يتأكد إلاّ إذا اقترب . وحين زادت آلام جسمه ، قال له الطبيب فى مستشفى رأس التين : أكلك الروماتيزم يا رجل . ولاحظ أنه يتردد فى عبور الطريق من السيالة إلى سور الأنفوشى . يتأكد من غياب السيارات العابرة . كان يعبر الطريق ، دون أن يشغله التلفت ..

همس محيى قبطان :

ــ ربما زاره عزرائيل فطلب مهلة !..

جاراه حمودة هلول فى الهمس :

ــ وربما أخبرته الشمس التى يصاحبها ..

تداخلت فى صوته بحة غريبة :

ــ من يريد أن يبلغ موتاه شيئاً مهماً ، بوسعه أن يقوله لى ..

انفسح السبيل للضحكات . انطلقت بلا قيد ، حتى قاسم الغرياني دارى فمه براحته ، وأهمل الجميع ما بأيديهم ..

مع تقدم أعوام الجد السخاوى ، فإنهم لم يتصوروا أنه يصاب بالخرف . وكانوا يلجأون إليه فى مشكلاتهم ، وفى مواعيد الطلوع إلى البحر ، والهروب من النوات . حتى فى المرض ، كانوا يفضلون نصائحه على الذهاب إلى الحاج محمد صبرة ، أو إلى مستشفى رأس التين ..

لاحظ الرجال تغيره ، منذ موت زوجته ..

عاد من البحر . فوجئ بنسوة يعرفهن ولا يعرفهن . غطين البيت بالسواد : الباب الخارجى ، والسلم وحجرات الشقة التى فتحت عن آخرها ، وزوجات أبنائه ، يتنقلن داخل الشقة ، ويبكين ..

فتش ــ بالذهول ــ عن امرأة بالذات ، عن وجه بالذات . انتفض لصوات امرأة فى وجهه . تبعها بقية النسوة بنحيب وبكاء وصراخ وصوات . جلس إلى أبنائه الثلاثة فى زاوية الزواوى الملاصقة . عرف أن ذلك هو اليوم الثالث لوفاة زوجته . صرف الجميع ــ عقب صلاة العشاء ــ وأغلق الباب عليه ، وعليها . يجدها فى أنحاء الشقة ، تمشى ، وتقعد ، وتنام ، وتصحو ، وتقف فى المطبخ ، وتؤدى الصلاة ، وتنادى ــ من البلكونة ــ على ولد ليأتى لها بما

تحتاجه . لازمته ذكريات أكثر من خمسين عاماً ، حتى طرق أبناؤه الباب فى ضحى اليوم التالى . شاركهم الفطور . حادثوه . بدا فى وضع المنصت ، لكنه كان قد أسلم نفسه لذكريات قريبة وبعيدة ، لأخذ وعطاء ، ودعابات ، وضحك ، وخصام ، وأيام صفو ومرض وتوقع ، وزيارات ، وقعدات فى صالة الشقة ، وفى البلكونة ، وداخل حديقة رأس التين ، وعلى شاطئ البحر ..

سأل :

ــ هل كانت بمفردها ؟..

قال أكبر الأبناء :

ــ حرصت فى الأيام الثلاثة الأخيرة أن تترك باب الشقة مفتوحاً ..

علا حاجباه :

ــ لماذا ؟..

ــ لم تقل السبب ..

قال بنبرة متشككة :

ــ كنتم معها ؟..

ــ جلست معنا يوماً كاملاً ..

فى لهجة مشفقة :

ــ هل تعبت ؟..

ــ همست بالشهادتين عند أذان المغرب .. ثم ..

وخنقه البكاء ، فسكت ..

صحبوه ــ فجر الخميس الأول ــ إلى مقابر العامود ، والسؤال يلح عليه : هل رحلت المرأة بالفعل ، فلا تعود ؟..

كان ــ إذا خلا إلى نفسه ــ فى البلانس ، أو فى القهوة ، أو فى الشقة ، أخرج من جيبه صورة صغيرة متهرئة . يطيل تأملها ، ويشرد ، يدقق فيما يراه هو ، ولا يراه أحد . استغرق فى حياته معها . التفاصيل الصغيرة والمنمنمات . تكرر نسيانه ، فأعاد ما روى مرات . ورأى زوجته ، فيما يرى النائم . كانت جالسة مغطاة بالورود والرياحين . ترتدى ما لم يره فى حياته . سألها عن أحوالها . قالت إنها على خير ، وإن طال انتظارها له . ورأى المرأة معه فى مركب ، صاريها ذهب ، وقلعها حرير ، وحبالها حرير ، وفرشها سندس أخضر ، وفيها كنب مبطن بريش النعام ..

قيل إنه اشترى كفناً ، دسه تحت مرتبة السرير . أحزن أنه يموت دون أن يسافر إلى الحج ، ويزور قبر الرسول .

فى إحدى المرات القليلة ، المتباعدة ، التى كان يزوره فيها أكبر أبنائه ، أوصاه بأن يؤدى فريضة الحج بدلاً منه ..

روى قاسم الغريانى عن حمادة بك . إذا شاهد جنازة فى الطريق ، لاذ ببيته . يدس جسمه فى الفراش ، ويغطى حتى رأسه ، خشية الموت !

قال قاسم الغريانى وهو يربت ــ بود ــ كتف الجد السخاوى:

ــ هذه فرصة ليتحدث كل منا عن وصيته بعد الموت..

قال محيى قبطان :

ــ أوصى جميعى حميدة أن تلقى جثته فى البحر بعد موته ..

قال حمودة هلول :

ــ هل يريد الفرار من حساب الملكين ؟!

قال الغريانى :

ــ بل هو يفر مما توعدته به امرأته ..

وعبر بيديه :

ــ أعلنت أنها سترقص فوق قبره ..

قال خميس شعبان :

ـــ زوجة هلول تزمع اختصار المسافة ، فتبصق على كفنه !..

وتتهد :

ـــ عندما أحس مختار زعبلة بنهايته ، نزل البحر ، ومات فيه !..

انكشاف السر

اقتحم غرفته أصوات متداخلة ..

مشى ــ بين اليقظة والنوم ــ إلى النافذة المطلة على ميدان الخمس فوانيس . نفض رأسه . أغمض عينيه ، وفتحهما . تبين أمام سيدى على تمراز رجالاً لا يعرفهم ، أحاطوا برجل عار ، إلاّ من سرواله الخارجى . حتى الحذاء خلعه ، ووقف حافياً . أمسك شاب يرتدى بنطلونا وفانلة صيفية ، بما لم يتبينه فى وقفته خلف النافذة . ويدفع ــ بأصابع اليد الأخرى ــ صدر الرجل العارى ، والغضب البادى فى وجهه يبين عن قسوة الكلمات المتلاحقة ..

هنف بالمفاجأة :

ــ من ؟..

بدا تردده على سيدى على تمراز مفاجأة للكثيرين . لم يعرف عنه أنه يؤدى الصلاة . علا إيقاع المفاجأة فى حرصه على صلاة الفجر . لم تصدق الأعين المتشككة مارواه عن

صدق توبته ، واستعداده للسفر إلى الحجاز ، والعودة كيوم ولدته أمه . لمحت انتقال " الصنف " من البلقطرية إلى فرن التمرازية ، ثم إلى وقت صلاة الفجر داخل الجامع ..

واصل التردد على الجامع . يؤدى الصلاة فى أوقاتها . حتى صلاة الفجر يؤديها حاضراً . يستمع إلى الكثير من دروس الغرب . ربما أطال البقاء بعد الصلاة . يكتفى من الشيخ جابر برغوت بإجابات مدغمة ، أو بالصمت . أفزعه قوله المفاجئ : هذا بيت الله . أهمل الالتفات ناحيته . يسحب مصحفاً من المكتبة الخشبية الصغيرة . لايتركه الا لمحادثة أصدقاء ، يطيلون القعدة ، أو ينصرفون حالاً . يغادر الجامع إلى الفرن . يغلق عم سلطان الخادم أبواب الجامع وراءه ، ويمضى الى بيته ..

يتنقل بين المعجنة والفرن وبنك الماركات . يسأل ، ويجيب ، ويأمر ويشخط ، وينطر . عهد إليه الحاج عنتبلى بالفرن ، قبل عشر سنوات . لما آل الفرن إلى وحيده ، أبقى عليه حمادة بك . اكتفى بالتردد على الفرن كل حين ومين . يتسلم الايراد ــ فى نهاية اليوم ــ من فؤاد أبو شنب ..

عرف ـــ بطلوع الضحى ـــ أن البوليس ضبط أبو شنب يبيع المخدرات داخل الجامع . أشد ما يكون البيع عقب صلاة الفجر . يخلو الجامع من المصلين ، وتخلو حركة الطريق . يسهل تبين الأعين الراصدة . المرشد نبه إلى أن الرجل يبقى قطعة الحشيش فى قبضته . يقتطع منها حتى تنفد . إذا دهمه الخطر ، قذف بها . نفى التهمة أسهل مما لو أن البوليس وجد الحشيش فى جيبه . لكنه كان يحمل فى لفافة مغطاة بقطعة قماش خضراء ، قطعة كبيرة من الحشيش ، قسمت إلى أجزاء ، وأعدت للبيع ..

قيل إن البوليس شم الخبر من عم سلطان . هو الذى وشى به . أدهشه أن الرجل يؤدى صلاة الفجر فى وقتها ، ولم يكن يدخل الجامع من قبل ، ولا عرف أنه يؤدى الصلاة . لاحظ الهمسات ، والأيدى التى تتبادل ما لم يتبينه ..

همس بما تيقن منه للشيخ ربيع المنسى ، إمام الجامع ، فأبلغ البوليس ..

قال المعلم أحمد الزردونى :

ـــ الفرن إذن واجهة لتجارة المخدرات ..

زفرعباس الخوالقة فى ضيق :

ـ أنفق حمادة بك أموال أبيه فى الانتخابات والمسخرة!

سأل قاسم الغريانى :

ـ هل يقبضون على حمادة بك ؟

علا صوت عبد الوهاب مرزوق :

ـ ألقوا القبض على أبو شنب بالمخدرات داخل الجامع..؟

أضاف بنبرة واثقة :

ـ لاشأن لحمادة بك بما حدث ..

أشفق عليه انشغاله فى التهيؤ للانتخابات . قال حمادة بك إنه لا شأن له بالفرن والبيوت إلاّ فى تسلم الإيراد . ترك لفؤاد أبو شنب حق التوقيع على عقود البيع والشراء . إذا واجه مشكلة ، حلّها بنفسه ، لا شأن له هو بها ..

* * *

غادر أدهم أبو حمد قسم الجمرك بعد المغرب . المفاجأة تحاصره بالذهول ، وعبارات ضابط مباحث قسم الجمرك تناوشه . ألقى السلام على فؤاد أبو شنب ، والعساكر يقتادونه خارج الجامع . خمن ضابط المباحث أنه ربما يشارك أبو شنب تجارته . صحبه إلى القسم . أمضى

النهار فى سين وجيم ، حتى اقتنع الضابط أن الجيرة وحدها ، صلته بأبو شنب ، فأفرج عنه ..

لقيه جلساء قهوة المهدى بالتهليل ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ــ نزلت النصف فى أقل من يوم !

اغتصب ابتسامة :

ــ هم وقلة مم !..

وتقلصت ملامح وجهه :

ــ منه لله أبو شنب الكلب .. آذى نفسه ، وآذانى ..

رنا إليه ابراهيم سيف النصر بمشاركة :

ــ جارنا أمين عزب أمضى فى السجن ثلاثة أشهر بوشاية كاذبة ، فلم يشك ، ولا ألقى حتى على الواشى مسئولية ما حدث ..

ثم وهو يتحسس الكلمات :

ــ قضاء يوم فى سين وجيم لا يعنى نهاية العالم !..

فارق بين دخوله السجن من قبل ، ودخوله إليه هذه المرة . واجه الشتائم والإهانات والتعذيب .. لكن الأسئلة عن تهمة حقيرة ، آذته . صعبت عليه نفسه ، وتمنى الموت ..

كان المهدى اللبان أول من عرف ماحدث ..

بعد أيام من حريق القاهرة ، شاهد رجالاً يرتدون الثياب المدنية ، يصحبون أمين عزب إلى سيارة سوداء أمام باب البيت . تعالت صرخة من الطابق الثالث ، أسكتتها نظرته الزاجرة . مضت السيارة فى شارع إسماعيل صبرى ، ثم مالت فى طريق الكورنيش ..

نادى المهدى على الولد طاهر وهو فى طريقه إلى المدرسة :

ــ ماذا جرى ؟..

غلب الارتباك على الولد ، وسكت ، وترقرقت الدموع فى عينيه . شخط المهدى فى الجرسون نجاتى لما قال إن أمين عزب يقرض زواره بالربا ..

ظل ما حدث مخفياً ، حتى وقف التاكسى أمام باب البيت ، ونزل منه أمين عزب . طرأ على جسمه هزال ، وتداخل عنقه بين كتفيه ، وبدا وجهه هضيماً ، مصفراً ، وأطلت من عينيه نظرة ساهمة ..

قال أمين عزب وهو يشرد فى المدى :

ــ جاءوا ببلاغ أنى آويت فدائيين فى بيتى ..

هتف المهدى :

ـــ أنت ؟!

وهو يغتصب ابتسامة :

ـــ هذا ما أخبرونى به عند استضافتهم لى .. لم يتبينوا خطأ البلاغ إلاّ بعد ثلاثة أشهر !

لم يكن من يجلس أمامه أمين عزب ، الذى طرد الرجل الغريب من قهوة الزردونى . بدا ضعيفاً ، ومتخاذلاً ، ولا حول له . حتى فنجان القهوة دفعت به إليه يد من وراء الباب الموارب . قدمه بيد مرتعشة ..

أين كنت أيها الرجل ؟.. ماذا فعلوا بك ؟..

هرش المهدى ذقنه ـــ فى حيرة ـــ بطرف أصبعه :

ـــ نصيحتى أن تمتنع عن استقبال أحد فى بيتك ..

خنق الانفعال صوته :

ـــ وما ذنب الناس لأمنع عنهم صداقتى ؟..

ـــ أثق أن مقدم البلاغ من المترددين على بيتك .. ربما لم تستطع قضاء مصلحة له ..

قال أمين عزب فى انفعاله :

ـــ هذا ليس دافعاً لعزلتى عن الناس !..

لزم البيت ما يقرب من الشهر ، لايغادره ، ولا يستقبل الزوار . ثم عاش مألوف حياته . يعود من زاوية خطاب ، عقب صلاة العشاء . يقرأ ، ويستقبل زواره ، وينصت إلى المشكلات ، ويسدى النصائح . يعيد المرأة الناشز إلى زوجها ، والرجل الآبق إلى زوجته ، ويساعد ــ بهباته الشخصية ، وصدقات الميسورين من أبناء الحى ــ اليتامى والمطلقات والذين يقصدونه لعوز . ربما أغلق على نفسه باب حجرته ، فى خلوة لا يعرف أهل بيته ، ولا أى أحد كيف يقضيها ..

قال أدهم أبو حمد :

ــ أسئلة الضابط الشاب فى القسم ، كانت أقسى من حكم الإعدام ..

تكلف إبراهيم سيف النصر ابتسامة :

ــ السجن للجدعان !..

زفر فى ضيق :

ــ ذلك زمن مضى .. السجن الآن لفؤاد أبو شنب !..

استطرد فهمى الأشقر :

ــ وللولية إخلاص ..

قطب حاجبيه :

ــ من هى ؟..

قال الأشقر :

ــ الحركة الوطنية مدينة لها بما لا يتصوره أحد ..

وتصنع الجدية :

ــ قتلت المرأة من عساكر الانجليز بما كانت تحمله من مرض ، أضعاف من قتلهم المسلحون !..

طرف الخيط فى استعادة الذكريات : لما كنت فى السجن . ثم تومض مفردات : الثورة ، وسعد زغلول ، والمظاهرات ، والعمل السرى ، وعمليات الاغتيال . ربما فوجئ بالسؤال ــ بعد ما حدث ــ أى سجن ؟! هل يقوى على تحمل السؤال ، المفاجأة ، الصدمة ؟ وهل يرد ، أو يصمت ؟..

* * *

فى المساء ، روى عباس الخوالقة لأم محمود ومهجة ما حدث ..

قال فى لهجة متشفية :

ــ الله يمهل ولا يهمل .. دفع ثمن أذيته لنا !

وقال بنبرة متأثرة :

ــ لما شكوت إلى حمادة فعلة الرجل مع مهجة اكتفى بالاعتذار .. وفور علمه بما حدث اليوم ، زار مأمور قسم الجمرك ، وأخبره أنه قد فصل أبو شنب ..

والتمعت عيناه ببريق :

ــ طالب المأمور ألا يكتب فى المحضر صلة الرجل بالفرن حتى لا يسئ إلى سمعته

وبصق فى الفراغ :

ــ كلب !..

ورنا الى مهجة بنظرة حانية :

ــ أنت صغيرة .. والمستقبل أمامك ..

ومسح بالمنديل المحلاوى عرق وجهه :

ــ سيعوضك الله خيراً !

ثم اعتدل فى جلسته كالمتنبه :

ــ لا تتركى البيت كثيراً يا مهجة .. أولاد الحرام لا يدعون أحداً فى حاله ..

وأطلق أف منغمة :

ــ حتى حكاية المرحوم هشام يرددون عنها كلاماً سخيفاً ..

***

قال سيد الفران :

ــ الظروف أجبرتنى على السكنى فى البلقطرية ..

ولون صوته :

ــ أما أبو شنب .. فقد عرفت الآن سر حرصه على أن يسكن الشارع !

واستطرد كمن يحدث نفسه :

ــ هذا جزاء العيش المسلوق !..

وأنصتت أنسية ــ فى دهشة ــ إلى روايته عن دفع أبو شنب له ، كى يلقى الأرغفة فى الفرن والحرارة زائدة . يحمر وجه الرغيف ، يبدو مستوياً .. لكن الرطوبة تظل عالية داخله ، ويظل ناقص النضج ، وإن زاد وزنه ، فلاتشغله كبسات مفتشى التموين ..

***

لم يصدق الشيخ عبد الحفيظ فى البداية . زاره ابراهيم سيف النصر فى جامع القائد ابراهيم ، وروى ما حدث ..

هل كانت الصلاة واجهة لتجارة المخدرات ؟.. والأسئلة فى الدروس ، وقراءة القرآن ، ولزوم الجامع ..

هل كانت ضحكاً على الذقون ؟ هل كانت ضحكاً عليه هو بالذات ؟..

عامل الرجل بما ظهر به . لم يعد عنده رئيس عمال فى فرن حمادة بك . رأيه فى صاحب الفرن معلن . وكان انحيازه فى الانتخابات معلناً لمرشح الوفد ..

***

قال إبراهيم سيف النصر :

ــ خدعنى الرجل .. كنت أحسده على إصراره بصلاة الفجر فى موعدها ..

قال أدهم أبوحمد :

ــ مثله كثيرون ! ..

استطرد متذكراً :

ــ سمعت من الراديو أن حسين سرى قدم استقالته ..

قال الشيخ قرشى :

ــ صحف المعارضة أكدت أن استقالته لأنه رفض حل مجلس إدارة نادى الضباط دون الرجوع إليه ..

قال سيف النصر :

ــ الهلالى بدأ فى تأليف الوزارة ..

طوح أبو حمد يده :

ـــ تانى !؟

وخالط الانفعال صوته :

ـــ لماذا ذهب .. ولماذا جاء ؟.. وهل يرفع ـــ ثانية ـــ شعار التطهير ..

وعدل النظارة فوق أنفه :

ـــ أثق أن الناس لن يذكروا له فعلاً حسناً !..

قال إبراهيم سيف النصر ، وهو يتأمل ملاية لف قادمة ، تتأود ، من شارع فرنسا :

ـــ دعونا نتابع لعبة الوزارات الموسيقية !

حقائق الاتصـــال

في زاوية البيت الفاصل بين شارع أبو وردة ورأس التين ، اختلط الأمر ، فغاب اتجاه السمانة .انطلقت ــ مفزوعة ــ في اتجاه الميناء الغربية ، تلاحقها صيحات الأولاد ..

كان موسم السمان قد بدأ . والباعة يحملون الأقفاص . ينادون : سمان .. كواليا ..

واصل الكثيرون اندفاعهم إلى رأس التين ، بينما لحقت القلة بصيحة ولد ، اتجه إلى أبو وردة ..

تنبه محمد الراكشي للصيحة . لابد أن الولد رأى السمانة ، ومن اتجهوا إلى رأس التين ، جروا بالاندفاع وحده..

ألقى بالغلق الفارغ على الأرض ، وروى ما حدث ..

قال عسكري السواحل :

ــ صيد هذه الطيور ممنوع ..

تغيرت ملامح على الراكشي بالدهشة :

ـــ لماذا ؟..

قال العسكرى :

ـــ الأوامر !.. هذه طيور معرضة للزوال ..

قال فى دهشته :

ـــ كيف أترك رزقاً هبط علىّ من السماء ؟!..

هجر صيد السمك والطير فى أيامه الأخيرة . اجتذبه التصوف فلم يعد يهجره . وحين حاول العودة إلى دنياه القديمة ، أغرقته مياه البحر ..

استوقفه أمام جامع نصر الدين . سأله عن السمانة فى يده ، هل اشتراها ؟..

قال :

ـــ اشتريتها بقرشين من شارع الميدان ..

أمسك بالسمانة لحظات ، ثم أطلقها : طيرى !..

ذابت السمانة فى الفراغ ..

صرخ محمد :

ـــ دفعت فيها قرشين ..

رنا إليه بإشفاق :

ـــ كفارة عن ذنوب عليك ..

وهو يجز على أسنانه :

ــ حتى طعامنا تطيره ؟!..

ــ أمنعكم من أكل الحرام ..

ومضى فى سيره الذاهل ..

كان يستعيد وقفة أبيه فى ترقبه لأسراب السمان ، فى الساحة المقابلة لمساكن خفر السواحل ، الشريط الساحلى الضيق ، الممتد إلى ما بعد قلعة قايتباى ، يتوازى فى جانبيه مياه البحر وجدران البيوت . نشر بوظة الكلزة غزله فى الموضع الذى كان يقف فيه على الراكشى . طارت أسراب السمان فوقها ، أو اصطدمت بها ، فسقطت ميتة . خمّن أن كرامات الراكشى تفقده رزقه . نقل غزله إلى الساحة الجيرية المطلة على خليج الأنفوشى ..

خلا الموضع ــ فيما بعد ــ من الرماكة ، شباك صيد السمان الطويلة ، من المنطقة المقابلة لمساكن خفر السواحل..

بعد أن واجه مرعى بيبى ، فى الأرض المجاورة لمساكن السواحل ، نصحه الحاج قنديل بأن يهمل عرضاً بحراسة وكالة درويش ، ويظل فى عمله بالميناء :

ـــ مات أبوك على ولايته ، فلا تجعل الفتونة مهنتك!..

وضغط على الكلمات :

ـــ حين اعتدى مرعى بيبى عليك .. دافعت عن نفسك..

ودخل نبرته رنين :

ـــ الآن .. أنت مسئول عن إخوتك .. وليس عن أموال الناس !..

ارتفعت صيحات المطاردة ، وتزايدت أعداد المطاردين . ظلت السمانة تطير . تميل كيفما اتفق . يشغلها الفرار ، وليس اختيار الشوارع التى تتجه إليها ..

قال قاسم الغريانى وهو يتابع المطاردة :

ـــ أتمنى أن أطير مثل هذه السمانة فى بلاد الدنيا ..

وأطلق ضحكة منغمة :

ـــ شريطة أن تصطادنى شباك امرأة ..

تنبه للمطاردة بحار يأكل فطيرة من أبو العزم الحلوانى ، على ناصية الموازينى ..

لحق بالمطاردين ..

كان الطيران قد أنهك السمانة . تخبطت فى الفضاء ، وسقطت . هوت فجأة ، لم تمهد بالإبطاء فى طيرانها ، تقافزت تريح جناحيها ، ثم طارت ثانية ..

نزع البيريه الأبيض المستدير من رأسه . ضربها بآخر ما عنده ، وتماسك حتى لا يقع . انتفضت السمانة ، وقفزت إلى أعلى . توقع أنها ستواصل الطيران ، لكنها دارت فى نصف دائرة ، ثم سقطت . ارتعشت فى موضعها ، وطارت ..

كان على الراكشى يصطاد السمان . هجر بلانسات الحاج قنديل ، والسنارة ، والبيع فى الحلقة ، إلى تلقف أسراب السمان فى طيرانها الصاخب ..

هل يعجز عن صيد سمانة ؟..

وضع محمد كل إصراره فى الإمساك بالسمانة . يتوقف الآخرون بالتعب ، أو الزهق . يظل يجرى ، ويجرى ...

حلاوة القـــرب

تنبه لصوت محمد كسبة يغنى ..

كان يمشى على الكورنيش بلا هدف . أغلق الكشك لتناول الغداء والقيلولة . مضى خطوات ناحية البلقطرية ، ثم مال ــ بعفوية ــ ناحية الكورنيش ..

مال بأعلى كتفه يشاهد ما يجرى . الفلوكة بالقرب من الشاطئ . الرجال فوقها ، والغزل فى الأيدى . وثمة أولاد تناثروا على المكعبات الأسمنتية ، يشاهدون ..

صياد ورامى الشبـــــك .. م الفجر فى الميّه

باسرح واروّح يوماتى .. أعد الموج فى الميّه

آهين ياعشـــاق .. دا صيد السمــــــك غيّـــه

ما تكونش مكروش .. لا البحر فيه وحوش .. وتطب فى الميه

صياد ورامى الشبك .. م الفجر فى الميّـــه ..

صاح عم منجى :

ــ سمك المنشار غرس فى البلانس ..

ضرب محمد كسبة وجه الماء ــ بقطعة خشب ــ ضربات متوالية . ألقى قطعة الخشب على أرضية الفلوكة ، ومسح جبهته بظهر يده :

ــ فصلت الجسم عن الرأس الملتصق بالسفينة ..

واتجه إلى ولد فى الثانية عشرة :

ــ اصطده يا رأفت بعد أن يطفو ..

أطال الوقفة ..

تأمل صيد الجرافة منذ البداية . ثلاث ساعات ، وربما أكثر ، قبل أن توضع الأسماك فى الطبالى ، وتباع فى شروات على الشاطئ ، أو تنقل إلى الحلقة ..

سار القارب فى الماء نصف دائرة . مسح محمد كسبة المنطقة المحيطة بعينيه . لا صخور كى لا تتمزق الشباك عند سحبها إلى الشاطئ ، والموج حصيرة ، فيسهل سحب الشباك . ألصق أذنه بقاع البلانس ، ينصت إلى حركات الأسماك وأصواتها . تأكد من وجودها فى المياه حوله . فدعا الرجال إلى إلقاء الجرافة ..

ألقى الرجال الشبكة ذات الأعين الكثيرة . أسفلها مثقل بالرصاص ، واتصلت من أعلى بعوامات من الخشب ، وربط

طرفاها بحبلين طويلين . التقى نصف الدائرة عند وصول القارب إلى الشاطئ فى موضع مواز . كأنما الشبكة بالون كبير الحجم ، داخل المياه ، لا يبين منه سوى الأطراف التى طفت بقطع الفلين والعوامات . ثم بدأ مجموعتان من الرجال فى سحب طرفى الحبلين ، وقطع الرصاص تجرف القاع والأسماك والأعشاب والطحالب . تقافزت الأسماك داخل الشبكة . مختلفة ، كبيرة وصغيرة . تنفذ البسارية من الثقوب الضيقة ..

ترامى صوت محمد كسبة من أسفل الكورنيش :

ــ تريد عفشة يا سيد ؟..

اغتصب ابتسامة :

ــ يكفى الحظ !

قذف عم منجى بالغزل فى الماء :

ــ إذا أخذنا صغار السمك .. ماذا نصطاد فى الأيام القادمة ؟..

شوح محمد كسبة فى استياء :

ــ المنطقة مليئة بالكابوريا .. تأكل السمك والغزل أيضاً ..

قال صابر الشبلنجى :

ـ أحل الله الزواج من ثانية .. وأحل الطلاق ..

اربدت ملامحه :

ـ ماذا تقول ؟..

ـ من حقك أن تطلق الولية أو تتزوج عليها ..

أغمض عينيه ، وهز رأسه :

ـ أنسية بنت حلال ..

قال صابر :

ـ ومن أنكر ؟..

غلبه التأثر :

ـ الطلاق مستحيل .. وزواجى عليها يقهرها ..

وقال فى تأثره :

ـ ماعدا مسألة الخلفة .. فأنا أشعر مع أنسية بالاطمئنان .. ولا يمر بى من ناحيتها خاطر سوء ..

وهز يده فى الهواء :

ـ ربما لا أجد ذلك مع امرأة أخرى ..

أطلق صابر شخرة :

ـ اقتنع بما أنت عليه إذن !

خايله وجه أنسية ، سمرتها الرائقة ، وملامحها المنمنمة ، وحركاتها الطفولية . لا يتصور نفسه داخل شقة مع امرأة غيرها . هى الصورة الوحيدة للزوجة . لا يأتى فى باله سواها . شحبت كل الصور قبل أن يظهر سيدى ياقوت العرش فى حياتهما . حتى الأيام التى كان فى حياتها ، مثلما كان فى حياتها رجال من بحرى ، لا تشغله ، ولا يحاول تذكرها . ما يتذكره هو وجودها فى حياته ، منذ دعوتها له إلى بيت سيدى داوود . الأيام القديمة حلم لم يبق منه فى الذاكرة إلاّ مشاهد غائمة ، تختلط بمشاهد وجودها ، فى حياته ، فى البيت : انتظاره لها ــ فى عودتها من بيت عبد الله الكاشف ــ على ناصية دحديرة أبو العباس . تناول الغداء على نجيل حدائق الشلالات . انشغاله بها إلى عدم النوم ، بعد أن تطفئ قهوة كشك أنوارها . ليلة الزفاف فى قهوة كشك . أنا مقطوع من شجرة . قول الطبيب : الحمل طبيعى ولا يوجد ما يقلق . دلق الماء الفاتر على قدميه المتعبتين . انشغالها بنسج ملابس تريكو للمنتظر . التماعة الخوف فى عينيها من لوك فص الأفيون . ترقبها لمجيئه خلف النافذة المواربة . قدومها بفرحة الحصول على الشقة . ياللى على

الترعة حود ع المالح . بيومى جلال يقذف بالطبلة إلى أعلى ، ويتلقفها . الحانطور يقلهما إلى البلقطرية . تعدمنى . أنت الآن زوجتى بالورقة والقلم . لن أبات جعانة وزوجى خباز . ضحكتها المكتومة وهو يداعب ــ من تحت الملاءة ــ باطن قدمها . عودته كل مساء بوردة من الحديقة المجاورة لمستشفى الملكة نازلى . جلستهما أول كرسى بالعربة العلوية فى ترام الرمل ، ينفسح أمامهما الطريق بناسه وميادينه وشوارعه وأنواره الملونة . نظرتها المتابعة ، وتلويحها ، قبل أن يغيب فى نهاية الشارع . الوقفة بين ضلفتى النافذة المواربة ، تنتظر عودته . إغواء البلاط الأملس بالتمرغ عليه . ينقلبان عليه مرات ، حتى يصطدما بالجدار ، ثم ينقلبان ثانية . تقلص أصابعها فى مقصورة أبو العباس ، وعلى الوسادة بآلام المخاض المفاجئ . نذرها ــ إذا أنجبت ــ أن تتولى التسحير فى شوارع بحرى . إنصاتهما لنصائح الشيخ مكى قارئ سيدى نصر الدين . أنا أقبل من الله أصبع طفل . التعاويذ والتمائم والأحجبة وزيارة الأولياء ، وتناول الأعشاب والوصفات . نشيجها الذى قتله حين أقدم على أذيتها ..

زايله الضيق . حلت مشاعر إشفاق ومؤانسة . أزمع ألا يعيد على أنسية ما قاله الشبلنجى . يخشى أن تظن موافقته ، وأنه يمهد لما يعد له . تذهب إلى بعيد ، تتصور الطلاق نهاية . ما لم يكن يخطر فى باله ولا يشغله . ألفة وعادة وعشرة ، لا يتصور الحياة بدونها ..

كان مستلقياً على كنبة الصالة . أسند ذراعيه على المسند بامتدادهما . جلست تحت قدميه ، ومدت يديها ـــ كما اعتادت ـــ لتنزع حذاءه ..

فاجأها ـــ وفاجأ نفسه ـــ برفسة من قدمه فى صدرها . شهقت ، ارتمت إلى الوراء ، وهى تطلق صرخة مكتومة . تحاملت على نفسها ، واستندت على يديها ، ومضت ـــ باكية ـــ إلى حجرة النوم ..

لماذا فعل ما فعل ؟.. لم يكن ضايقها من قبل ولا آذاها ؟.. فلماذا فعل مافعل ؟.. يثق أنها تكابد نفس مشاعره ، وربما أشد ..

علا صوت نشيجها . تقدم إلى حيث تجلس على طرف السرير ..

ـــ آذيتك ..

احتضنها بنظرة ود :

ــ لن أسامح نفسى ..

وربت صدرها :

ــ لم أعد أطيق نفسى !..

* * *

دخلت على تمراز مدفوعة بحكايات تعيدها إلى مكاشفات أبو العباس وياقوت العرش . جثت على ركبتيها ، واقتربت من الشيخ جابر برغوت ، فى جلسته المتعبدة لصق المقام ..

كان الصباح فى أوله . الجامع بلا مصلين ولا زوار ، فيما عدا الشيخ ، وعم سلطان المشغول فيما لم تتبينه ناحية القبلة ..

زحفت ، حتى اقتربت . ألجمها التهيب ، فحافظت على مسافة بينها وبينه . حاولت استعادة كلمات أعدتها ، تصل بها إلى قلبه ، وتحرك مشاعره ..

ظل الشيخ على إطراقه الهادئ . ثم فاجأها بالقول :

ــ لن ينسى الله عباده الصالحين ..

أيقنت أن للشيخ سره الباتع . يعرف ما يجول فى الخواطر ، ويعلنه . الله لن ينساها إذن . اقتص لها سيدى أبو العباس من الظلم ، ووهبها سيدى ياقوت العرش ما بدا فى حياتها كالمستحيل ، فالله لن ينساها ..

تراجعت فى جلستها ، حتى لامست جدار حجرة الشيخ عبد الحفيظ ، على يمين الباب الرئيس ..

قامت باللهفة ..

عمق السكون السادر ، صدى زغرودتها الطويلة ، المجلجلة ..

الاستغــراق

تفتح النافذة ..

تطالعك الميناء الشرقية باتساعها فى مدى الأفق ، يقابلها سور الكورنيش . يميل من أول الشاطبى إلى شواطئ أخرى حتى المنتزه ، ومن انحناءة الترام عند حلقة السمك إلى الأنفوشى ورأس التين ، حدوة الحصان الهائلة ، طرفاها ــ من اليمين ــ مبنى السلسلة . ومن الشمال قلعة قايتباى ، يصل بينهما لسان حجرى غير مكتمل ، يصد الأمواج ، وتأذن فتحته بدخول السفن وخروجها . لا سفن ضخمة للركاب ، أو سفن حربية ، بلانسات ولواتس وفلايك ودناجل ، تدخل الميناء الشرقية ، ثم تخرج إلى عرض البحر ، أو ترسو فى الركن القريب من متحف الأحياء المائية والقلعة . تستقر نظراتك على المنتصف تماماً . يصعب تحديد المساحة ، فهى مياه . يتصورها الخيال ميادين وشوارع وبيوتاً وحدائق ، مثل الإسكندرية تماماً ، وإن اختلف ناسها عن ناس الإسكندرية ..

تغادر باب رقم ٦ فى الثانية بعد الظهر . تمضى فى شارع الجمرك القديم إلى نهايته ، لا تتلفت . اعتدت بيوته ودكاكينه . اعتدت حتى البحارة والسياح وسيارات الأجرة وسيارات النقل الضخمة ولافتات الشركات فوق المبانى . تستطيع السير مغمض العينين . تميل إلى سوق راتب ، تقلّب وتفاصل وتشترى . تراجع القائمة التى كتبتها فايزة . تتأكد من حصولك على ما أرادت . تعبر ميدان المنشية ، وأول شارع فرنسا . يبدو سور الكورنيش الحجرى فى نهاية المدى . يبين البحر عن نفسه فى شراع ، أو ظهر صياد سنارة ، أو المتطلعين إلى صيد الجرافة ، أو بلا ملامح محددة . زرقة السماء فوق البحر يصعب أن تتحقق إلاّ فوق مياه البحر ، كأنما تمتزج الزرقتان فى زرقة لها خصوصيتها الفريدة . تقطع شارع الترام . تخلف مبنى المحكمة . يطالعك البحر بتفصيلاته التى غيبها ابتعاد المرئيات : مبنى السلسلة ، وحاجز الأمواج ، وقلعة قايتباى ، ومئذنة أبو العباس تتصاعد من فوق البنايات ، وتعلوها ، وفلوكات صيد المياس ، وعمليات الصيد بالجرافة والطراحة ، وصيادى السنارة المتناثرين على السور الحجرى ..

تدخل البيت المواجه لمنتصف المسافة . حاجز المياه غير المكتمل بين السلسلة والقلعة . هكذا قدرت ، واطمأننت إلى تقديرك . تلقى التحية ، وتمضى الى النافذة المطلة على الشارع . تفتحها ، وتتطلع الى المشهد الثابت أمامك . تحوله ــ فى خيالك ــ إلى مشاهد غير مترابطة ، ولا منسجمة ، تتصورها ، تريدها ، تبدل ما فى حياة الناس ، وما فى داخلك . ربما تمتد جلستك إلى ساعة الغروب ، تتأمل ابتلاع الأفق لقرص الشمس الدامعى ، تتطلع إلى المراكب المتناثرة ، لا يشغلك شئ ، ولا تفكر فى شئ . تترك نفسك للحظات هادئة ، تقطر صفاء ..

لم تجد ما ترد به على أسئلة جلساء القهوة ، بعد أن لاحظوا شرودك . تخشى التعليقات الساخرة ..

قال الشيخ أحمد أبو دومة :

ــ لولا أنى أعرف استقامتك لظننت بك الحب ..

علا حاجبا إبراهيم سيف النصر فى استنكار :

ــ وهل الحب حرام ؟!

قال أبو دومة :

ــ إنه رجل متزوج ..

ــ هل الزواج جهنم الدنيا ؟!

قال فهمى الأشقر :

ــ يقصد أن المتزوج يقصر حبه على زوجته ..

قال أدهم أبو حمد :

ــ تتكلمون عن رجل صامت ..

ثم وهو يرنو إليك بنظرة مشفقة :

ــ هذه عادته .. لا يتكلم الاّ مرة أو اثنتين كل عام ..

لم يكن السحر يشغلك ولاعنيت به . جاست بك حواديت جدتك ، وأمك ، عوالم غريبة عن الأخت التى لا تفارقك ، وإن لم تترك موضعها تحت الأرض ، وتحدث أبوك عن عفاريت القيالة ، قد تصادف السائر على طريق الكورنيش عندما تتوسط الشمس قبة السماء ، تظهر له فى صورة البشر العاديين ، ربما تسخطه ، أو تجتذبه إلى داخل الماء .. استمعت لذلك كله ، وارتجف له جسمك ، ونمت بالخوف فى حضن أمك ، لكنك لم تحاول الدراسة ، ولا التعمق .

حين أكد أبوك حقيقة خاتم سليمان ، وأنه ليس مجرد حكاية فى حدوتة ، شغلك المعنى ..

أنت ألقيت بالسنارة فى الماء . اجتذبت السمكة ، سمكة عادية لا تختلف عن الأسماك التى طالما اصطدتها فى الميناء الشرقية . وضعتها فى الغلق الى ما سبق لك صيده ، وإلى أن امتلأ الغلق بما يمكن حمله الى البيت . فايزة تتولى تنظيف السمك وقليه ، لكنك ــ لاتدرى لم ــ أعلنت رغبتك فى أن تنظف السمك وتقليه ، وتعد السلطة ، وكل شئ :

ــ أنت ضيفتى يافايزة هذه المرة ..

تلتمع عيناها بالتأثر :

ــ لماذا هذه المرة ؟..

ــ أبداً .. محاولة للتعبير عن إعزازى لك ..

تحتضنك بنظرة دافئة :

ــ أنا أعزك بلا سمك !

نظفت سمكة ، وثانية ، وثالثة . ومض الخاتم تحت الزعنفة . تأملته ، قلبته ، مسحته . حدث ما حدث بمجرد أن جريت على الخاتم بإصبعيك . همس الصوت ، فتلفت ــ بتلقائية ــ مفزوعاً :

ــ شبيك لبيك .. خاتم سليمان بين إيديك ! ..

امتدت يدك المتسخة إلى فمك ، تكتم الصرخة ..

ـــ لا تخف .. عثرت على لأخدمك لا لأوذيك !

كم من الوقت مضى ، حتى استعدت نفسك ، واستطعت أن تتيقن مما حدث ؟..

كان إخفاء الأمر عن فايزة هو أول ما فكرت فيه . تحملت المفاجأة ، لكن التخمين صعب إذا واجهت فايزة المفاجأة نفسها . قلت ، كأنك تخاطب شخصاً ، كأنك تخاطب الخاتم : ليس الآن ! .. ودسست الخاتم فى جيبك . خلوت إلى نفسك ، وإليه ، فى الحمام . وضعته أعلى السيفون . حرصت ألاّ يجرى أصبعاك عليه ، فتعلو الكلمات أمام فايزة ، وأكلت ـــ لا تدرى كيف ـــ وأجبت ـــ بكلمات مختصرة ـــ على أسئلة فايزة ، وداريت انفعالك . وحين مضت إلى حجرة النوم قائلة :

ـــ ألن تستريح ؟..

قلت :

ـــ معى مذكرة .. سأقرأها أولاً ..

هل ظهر الخاتم ليحقق الحلم ، الأمل ، التطلع ، الذى يشغل حياتك ؟ هل يتيح لك مدينتك الجميلة ، الجميلة ؟..

لم بكن اختيارك لأبناء مدينتك الجزيرة ، جزيرتك المدينة ، عفو الخاطر ولا اعتباطاً ، وإن رفضت التسميات . ليسوا حزباً سياسياً ولا جماعة دينية أو اجتماعية ، وليسوا صفوة : إبراهيم سيف النصر وعبد الله الكاشف والشيخ قرشى ونجيب المهدى والشيخ أحمد أبو دومة وفهمى الأشقر وأدهم أبو حمد وزكى بشارة . لا يختلفون عن أهل الإسكندرية . والمدينة الجزيرة ليست مطلقة . تظل على صلة بالإسكندرية ، تتبعها ولا تنفصل عنها . تختلف عن الإسكندرية فيما يتطلع إليه ناسها ، فى أخلاقهم ومعاملاتهم . وفد آخرون غابت ملامحهم ، وإن ظلــت الأمور فى أيدى أصدقاء قهوة المهدى ..

صحوت على وميض البرق ، وقصف الرعد ، ورخات المطر ، تداخل معها صوت كالنداء ، أو التحذير ، أو الاستغاثة ..

فتحت النافذة ، فبدت الميناء الشرقية مغموسة فى الظلام ، والسحب الكثيفة المتراكمة ، حتى أضواء مصابيح الطريق انطفأت . تبينت ــ بالكاد ــ تصاعد أمواج فى وسط الميناء الشرقية ، عالية ، متدافعة ، متلاحقة ، ترافقها

أصوات لم تتبين مصدرها ، ولا مفرداتها . لما شفت الظلمة ، بدت الجزيرة ، المدينة ، إلى مدى الأفق ، إلى ما بعد حاجز الأمواج بين السلسلة والقلعة . الحاجز اختفى ، ولم يعد إلاّ الأرض الممتدة ، فوقها بنايات وحدائق وجوامع وميادين وشوارع واسعة ، تظللها الأشجار على الجانبين ، والأشجار مثمرة ، لا يحتاج من يريد ثمارها إلاّ أن يمد يده ، والبيوت تتخلل الحدائق والأشجار والورود ، والنافورات من الجرانيت والرخام والمرمر ..

لم تقصر الصلة بين الجزيرة والإسكندرية على الفلايك . بنيت جسراً حديدياً يصل بين شاطئ الميناء الشرقية والجزيرة . وافقت على الزيارات بين الأهالى ، وإن اقتصرت الجزيرة على سكانها متى حل المساء . لا ترفض الإسكندرية ، وإن رفضت ما فى المدينة من أشياء يعيبها أبناؤها . بدا عبد الله الكاشف مطمئناً إلى الحياة فى الجزيرة . يترك البيت إلى شاطئ البحر ، وإلى الحدائق ، والمساجد ، والمكتبات . متى عاد الكاشف ؟ هل يظل فى الجزيرة ، لا ينزل إلى الإسكندرية ، ولا يعود إلى قريته ؟ . قباب المساجد وآذانها تشع الأنوار ، تنعكس على مياه البحر . خلت المنابر

إلاّ من الشيخ عبد الحفيظ . رأيته يخطب فى كل المنابر . كلمات غير التى قالها فى على تمراز ، يهبها الناس إنصاتهم ، ويهزون الرءوس . كاد أدهم أبو حمد يدفع حياته ثمناً لاشتراكه فى التنظيمات السرية ضد الإنجليز ، ولم ينل حقه فى المكانة الرفيعة . أوكل إليه أهل الجزيرة ــ فى انتخابات معلنة ــ ما يتصل بالقضايا السياسية ، وعلاقات الجزيرة بالإسكندرية ، المدينة الأم ، وغيرها من المدن والقرى . واختاروا إبراهيم سيف النصر لحل المشكلات الشخصية . لا أقسام بوليس ، ولا محاكم ، ولا سجون . كل ما يعرض عليه ، يقضى فيه بالرأى الصواب . يلتزم بما يراه الجميع ، فلا مناقشة ولا اعتراض . من يصرّ على الخطأ يعبرالجسر إلى شاطئ الكورنيش ، فلا يعود . أبدى نجيب المهدى انبساطه للإشراف على الحدائق والمسرح ودار السينما . لم تعد هواية فهمى الأشقر تقتصر على الحمام . امتلأت سماء الجزيرة بالطير من كل الأنواع ، حتى التى لا تعرفها الإسكندرية . أسراب لا حصر لها ، تحلق فى تكوينات ، وتشدو . غابت ملامح عمل الشيخ أحمد أبو دومة ، وان ظل فى مدرسة لا كالكتّاب ، ولا حتى كمدارس الإسكندرية ..

شققت الترع والقنوات . أقمت الكبارى والخزانات . عبّدت الطرق . أنشأت مدرستين للمرحلتين الابتدائية والثانوية . تركت للمستقبل صورة الجامعة بعد أن أنشأت مستشفى ومسجداً وكنيسة ودار سينما ومسرحاً ، وزجاج واجهات الدكاكين يسمح بمد الأيدى ، والحصول على ما تريده . لا حواجز ، ولا أقفال ، ولا استئذان من أحد . البيوت من طابقين أو ثلاثة . أعمدة البيوت من المرمر المرصع بالزمرد والياقوت والمرجان . لم تعد الشقق لمجرد إتاحة الحياة بين جدران . الشقة مزودة بكل ما تحتاجه الأسرة . ما يطلبه المرء ــ أو يتمناه ــ يجده . خصص إبراهيم سيف النصر فترة الصباح لاستقبال الناس . ينصت إلى آرائهم وشكاواهم ، يفصل فى المشكلات والمنازعات . تسير فى الطرقات متخفياً ، تستطلع أحوال الناس . لا سجن ، والمدرسة بلا أسوار ، ولا أبواب . يرقب الآباء أبناءهم ــ دون تدخل ــ وهم يتلقون الدروس . يغادر الجزيرة حالاً من يسرق جاره ، أو ينظر إلى امرأة ليست من أسرته ، أو يتهيأ لنزال ، أو يكذب . خلت المدينة من اللصوص والمتسولين

والقوادين والمومسات والسماسرة . المغنيات يشدين بأنغام سماوية ، والجميلات يؤدين رقصات كالسحر ..

رنوت بعيداً الى سور الكورنيش ، والبيوت المصطفة على الجانب الآخر من الطريق . تتوقف عند بيت بالذات ، ونافذة بالذات ، هى الآن مغلقة ، فلا أحد داخل الشقة . كنت تقف وراءها ، تطيل النظر إلى الميناء الشرقية ، وتحلم . حقق الخاتم وجان البحر كل ما أردت ، لكن الحلم لم يتحقق . ظل هاجساً يشغل النفس ، أو أنها يئست من تحقيقه . حتى أدهم أبو حمد نفد صبره ، واستعاد ذكرياته القديمة ..

امتلأت المدينة بالكلاب الضالة والقطط ، وأطلت الثعابين من فجوات الأشجار ، واختلطت فى السماء أصوات الغربان والبوم والحدآت ، وتقافزت الفئران فى الشوارع والميادين ، وانتشرت روائح عطنة يصعب تنفسها ...

تدس يدك فى جيب البنطلون . تخرج الخاتم بالبنصر والسبابة ، تتأمله وتهز رأسك ، تلقيه فى البحر بآخر ماعندك ، لا يشغلك التوقع . تسير إلى اللنش فى مرساه . تنادى على سكان الجزيرة فى الميكرفون المثبت داخله :

ــ انزلوا إلى الإسكندرية بلا عودة !

يسرع القريبون ناحية اللنش ..

يقول إبراهيم سيف النصر :

ــ هل نتخلى عن الحياة فى الجزيرة ؟..

تقول :

ــ لم يعد هناك خاتم .. وطبيعة الحياة هنا لا تختلف عن الحياة فى المدينة ..

قول عبد الله الكاشف آخر ما يصل سمعك :

ــ والأحلام التى جئنا بها ؟..

تدير مفتاح الموتور ، فينطلق اللنش . تدير الدفة ، تصبح فى مواجهة النافذة التى تبلورت أمنياتك فى العودة اليها . تنزل المدينة ، تدخل الميناء . السفن الضخمة والأرصفة والرافعات والمخازن والحاويات والبحارة والمخلّصين والمصدرين والمستوردين والشيالين والقادمين والمغادرين ..

فى الثانية ، تغادر الباب الرئيسى . تجاوز الشوارع والحوارى والبيوت والدكاكين واللافتات . تفاصل وتشترى فى سوق راتب . تمضى فى الشوارع المستقيمة إلى طريق الكورنيش . تفتح النافذة ، تطالعك الميناء الشرقية بملامحها

الثابتة . تطيل النظر اليها ، وتسرح . تهمل ــ بعد القليلولة ــ سؤالاً ثابتاً ، يفاجئك به جلساء القهوة : أين أنت ؟..

الدخول فى دائرة النور

ألقى حافة الطراحة على كتفه الأيمن ، وأمسك الشبكة بيده اليسرى . على شكل مخروط ، يتصل برأسه حبل ..

ثبت قدميه بالأرض . مال بجسمه إلى الوراء ، وقذف الشبكة بآخر ماعنده ، والحبل فى يده يمنع انسياقها إلى الداخل ..

تابع الطراحة فى انتشارها على صفحة الماء ، وغوصها ــ بقطع الرصاص الملتصقة بها ــ إلى داخل الماء ..

أغلق حافة الشبكة ، على ما لمته الطراحة من سمك ، وسحبها إلى الشاطئ ..

ذكره محيى قبطان :

– يا عم رجب .. أنت تكتفى بنشر الطراحة ..

أضاف فى لهجة محرضة :

– اطرق سطح الماء بعصا أو الق حجراً ..

وقال للدهشة المتسائلة فى عينيه :

– هذه حيلة لاجتذاب السمك إلى الطراحة ..

واتسعت ابتسامته :

– حاول .. وادع لى ..

تبين صعوبة الإمساك بالطراحة ، وتحريك الماء . أزمع أن يصحب ــ فى المرات التالية – أحد أولاده ، يحرك الماء بعصا فى يده ..

لاحظ فرار السمك من خلال الطراحة . قرر اختيار الليل للخروج إلى الصيد ، فتختفى الظلال . لمح فى جانب الشبكة ثعبان المارينا ذى الأسنان الحادة . هل يلامسه فيواجه خطر الموت ؟..

حرك الغزل لإنزالها . ثم حاول تهشيم أسنانها بشئ صلب ..

أخفق ، فألقى بالطراحة فى البحر ، لا يريدها ، حتى لا يؤذيه ثعبان المارينا ..

ألقى بالمشنة على كتفه ، وتسلق السور الحجرى ، إلى الطريق ..

لقيه حمودة هلول فى مدخل السيالة بعين ذاهلة :

ــ الجد السخاوى مات ! ..

ردد العبارة فى غير تصديق ..

كان يتوقع موت الكثيرين : الحاج قنديل ، عباس الخوالقة ، المعلم الزردونى ، عم محجوب ، عبد الوهاب مرزوق ، جابر برغوت .. لكنه ألف وجود الجد السخاوى فى حياته ، مثلما ألف طلوع الشمس والقمر ، ووجود البحر ، وأضرحة الأولياء ، وتوالى النوات . وعى عليه وعرف ـــ من أبيه ـــ أن هذه هى الصورة التى عرفه فيها ..

كان الرجال يعلنون استغرابهم من العمر الذى طال به . يدخلون الأمر فى دعابات ، لكنهم لم يفكروا فى أن الجد السخاوى سيموت بالفعل ، يغيب عن حياتهم . كانوا يتركون له أمرهم منذ يطلق الصيحة : ألسطة . يعرف التيارات البحرية ، وأماكن الصيد ، وتوقعات الرياح ، والنوات ، والأمواج ، والمد والجزر ..

ألن يقود الجد السخاوى الرجال فى رحلات البلانس إلى البحار البعيدة ؟ هل تخلو منه قهوة الزردونى ؟ تظهر الشمس فلا يسترخى على الكرسى أمامها ؟..

قال الجرسون ياقوت :

ـ تصورت أن سيدنا عزرائيل نسى فى طريقه الجد السخاوى ، فنسيت فكرة أنه سيموت !

حتى أولاده الثلاثة ، فاجأهم ما حدث . لا يتصورون الحياة بدونه . يركب البحر ، أو يجلس فى قهوة الزردونى ، فى مواجهة الشمس حتى تنتقل إلى الناحية المقابلة . وفاجأهم الرجال بأنهم أعدوا كل شئ : حياكة الكفن ، واستخراج تصريح الدفن ، وحفر القبر ، وليالى المأتم ، وإن رفض النعش التحرك حتى جاء أولاده ..

رفع الرجال الكراسى . كوموها على ناصية صفر باشا . الأعداد الهائلة من المشيعين أجبرت الجميع على الوقوف فيما يشبه المظاهرة ، من شارع صفر باشا إلى كورنيش الأنفوشى ، وإلى شارع رأس التين والشوارع المتفرعة . امتدت الجنازة الهائلة إلى أبو العباس . خلق يبكون ، وتعلو أصواتهم بالدعاء . رجال ونساء . بدا كأن أبناءه يتعرفون إلى أبيهم للمرة الأولى ، كأنه والد الجميع ، يشاركونهم حبه ، ويشاركونهم الحزن عليه . ذابوا فى بحر البكاء والصراخ والصوات ...

عصر النبأ المفاجأة ، شكا إلى الحاج محمد من تنميل في يده ..

قال الحاج مداعباً :

ـــ هذه آخرة جلوسك فى الشمس ..

اربد وجهه بالغضب :

ـــ أجلس فى الشمس قبل أن تولد .. فلماذا الآن ؟..

عاد الحاج محمد من داخل الدكان بعلبة مستديرة من الصفيح :

ـــ ادهن بهذا المرهم قبل النوم .. وسيزول التنميل !

مضى ـــ ساعة المغرب ـــ ناحية الأنفوشى ..

وقف بالقرب من سراى رأس التين ، فى انحناءة الطريق إلى الميناء الغربية . نظر إلى قرص الشمس المتوهج فى نهاية الأفق . تناثرت الحزم الضوئية . زاد اتساعها فى دوائر متتالية . غمر الأفق ضياء لم يسبق له رؤيته . انعكست الأشعة القانية على وجهه . بدت بشرته مشربة بالحمرة . فض ما بنفسه . روى كل ما يشغله . ما لم يبح به للرجال فى البحر ، وفى القهوة . أعطته الشمس ـــ فى كلامها ـــ إشارات . علت الصخرة فى مدى الأفق .

صارت جبلاً عالياً ، تداخلت فيه سحب وتكوينات شفافة . تشابكت الألوان القزحية بما بدّل زرقة السماء وانعكاساتها على مياه البحر . حل المكان والزمان فى ملامح غائبة التفصيلات ، وإن وشت فى عمومها بعذوبة مطلقة ، ولحظات ممتدة إلى غير انتهاء ، وهتف : هنية ، لرؤية وجه المرأة يتصاعد من تكاثف السحب البيضاء ، واستعادت الذاكرة ما تصور أنه نسيه ، وخاطب أصدقاء طفولة وراحلين . عرف أن أوان الموت قد اقترب . عاد إلى البيت ليعد نفسه . فاجأته نفسه بأنه يحيا مع المرأة ، يناديها ، يسألها ، يجيب عن أسئلتها ، يتذكران أياماً مضت . اختلط الزمن ، فهو لا يدرى متى حدث ما حدث على وجه التحديد : تتسع ابتسامته لخجل أبدته ليلة الزفاف ، يوبخها لوقوفها على الشاطئ ــ فى غبشة الليل ــ حين تأخر البلانس عن موعد أوبته ، يظهر الضيق لقولها : كل زوجة عندما تغضب ، تذهب إلى بيت أبيها ، وبيت أبى فى الصعيد ، فأين أذهب ؟.. يحزنه انخراطها فى نشيج مفاجئ ، بعد أن تزوج ثالث الأبناء : هل أحيا لأرى أبناءهم ؟..

فاجأه نداؤه باسمها " هنية " . يناديها " أم عودة " منذ أنجبت للمرة الأولى . قال :

ـــ أنت قد ذهبت عند الله .. وأنا أعد نفسى ..

وخرجت الكلمات من فمه بطيئة ، متعثرة :

ـــ مرت حياتى ، كما مرت حياتك من قبل ..

وخالط صوته ارتجافة :

ـــ هل نلتقى فى الـــ ..

بدل الكلمة :

ـــ الآخرة !..

عانى جسمه حمى غريبة . فتح عينيه على رؤية الحور العين ، تتوسطهن أم العيال فى شبابها القديم . ابتسم لعرائس البحر يراقصن جمعة العدوى و سباعى سويلم والمليجى عطية وحودة التيتى . حتى البهاء اسماعيل سعفان جلس تحت قدميه ، وسأله عن أبيه . تعالى الأذان بالصلوات الخمس فى مئذنة لانهاية لارتفاعها ، وانتقلت مقابر العامود إلى حدائق أجمل من أنطونيادس والمنتزه والشلالات .

لم يركب الرجال البحر ، ومضى اليوم فى الحلقة بلا بيع ولا شراء ، واختفت العربات والفريشة من الساحة

المقابلة . وأغلقت دكاكين وقهاوى السيالة أبوابها ، وانصرف المصلون فى الجوامع إلى تلاوة القرآن ..

داخل قاسم الغريانى شعور مبهم ، حزين ومقبض . الجد السخاوى شيخ ، والموت حق . الشعور أقرب إلى الذنب . ناقش الجد السخاوى ، ورفض آراءه ، وضايقه ، وسخر منه ، وتمنى موته . صدّق الجد السخاوى مواجهته للوحش داخل البحر ، وقتله . رفض أن يركب البحر بدونه ، هو السكوندو ، يجب أن يلازمه . وحين خذلته عافيته أوصى بالغريانى مكانه ..

هل يغفر له الجد السخاوى ما فعل ؟..

فاجأ الرجال بأنه لن يركب البحر ..

كان يحب الجد السخاوى ، وإن مال إلى مشاكسته . ربما دفعه عناد الجد السخاوى إلى الغضب والشجار ، لكن مكانة الرجل ظلت على حالها ، لم تتبدل . لم يتصور أنه يصعد البلانس ، فلا يسبقه الجد السخاوى ، توقعاته ، وملاحظاته ، وأوامره ، وذكرياته التى لا تنتهى . لم يكن يشغل نفسه بتجهيز البلانس قبل الإبحار ، إمداده بالتموين من الماء والطعام والشاى والسكر والجاز والبنزين وألواح الثلج

وصناديق الدخان والأدوية ، التأكد من متانة الدفة ، وسلامة الشراع ، وطريقة فكه ، ونشره ، فى مواجهة الرياح واتجاهاتها . وكان الجد السخاوى يجيد التنبؤ بأحوال البحر : تيارات المد والجزر ، وارتفاع الموجة ، وسرعة الرياح ، والنوات وسحب الأمطار ، وحرارة المياه ، وكمية الرطوبة ، والضوء ، ومواعيد السفر ، ومناطق الوفرة والجدب ، والتطلع ــ بفهم ــ إلى الأفق ..

أطلق شعر رأسه ولحيته ، وأهمل نظافته الشخصية ، ولم يعد يتردد على حمام الأنفوشى ، وغلب الحزن عليه فى جلسات القهوة ، وأسرف فى المشى ــ بلا هدف ــ فى شوارع بحرى ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ــ الموت علينا حق !

تقلصت ملامحه بالتأثر :

ــ ضايقت الرجل كثيراً فى حياته ..

قال حمودة هلول :

ــ كلنا كنا نشاكسه .. ولم يكن يغضب ..

وربت كتفه فى إشفاق :

ـ هل تقطع عيشك بيدك ؟..

كوكب الصبـــح

نادى الشيخ قرشى على ابراهيم سيف النصر عبر ميدان الخمس فوانيس . ابتدره ليطمئنه وهو يمسح النوم من عينيه :

ــ خيراً ..

النهار فى أوله ..

الشمس لامست أسطح البيوت . أنفاس الصباح رطبة ، وإن انتشرت رائحة البحر فى الجو ، وتشبعت الرطوبة بالملح . بدأ المستلقون لصق جدار أبو العباس ينهضون ، ويطوون أغطيتهم ، ووارب على تمراز بابه المطل على شارع رأس التين ، وفتحت نوافذ مصاريعها بما لم يعهده فى هذا الوقت ، وترامى نداء بائع الفول المدمس والبليلة ، وعلا إيقاع جياد السراى المنتظم فى عودتها من جولتها الصباحية ..

قال :

ـ أذاع الجيش بياناً فى الراديو ، يعلن فيه عن قيام حركة سماها البيان مباركة ..

ازدرد ريقه :

ـ هل تظن ؟

قال الشيخ قرشى :

ـ لابد أن البيان سيذاع ثانية .. دعنى أستمع إليه ..

دفعته اللهفة إلىالخروج ..

جلس فى قهوة المهدى اللبان . فتحت الراديو على آخره . تتوالى المارشات العسكرية . يتخللها إذاعة بيان الجيش . سبقه ـ ولحقه ـ رواد القهوة . حتى الذين اقتصر جلوسهم على فترة ما بعد المغرب . كان نجاتى ينظف داخل القهوة ، وأمامها ، من آثار السهر إلى منتصف الليل ، ويرتب الكراسى والطاولات ، ويساعد عنتر عامل النصبة ، فى تسخين الحليب ، وصف الزبادى والرز باللبن ، فى الثلاجة ذات الواجهة الزجاجية ، وغسل الفناجين والأكواب ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ـ حدث ما كان يجب أن يحدث ..

رنا إليه الشيخ أبو دومة بنظرة ود :

ـــ لعل الحركة تستهدف إعادة الوفد إلى الحكم ..

قال المهدى :

ـــ لعل الإنجليز فعلوها لصالح الملك ..

قال حمدى رخا :

ـــ وأين أمريكا من الموضوع كله ؟..

قال المهدى وهو يعد الماركات :

ـــ يا خبر بفلوس ..

علقت النظرات بطريق الكورنيش ..

لم يكن ثمة ما يشى بتغير . لا جنود ولا سيارات عسكرية . الفلايك تصطاد فى الميناء الشرقية ، وصيادو السنارة أعطوا ظهورهم للطريق . أعداد قليلة يتمشون على الشاطئ ، وأولاد التصقوا فوق سور الكورنيش ، يتابعون صيد الجرافة . حتى عسكرى خفر السواحل يمشى بخطواته المتمهلة ، والبندقية تدلت من يده ..

قال فهمى الأشقر متذكراً :

ـــ أمسك الولد الصغير حمامة ليست من البنية ..

ومصمص شفتيه فى تصعّب :

ـــ أطلقها المغفل وقال إنها ليست ملكنا ..

ورنا ــ بتلقائية ــ إلى السماء . تناثرت فيها غيوم بيضاء ، صغيرة ، متباعدة ..

ـــ لم أر مثل جمالها ..

قال أحمد أبو دومة :

ـــ ربما الملك أطار بنياته لحمايته ..

قال فهمى الأشقر :

ـــ الجيش أقسم يمين الولاء للملك .. فلا شأن له بما يجرى ..

فاجأه أبو دومة بالسؤال :

ـــ ماذا تكسب من هواية الحمام ؟..

قال فهمى الأشقر :

ـــ إنها هواية .. لا شأن لها بمكسب ولا خسارة ..

قال حمدى رخا فى شروده :

ـــ ما أجمل أن يكون الإنسان حمامة ترى الدنيا من فوق ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ـــ يكفيك النظر من سطح البيت !..

قال أدهم أبو حمد وهو يستقر فى كرسيه :

ــ على ماهر رئيساً للوزراء .. تانى ؟!

ووشى صوته بضيق :

ــ هذا الرجل مثل النبات الشيطانى .. لا طعم ولا ثمر ..!

أزمع ، فى مرات كثيرة ــ بينه وبين نفسه ــ أن يغيّر حياته كلها ، لكنه كان يلتقط ملابسه ، عقب صلاة العصر . ينزل إلى طريق الكورنيش . يميل من إسماعيل صبرى . يلقى التحية على الجالسين ، أو يكتشف حضوره الباكر ، فينتظر ..

يداخله احساس أن أيام جلوسه على قهوة المهدى اللبان قاربت على الانتهاء . اعتاد التأخر عن موعد اللقاء بملاغاة عبد الرحمن ، طفله الصغير . ربما الأجدى أن يظل معه فى البيت . ليلة البيات فى قسم الجمرك خلّفت فى نفسه أثراً ، لم تفلح كلمات أصدقاء القهوة فى إزالته ، أو التخفيف منه . الحياة ــ أيام الإنجليز ــ فى الجهاز السرى والقتل والتعذيب والفرار والاختفاء ، تختلف عما ينبغى أن يلقاه الآن . لم

تزايله ملامح الضابط الشاب ، شخطه ، نطره ، قوله الآمر : ضعوه فى الحجز !..

هو لن يظل يتردد على القهوة إلى آخر العمر . لا يتصور أنه يموت على كرسيه . لم تعد ساقاه تتحملان نزول سلالم البيت ، وصعودها ، ولا المشى من البيت إلى قهوة المهدى اللبان . حتى القومة ــ فى نهاية الجلسة ــ كانت مرهقة . يكتم حاجته إلى من يمد راحته ، فيعينه على القيام ..

هؤلاء الجالسون معه أصدقاؤه . أخذ عليهم ، وأخذوا عليه ، وجد فيهم صداقة ومؤانسة ومودة ، لكن النوم يعقبه اليقظة ، والحياة تنتهى بالموت ، والقطار له محطة وصول ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ــ لكن محمد نجيب أصبح قائداً للقوات المسلحة ..

قال الشيخ أبو دومة متذكرا :

ــ محمد نجيب ؟.. أليس هو اللواء صاحب أزمة نادى الضباط ؟..

تبادلوا نظرات غير فاهمة ..

قال أدهم أبو حمد :

ــ ولماذا على ماهر ؟..

قال سيف النصر :

ــ لو جاءوا بسواه .. فسنسأل : لماذا ؟..

قال المهدى اللبان :

ــ شاهدت هذا الصباح حافظ عفيفى فى سيارة على الكورنيش ..

رفع سيف النصر حاجبيه :

ــ يتنزه ؟! ..

قال حمدى رخا :

ــ لعله كان فى طريقه إلى سراى رأس التين ..

وهو يحك ذقنه بأصابعه :

ــ تصرف له احتمالاته ..

قال حمدى رخا :

ــ أنا رأيت الملك وناريمان ومعهما الطفل فى سيارة مغلقة على طريق الكورنيش ..

قال سيف النصر :

ــ ربما ليس الملك .. هل يتنزه وقت الخطر ؟!

قال حمدى رخا :

ــ لا .. هو .. السيارة الحمراء لا يركبها سوى الملك ..

قال سيف النصر :

ــ لعله انتقل من المنتزه إلى رأس التين .. حرسه هناك !

تكرمشت ملامح أبو حمد :

ــ هل تتصور أن بضعة ضباط يستطيعون أن يفعلوا شيئاً ضد الملك والإنجليز ؟..

وقال فى نبرة متألمة :

ــ هل نسينا ما جرى لعرابى ؟..

قال زكى بشارة :

ــ إذاعة الشرق الأدنى أكدت أن الإنجليز والأمريكان لن يتدخلوا مادامت أرواح الأجانب فى سلام .. ومادام الجيش الإنجليزى فى القناة بعيداً عما يجرى ..

قال أبو حمد :

ــ ماذا يفعل الجيش أمام السلاح البحرى والحرس الملكى وسلاح الحدود ؟..

قال زكى بشارة بنبرة واثقة :

ــ واضح أنها حركة داخل الجيش ..

ثم وهو ينقر بأصبعه على الطاولة :

ــ امتداد لمشكلة انتخابات نادى الضباط ..

قال سيف النصر :

ــ البيانات وبرامج الإذاعة وتأليف على ماهر الوزارة وتعيين محمد نجيب قائداً للجيش .. كل ذلك يؤكد احتمالات أخطر !..

قال فهمى الأشقر :

ــ هذه حركة داخل الجيش .. وإلاّ لما قبل صديق الملك على ماهر رئاسة الوزارة ..

وتنحنح ليزيل حشرجة فى حلقه :

ــ لا أتوقع جديداً .. وافق الملك على طلب الجيش ، فكلف على ماهر بتأليف الوزارة ..

ثم بلهجة مؤكدة :

ــ انتهى الأمر !..

اتجه الشيخ أحمد أبو دومة إلى أدهم أبو حمد بنظرة مشاركة :

ــ يبدو أن ما كدت تفقد حياتك من أجله .. قد تحقق ..!

الفزع الهائل فى العينين المتسعتين عن آخرهما ، انعكس بالارتعاشة فى يده الممدودة ، الخائفة . ترك السكين مغروسة فى البطن المتفجرة دماً ، وجرى . مال من شارع اللبان . أخذته انحناءات الشوارع والحوارى . لا يدرى إلى أين . تلاحقه صفافير وصرخات وأصوات فتح نوافذ وومضات ضوء وتناهى أذان من مسجد قريب . عينا العسكرى الإنجليزى المتسعتان تسبقانه ، تطاردانه ، تلحان عليه . طالعته ظلمة البحر بأنوارها المتناثرة ، المتباعدة ، وامتدادات الأمواج فى الشاطئ الرملى . والبيوت الصغيرة ، المتساندة ، على الشاطئ أطفأت أنوارها . اطمأن ــ بالتلفت ــ إلى غياب المطاردة ..

ابتلع إحساساً بالمرارة :

ــ أنا لم أعد أثق فى كل رجال السلطة ..

واتجه إلى سيف النصر بنظرة متسائلة :

ــ وهذا النجيب .. هل كان الملك يتركه حتى رتبة اللواء لولا أنه من رجاله ؟!..

قال سيف النصر :

ــ صحف المعارضة أكدت أن الضباط اختاروه لرئاسة ناديهم رغم معارضة الملك ..

قال حمدى رخا :

ــ مهما تكن صورة المستقبل فإنه لن يكون أسوأ من أيامنا الحالية ..

ثم فى لهجة مطمئنة :

ــ فلنأمل خيراً !..

ذلك النهـــار

صحا على طلعات الطائرات الحربية فى سماء المدينة منذ الصباح ..

قال زكى بشارة ، إنه رأى ــ عقب الفجر ــ طابوراً طويلاً من الدبابات ، يتجه الى سراى رأس التين ..

هل يبين الأفق عن جديد اختفت توقعاته ؟..

لم يكن ثمة ما يعلن عن الثورة ، سوى بيانات الراديو والأغنيات الوطنية ، والدبابات المتناثرة فى الميادين ..

أحس بغير المألوف فى اقترابه من سراى رأس التين . الترام يعود فى انحناءة الطريق إلى السراى . حشود من الناس ، شكلوا حائطاً ممتداً من رصيف الكورنيش إلى محطة الترام النهائية . تداخلت الكلمات ، واختلطت ، وتشابكت ، وهمست ، وعلت . داخلها نداءات وضحكات ورنات سخرية وتعليقات مدغمة . تبين خلف الحائط البشرى ثلاثة صفوف من الجنود . حملوا البنادق والرشاشات .

عزلوا السراى ــ بمسافة ــ تمتد من قبل الحديقة الواسعة ، الى الشاطئ المطل على الميناء الغربية . خلت المساحة إلى السراى التى أغلقت أبوابها ونوافذها ، ومبنى الحرس الملكى المجاور ، وقف فوق سطحه جنود ، فى أيديهم مدافع رشاشة وبنادق . حديقة السراى خالية ، صامتة . حتى الأشجار المتناثرة لفها سكون ، والمتحف البطلمى المجاور أغلق أبوابه ، ومنع كردون الجنود المرور إلى نهاية خط الترام ومستشفى رأس التين . والتف القصر الصغير ــ على ناصية الطريق المفضى إلى محطة الترام النهائية ــ بالسكون ، وأغلق أبوابه ونوافذه ، فيما عدا نافذة فى الجانب المطل على الحديقة ، وقف وراء ضلفتها المواربة وجه غابت ملامحه فى تداخل الظلال . حتى البيوت المطلة على الساحة الواسعة ، أغلقت نوافذها وشرفاتها ، وإن أطلت أعداد قليلة من فوق الأسطح البعيدة ..

تعرف الى الكثير من جيرانه وأصدقائه ، وقفوا وسط الناس : حمدى رخا ، الشيخ قرشى ، فهمى الأشقر ، زكى بشارة ، الشيخ أحمد أبو دومة ، بائع الدندرمة أسفل البيت المجاور ، كاتب المحكمة الشرعية بشارع فرنسا . كمال

مصباح تاجر المانيفاتورة . وتعرف إلى وجوه ألف رؤيتها فى جلسته على قهوة المهدى اللبان ، وفى شوارع بحرى ، وبين المصلين فى على تمراز ..

قال حمدى رخا :

ــ من كان يتصور ؟

قال إبراهيم سيف النصر :

ــ بديهى أن من كتبوا ضد الملك كانوا يتصورون ..

قال الشيخ قرشى :

– هذه إذن نهاية أيام أربعة غريبة ..

تخلى حمدى رخا عن شروده :

ــ ربما هى البداية .. لكنها ــ بالتأكيد ــ ليست النهاية ..!

قال محمود عباس الخوالقة :

ــ حدث فى الصباح تبادل لإطلاق النار .. دقيقتان أو أقل .. ثم سكت !..

انطلقت ــ فجأة ــ رصاصات من ناحية قشلاق الحرس . رد عليها الجنود المحاصرون . ثم خرج من

قشلاق الحرس يوزباشى يحمل علماً أبيض ، وطلب إيقاف الضرب ..

كان حمدى رخا يتخيل ما وراء الأسوار ، والباب العالى ، والنوافذ المغلقة . اذا لمح سيارة حمراء فى طريق الكورنيش ، وضع انتباهه فى عينيه ، يتمنى أن يكون الملك داخلها . يقودها ، أو يجلس فى المقعد الخلفى . اللون الأحمر يقتصر على سيارات الملك وعربات المطافىء . يجلس فى الحديقة الواسعة ، المواجهة لسراى رأس التين . يقرأ جريدة أو كتاباً تحت ظل الشجرة . يسترخى فى القيلولة . تمسح نظراته الشاطئ ، والصخرة فى نهاية الأفق ، والبيوت المتآكلة الحجارة ، ومبنى الحرس الملكى ، وباب السراى العالى . يتخيل ما يروى عما بداخل السراى ، ما لم يره فى حياته ، ولا خطر فى باله . كالحواديت ، أو كالخيال : الحدائق الممتدة إلى قلب البحر ، تحوى من الورود ما لا يوجد إلاّ فى الجنة . الرقصات العارية لسامية جمال ، والنساء القادمات من السحر ، والخمر ، وأنفاس الحشيش ، والأغانى والموشحات ، والإيقاعات الهامسة والصاخبة ،

والمآدب ، والأضواء الملونة ، والخافتة ، وأطباق الذهب والفضة ، والملابس المبهرجة ، والشماشرجية ..

كان الناس يتصايحون لرؤية السيارات التى يأذن لها حصار الجنود بالمرور . من يتعرف إلى الجالس فى السيارة ينطق باسمه : هذا الجالس بين حارسين فى السيارة الجيب ، بوللى شماشرجى الملك .. هذا هو السفير الأمريكى جيفرسون كافرى .. هذا سليمان حافظ وكيل مجلس الدولة ..

قال الشيخ قرشى :

ــ كنت أقرأ عن بوللى .. لم أره إلاّ اليوم ..

وتلون صوته بحيرة :

ــ صورته فى بالى غير ما رأيته ..

قال سيف النصر :

ــ كيف كنت تتصوره ؟..

قال الشيخ قرشى :

ــ تصورته بغلاً .. فرأيته ضفدعة !..

أشار ضابط فى حوالى الثامنة والعشرين إلى الجنود . دفعوا ــ بأيديهم ــ الصف الأول من الواقفين . توزعت

الصفوف التالية ، ثم عادت إلى الالتئام ، وإن امتدت بينها انفراجة ، تتيح للسيارات المضى داخل السراى وخارجها ..

لمح عباس الخوالقة فى عربة جيب ، رجلاً أسمر البشرة ، يرتدى ملابس مدنية ، يجلس بين ضابطين :

ــ هذا هو قريبك حلمى حسين ..

قال عبد الوهاب مرزوق بسرعة :

ــ لم أقل إنه قريبى .. مجرد معرفة !..

قال محمود عباس الخوالقة إنه رأى الملك يقود سيارته الليلة الماضية بنفسه . معه زوجته وابنه والمربية ، وإلى جواره شخص لم يعرفه . تلحقه سيارة أخرى بها بناته من الملكة فريدة ..

قال خميس شعبان :

ــ هل يدبرون شيئاً ضد الملك ؟

قال جميعى حميدة :

ــ لا أدرى !.. إنهم هكذا من الصباح ..

تساءل خميس شعبان :

ــ والحرس الملكى ؟

قال جميعى حميدة :

ـــ تبادل مع القوات المحاصرة بضع طلقات .. ثم هدأ الموقف ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ـــ هل يعزلون الملك ؟

قال فهمى الأشقر :

ـــ لن يتركهم الأمريكان أو الانجليز يفعلون ذلك !

قال قاسم الغريانى لمنصور مكاوى :

ـــ غداً يخرج الإنجليز من معسكرات القناة ، وتعود للعمل فيها ..

قال منصور :

ـــ أنا أخذت على حياة البحر ..

نطقت ملامح ابراهيم سيف النصر بعدم التصديق ، لما روى عباس الخوالقة عن كوب عصير الدجاج الذى يشربه الملك كل صباح ..

قال عباس الخوالقة فى تأكيد :

ـــ الملك لا يهمه الفلوس .. يستطيع أن يصرف مائة جنيه فى اليوم ، فلا يتأثر جيبه !

قال الخوالقة :

ـــ كانت الأبواب تفتح أمامنا لسيارات ، يركبها سيدات شقراوات ، أجنبيات الملامح ، يرتدين ملابس كالعرى ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ـــ الملك يطلب النساء من الألبوم ..

قال جميعى حميدة :

ـــ قيل إن الشيخ عبد الحفيظ عاد الى على تمراز من القائد ابراهيم ، وأم المصلين أمس فى صلاة الجمعة ..

أطلقت المدفعية من خلف السراى طلقات منتظمة ، واحداً وعشرين طلقة ، هلل لها الناس . ثم سكتت ..

صحب إبراهيم سيف النصر حمدى رخا إلى بيته ، فى منتصف المسافة بين السلسلة ونهاية الميناء الشرقية . خلا امتداد أفق البحر ـــ بامتداد الكورنيش ـــ من عمليات الصيد ، وإن تناثرت البلانسات والفلايك واللواتس والدناجل ـــ ساكنة ـــ فى مساحات المياه . وكانت الساحة أمام دكان الحاج محمد صبرة خالية . حتى كراسى القعدة لم تكن فى موضعها ، وأغلقت إحدى ضلفتى الدكان . وبدا من تزايد الجالسين على القهاوى والأندية الشعبية والمطلين من النوافذ ، فى الناحية المقابلة للشاطئ ، انعكاسات ما حدث . وتناثر

ــ فى نواصى الشوارع ــ جنود ، وعربات عسكرية ، ودبابات صغيرة ..

نظر سيف النصر ــ من النافذة ــ إلى الميناء الشرقية ..

كانت الشمس قرصاً أحمر فى نهاية الأفق ، وظلال الغروب زحفت على الجدران ، وسعف النخيل فى الرصيف المقابل للكورنيش يهتز بنسائم هادئة ..

امتدت يد حمدى رخا إلى الراديو :

ــ ماذا جرى فى السراى هذا النهار ؟..

سكتت الموسيقى العسكرية لصوت المذيع جلال معوض :

" بنى وطنى : إتماماً للعمل الذى قام به جيشكم الباسل فى سبيل قضيتكم ، قمت فى الساعة التاسعة صباح يوم السبت ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، الموافق ٤ من ذى القعدة ١٣٧١ ، بمقابلة حضرة صاحب المقام الرفيع علىماهر باشا رئيس مجلس الوزراء . وسلمته عريضة موجهة إلى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، تحمل مطلبين على لسان الشعب .. "

هذا إذن سر حصار السراى من الصباح ، وسر السيارات الداخلة والخارجة ، تحمل وجوهاً اعتاد رؤيتها فى صفحات الجرائد ..

هل اعتزل الملك الحكم فعلا ؟..وأين ذهبت به المحروسة ؟..

أعاد سيف النصر التطلع إلى الميناء الشرقية ..

البحر حصيرة ، والموج يلامس الصخور ببطء . الشمس تحولت إلى نصف برتقالة هائلة ، فى نهاية مدى البحر . وثمة مراكب متناثرة فى حدوة المياه الواسعة ، فردت أشرعتها ، وصياد طراحة يرمى شبكته ، قبل أن تسود الظلمة تماماً . وحركة المرور هادئة ، لا تشى بما جرى طيلة النهار . حتى طيور النورس اختفت ، فأين تذهب ؟.. طيرانها فوق الشاطئ ، فأين تذهب ؟..

تنبه لأذان العشاء من أبو العباس ، تداخل بالأذان فى البوصيرى وياقوت العرش ونصر الدين ..

مال ــ بعد الصلاة ــ على المهدى اللبان ..

فوجئ بزحمة الرواد على كراسيها :

قال المهدى اللبان :

ـــ أعترف أنى تصورت نجاح الجيش فى الاستيلاء على الحكم نهاية الأحداث الغريبة .. لكن خروج الملك ألغى تصورى ..

كل ما جرى لا صلة له به . الجيش الإنجليزى يواجه المتظاهرين فى ثورة ١٩١٩ ، والمتظاهرون يهتفون للجيش المصرى فى حصاره لسراى رأس التين . هو يحيا فى غير زمانه ..

قال إبراهيم سيف النصر :

ـــ ما حدث كان متوقعاً .. حتى الشيخ أبو دومة كان يتوقع ما حدث ..

علا صوت أحمد أبو دومة بالغضب :

ـــ ولماذا تسبقنى بحتّى ؟.. هل أنا أقل فهماً من الآخرين ؟..

قال فهمى الأشقر :

ـــ يقصد أنك مشغول بالتدريس عن السياسة ..

قال سيف النصر :

ـــ أثق أن خروج الملك كان مقرراً منذ البداية .. لم يعزلوه فى اليوم الأول لأنه كان بعيداً عن القاهرة ..

وتنهد :

ــ من حظ الإسكندرية أن تشهد خروجه !..

***

وفاة الملك السابق ..

تقاضى البائع مقابل نسخ الجريدة ، وجرى ، يسبقه النداء ..

مات الملك ؟ كيف ؟

داخل إبراهيم سيف النصر إحساس بالخيبة . أحس بما يشبه الدوار ، والميل إلى الإغماء ، ونبتت فى جبهته حبات عرق . ظلت الجريدة فى يده ، لا يحاول قراءتها . هل قتلوه ؟ وهل بدأ الجيش حمام الدم ؟..

تنبه على ضحكة الشيخ قرشى :

ــ إبن الكلب سرق فلوسنا ..

وأعاد قراءة الجريدة بصوت مرتفع :

ــ وفاة الملك السابق أدبياً ومعنوياً ..

هتف سيف النصر بالمفاجأة :

ــ قتلوا الرجل على الورق ليفوزوا بتعريفة !..

الآن .. عرفـــت

" اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . ياأرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى . إلى من تكلنى ؟.. إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟.. إن لم يكن بك على غضب ، فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك . لك العقبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلاّ بك "

من حزب النور لأبو الحسن الشاذلى :

" يا ألله ، يا نور ، ياحق ، يامبين . افتح قلبى بنورك ، وعلمنى من علمك ، وفهمنى عنك ، وأسمعنى منك ، وبصرنى بك ، وأقمنى بشهودك ، وعرّفنى الطريق إليك ، وهونها على بفضلك ، وألبسنى التقوى منك . إنك على كل

شيء قدير . اللهم اذكرنى وذكّرنى ، وتب علىّ ، واغفر لى مغفرة أنسى بها كل شيء سواك ، وهب لى تقواك ، واجعلنى ممن يحبك ويخشاك ، واجل لى من كل هم وغم وضيق وهوى وشهوة وخطرة وفكرة وإرادة ، ومن كل قضاء وأمر فرجاً ومخرجاً . أحاط علمك بجميع المعلومات ، وعلت قدرتك على جميع المقدورات ، وجلت إرادتك أن يوافقها أو يخالفها شئ من الكائنات . حسبى الله ، وأنا برىء مما سوى الله . الله لا إله إلا هو . عليه توكّلت ، وهو رب العرش العظيم ".

طالت وقفتها أمام المجيرة الملاصقة لبيت أمين عزب..

كان الليل قد جاوز منتصفه ، والاضواء انطفأت فى النوافذ ، أو أغلقت عليها ، ومصابيح غاز الاستصباح تلف شارع اسماعيل صبرى برمادية ، وإن استطاعت تبين أحجام البنايات والظلال . قهوة فاروق ، البعيدة ، وحدها ، ترامت منها أنوار ، ونداءات ، وأغنية لعبد الوهاب :

يااللى نويت تشغلنى   طاوعنى وابعد عنى

كانت تقلب الرأى فيما قررت ، عندما أخبرها سيد بخروجه مع الرجال فى رحلة صيد . لم يكن قد ركب البحر من قبل . وافق على دعوة قاسم الغريانى ، لطرد الضيق من نفسه . ما حدث يساوى صلاة استخارة . الله أعلم بحالها وما تعانيه ..

هل تستطيع ؟

والتوبة ، وظهور السلطان ، وليلة الحلم ، وياقوت العرش ، وزواجها من سيد ، وبيت البلقطرية ، والحياة المستقرة ؟..

هى حاولت . بذلت كل ما استطاعت . فتحت الكتاب . ذهبت إلى المشايخ البعيدين : الشاطبى والقبارى والسمك والسماك وجابر الأنصارى . حتى سيدى العجمى لجأت إليه . دعت أولياء الله بفك كربتها . تحمل ، وتلد . لا يتكرر قتلها بالسقط المفاجئ . ابتلعت ما لطم اسمه أذنها للمرة الأولى من أعشاب نصح بها الحاج محمد صبرة ، الكافور وبصل العنصل والكمون التركى والشمر وشوك الجمل والبردقوش . طحنتها ، وصحنتها ، وخلطتها ، وابتلعتها ، مغلية ، أو فى سفوف . علقت فى رقبتها سلسلة تحمل حجاب

دم من الزجاج الأخضر الشفاف ، يمنع النزيف ويوقفه . سعت إلى شاطئ الأنفوشى فى الصباح الرمادى ، رمت حجاباً حشته الشيخة نبيهة بالآيات والأدعية والطلاسم . حتى ما لم تكن تتصور أنها تفعله رضيت به : شربت ، وأكلت ، ما تقرفها رائحته ، لحست بطن الترسة ، مشت فى دم الحمامة المذبوحة ، الساخن ، خاضت مياه البحر وهى لا تحسن العوم ، تحممت بالماء المتخلف من حلاقة سيد لذقنه ، أكلت قطعة خبز مغموسة فى بول سيد ، جرعت كوباً من دم الترسة الساخن ، تغسلت بليفة ميت ، دخلت قبراً مهجوراً ، تمددت فى نعش ، أمضت الليل مع المساخيط فى المتحف البطلمى برأس التين ، تلقت فى حجرها فأراً ميتاً ، وثعباناً منزوع الأنياب ..

طلاقها من سيد هو ما لا تريده ، وتخشاه . قد لا يطلقها ، لكنه سيتزوج عليها . تعلم أنه لن يرزق بأبناء ، وإن كانت تثق أنها لن تصبح سيدة بيتها . ستشاركها أخرى البيت ، وحياة سيد ..

لم تعد تحتمل ، وإن كتمت الرغبة فى أن تترك البيت ، وتمضى ..

إلى أين ؟..

ياسيدى السلطان : هل أخطأت فتخليت عنى ؟ .. يعلم الله أنى ــ منذ زواجى ــ ألزم البيت . لا أعرف غير حضن سيد . حتى البيت المهجور ، لم أعد أذهب ناحيته ..

هل يرضيك خراب بيتى ؟..

يا سيدى ياقوت : لاقيمة لشقة أسكن فيها بمفردى . هل تقيم المرأة فى شقة بلا رجل ؟ وهل أعود إلى ما نسيته ؟..

الصراخ فى أعماقها ، والعمر يجرى ، والمعايرات لا تنتهى ، والإنجاب أمل تدفع حياتها ثمناً لتحقيقه . الثمرة تشغلها ، ولا تهمها الوسيلة ..

الشيخ حماد !..

تخايل أمامها : الجسم الضخم ، والقدمان الحافيتان ، والصوت الزاعق ، والقميص الخيش ، والعصا الغليظة ..

هل يكون ؟ ..

فى ليلتها الخامسة ببحرى ، لم تكن عرفت البيت المهجور . غاب محمود عباس الخوالقة . دس الرجل عشرة قروش فى يدها ، وفتح باب الشقة ..

دهمها خوف :

ـــ أوصاك محمود أن أظل الى الصباح ..

قال وهو يلكزها بيده :

ـــ لا شأن لى بمحمود .. جئت لعمل ، وأخذت أجرك..

وصفق الباب وراءها :

ـــ مع السلامة !

نزلت السلالم إلى حارة أبو شال . طالعتها المجيرة فى شارع إسماعيل صبرى . بدت أملاً فى فضاء الليل . لمحت شبحاً يدخل من الباب : قامة ضئيلة ، ينفرج ما بين ساقيها ، فصاحبها يرتدى بنطلوناً . صرّ الباب للانفراجة التى أحدثها الرجل بما يكفى لدخوله . غاب فى العتمة . لدقائق ، ثم ترك المجيرة ، دون أن يعنى بإغلاق الباب . خمنت أنه دخل لفك حصره ..

تسللت ـــ تعانى الخوف ـــ من الفتحة الطولية ، الضيقة ، فى الباب الخشبى . فاجأها دفع العصا لباب الكوخ الصفيح ناحية الشارع الخلفى . أيقظها الصرير ، فانتترت من نومها . كتمت الصرخة لرؤية العصا ، والخوف من الفضيحة ، واتجاه الشيخ الى الخارج ..

ظلت فى مكانها ، متكومة حول نفسها . ترقب الباب الموارب ، حتى تسلل نور الصباح ..

تركت الكوخ على أطراف أصابعها ..

فوجئت بنومه أمام الكوخ ، بالقرب من الباب الموارب . أسند رأسه على بقايا جوال فارغ ، ووضع العصا أمامه ..

قضت اليوم فى البحث عن مكان تلجأ اليه إذا حل الليل ، حتى تبينت البيت المهجور بشارع سيدى داوود . دفعته برفق ، فانفتح . جاست داخله . اطمأنت ــ لخلوه من الأثاث ــ بخلوه من السكان ..

ترددت على البيوت ، واستقبلت فى بيت سيدى داوود . التباهى بالفعل يلغى كتم السر . إذا سكت الشيخ حماد ، فهو ما تأمله ، وإذا تكلم ، فمن يصدقه ؟..

نفذت من الفتحة الطولية ، الضيقة . طالت وقفتها وسط تلال الجير والرمال والزلط ، وشكاير الأسمنت والقفف والأجولة الفارغة ، وضوء خافت أعلى مئذنة على تمراز ، وكشافات السيارات تومض فى شارع اسماعيل صبرى ، وتختفى ..

قال لها سيد وهو يغادر البيت :

ــ بيت سليم البشرى بدأوا فى هدمه ..

حدجته بنظرة متأملة :

ــ أى بيت ؟

قال بلهجة محايدة :

ــ البيت الذى كنت تسكنين فيه ..

قالت لمجرد أن تناقشه ، تعطى وتأخذ ، تدفعه إلى الكلام معها :

ــ البيت فى شارع سيدى داود ..

أشاح بيده :

ــ لا أحد يعرف سيدى داود .. إنه جزء من سليم البشرى ..

ياه !..

اكتفت بالأحرف الثلاثة ، وإن لم تجد ما تقوله . تقلص داخلها بانقباض لم تدرك سببه ..

مدت أصابعها المرتعشة ..

دهشت للارتباك فى داخلها . تسللت تحت القميص إلى البطن . لامست خشونة الجلد . انتفض جسمه ، فاستعادت أصابعها ، وأغمضت عينيها ..

ظلت فى مكانها . لا صوت إلا أنفاس الشيخ كالشخير . لاحظت استجابته الهادئة ، الساكنة ..

فرج ما بين ساقيه ..

نفضت الملاءة عن جسمها ، وتسحبت . وخز القميص الخيش ساعدها . ثم زادت من التصاقها . بقى فى سكونه . فتسللت أصابعها إلى بطنه ..

بآخر ما عندها ، جذبته إلى صدرها ، وتمددت تحته ..

غاب فى تصرفاته الهادئة ، خوفها من التصرفات الصاخبة . حرص فلم يضغط بجسده الضخم عليها . حتى اللعاب المتخلف من فمه على كتفها ، مسحه بأصابع مترفقة..

* * *

حين نفذت من الفتحة الطولية الضيقة ، إلى شارع إسماعيل صبرى ، رأت ــ من بعد ــ جرسونات قهوة فاروق ، يرفعون الكراسى والطاولات ، ويغسلون الرصيف ..

مالت من الشارع الخلفى لعلى تمراز ، ومنه إلى شارع الشوربجى ..

مضت ــ بخطواتها المهرولة ــ نحو البلقطرية ..

***

في هذه اللحظات ، التى يطلع فيه الصباح ، كان الشيخ جابر برغوث يغادر جامع على تمراز . يحدوه إصرار فى السفر إلى القاهرة ..

أدى صلاة الفجر ، واستأذن من مقام سيدى الأنفوشى..

مضى عليه ما لم يحصره من الأشهر والأيام ، منذ اجتباه ولى الله ياقوت العرش ، واصطفاه لحضرته ، وخصّه بالسير حتى يقبض المعنى ، ويتمكن منه . تطهر من جنابة الغفلة . عادى حظوظ الدنيا ، وأحب حظوظ الآخرة . رفض الدنيا بحذافيرها ، وغاب عن نفسه وجنسه . فرّغ قلبه مما سوى ربه . اكتفى بورد واحد : إسقاط الهوى ، ومحبة الولى ، فيستحق تبليغ ما يأمره به ولى الله لإصلاح النفوس والأحوال . استبطأ تأخر الفتح ، وانبساط أنوار العناية ، ووجود الإقبال ، وتحصيل المعارف والأسرار والأنوار والمواهب والفتوحات والكرامات والمكاشفات ، إشارة السماء للخروج من المحنة ..

السفينة تغرق ، ولن يكون بوسع أحد ـــ بعد تمام الأمر ـــ حتى أن يبدى الندم ..

إذا كان السلطان قد حذر الناس ، فأهملوا التحذير . لم يحل وجود ياقوت العرش والبوصيرى وعلى تمراز ونصر الدين ومكين الدين والأنفوشى وغيرهم من أولياء الله فى الحى ، دون ارتكاب المباذل والشرور . التفت القلوب إلى ما سوى الله ، والتعلق بالأغيار ، وغرق الناس فى الغفلة ، وانغمسوا فى الذنوب والشهوات والعوائد . تشوهت النفوس بأفعال المعاصى ، تساقطت الأهلة من المآذن ، ومالت المآذن كأنها تهم بالسقوط ، وطمست الآيات وأبيات البردة فى الزوايا ، وتآكلت المقرنصات ، وانطفأت الشموع فوق الأضرحة والمقامات ، وعلا الأذان فى غير وقته ، وتمكنت الخيبة ، وغلب اليأس ، وحدث القنوط . عاد الدين غريباً ، كما كان ..

إذا كان ذلك ما حدث ، فإن الأمر يجاوز الأئمة ، لهم وقارهم . لم يعد من ملجأ إلاّ أقطاب الأقطاب . معادن أسرار الذات الإلهية ، والمميزين بطوالع أنواره . فضّلهم الله فى الدرجة ، وفى الرسالة واللطائف والخصائص . أقامهم فى

مقام الولاية العظمى ، وكشف لهم حقائق الأشياء بنور الإسم . صفوا من كدورات البشرية ، ورقوا إلى مجال المشاهدات ، فصفت أحوالهم بالتجرد ، وزكت أعمالهم بالإخلاص . بشرتهم الملائكة بأنهم أولياء الله ، يحفظونهم من أمره ـــ سبحانه ـــ حتى يدخلوا الجنة . ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا ، وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا ، وفى الآخرة ..

عليه أن يظل قائماً بما ألزمه أولياء الله بأمره . يلجأ الى رئيسة الديوان والأقطاب الأربعة : سيدى إبراهيم الدسوقى ، سيدى أحمد البدوى ، سيدى أحمد الرفاعى ، سيدى محيى الدين عبد القادر الجيلانى . سلاطين العارفين ، ملوك الحضرة الإلهية ، أصحاب الكرامات الخارقة ، والأنفاس الصادقة ، ذوو المحل الأرفع من مراتب القرب ، والتقديم على سائر خلق الله ، والمنهل العذب من مناهل الوصل ، والقلوب الممتلئة بالمعارف والأسرار ، وغوامض العلوم التى يعجز عنها فهمه . أحبهم الله ، ودعاهم إليه ، فرأوه بنوره ، نور ذاته . لا كيف ، ولا أين . امتلأت قلوبهم بمراقبة جلال الذات الإلهية ، وحظوا بمناجاة ربهم من وراء

الحجب النورانية . يعرض ما انتهى إليه الأمر . يذكر الأسماء والتفصيلات . يجتهد فى التذكر . لا يفلت حتى ما قد يبدو تافها وبلا معنى . يعطى انتباهه لسادة الديوان ، خصهم الله من أنواع الكرامة والمكاشفة والفضل . يتحرون الأمر ، يناقشونه ، يقلبونه . ثم يقضون بالصواب . تمضى به الطريق إلى معارج النور . تحل الواردات الإلهية ، فيحتضنها بالإقبال والتعظيم . يموت الجور وأهله ، ويتطهر الثوب النقى من الدنس ، ويصلح الزمان : يغاث الخلق ، تفتح حصون الضلالة ومدائن الشرك والقلوب الغلف . تزال البدع . تقام السنن والحدود والتعزيزات . يقبل الناس على العبادة والشرع والديانة والصلاة فى الجماعات . تأمن السبل . تظهر البركة والعدل . تؤدى الأمانة . يرد كل حق إلى أهله . تنعم الأمة ، وتطول الأعمار ، وتتضاعف البركات . يذهب الشر ، ويبقى الخير ..

أخذ الدستور من سيدى ياقوت العرش ..

أذن له ولى الله فى صحو كالمنام ، أو منام كالصحو . قال :

ــ سافر على بركة الله . ستنال مبتغاك بإذنه ..

اللهم بثبوت الربوبية ، وبتعظيم الصمدية ، وبسطوات الإلهية ، وبقدم الجبروتية ، وبقدرة الوحدانية .